

أَفْزَاقُ الْوَرْدِ

رَسَائِلُهَا وَرَسَائِلُهُ

تأليف

مصطفى صادق الرافعي

رواه

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة العاشرة

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

٨٢٠
ر١١

٢٦٥

١٧ ١٤٢٩

أوراق الورد
رسائلها ورسائله

فاتحة

« إنه ليس معي إلا ظلالها . ولكنها ظلال حية تروح وتجيء في ذاكرتي ، وكل ما كان ومضى هو في هذه الظلال الحية كائن لا يفنى . وكما يرى الشاعر الملهم كلام الطبيعة بأسره مترجماً الى لغة عينيه ، أصبحت أراها في هجرها طبيعة حسن فائق مترجمة يحملتها الى لغة فكري .

« كان لها في نفسي مظهر الجمال ومعه حماقة الرجاء وجنونه ثم خضوعي لها خضوعاً لا ينفعني ... فبدلني الهجر منها مظهر الجلال ومعه وقار اليأس وعقله . ثم خضوعها لخيالي خضوعاً لا يضرها ...

« وما أريد من الحب إلا الفن ، فان جاء من الهجر فن فهو الحب ...

« كلما ابتعدت في صدها خطوتين رجع إليّ صوابي خطوة ...

« لقد أصبحت أرى ألين العطف في أقسى الهجر ؛ ولن أرضى بالأمر الذي ليس بالرضا ، ولن يحسن عندي ما لا يحسن ولن أطلب الحب إلا في عصيان الحب ، أريدها غضبي ، فهذا جمال يلائم طبيعتي الشديدة ، وحب يناسب كبريائي ودع جرحي يترشش دماً ، فهذه لعمرى قوة الجسم الذي ينبت ثمر العضل وشوك الخلب ، وما هي بقوة فيك إن لم تقو أول شيء على الألم .

« أريدها لا تعرفني ولا أعرفها ، لا من شيء إلا لأنها تعرفني وأعرفها ...
تتكلم ساكنة وأرد عليها بسكوتي . صمت ضائع كالعبث ولكن له في القلبين
عمل كلام طويل ... »

مصطفى صادق الرافعي

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصدير

كانت قصة حب ...

ثم انتهت كما ينتهي كل حب بين اثنين تكون الفلسفة والكبرياء بعض عناصر وجوده ، وافترق الحبيبان على غير ميعاد ، وفي نفس كل منها حديث بهم أن يفيض به ... (١) .

وفعل الفراق بالرافعي ما فعل ، فأنشأ كتابيه « رسائل الأحزان » و « السحاب الأحمر » يصف فيهما من حاله ومن خبره وما كان بينه وبين صاحبتة ، فلما استفرغ ما كان في نفسه من خواطر الحب المتكبر ، ونفس عن غيظه بما ذكر من معاني البغض والهجر والقطيعة ليخضع بذلك نفسه عما تجد من آلام الفراق ويثأر لكبريائه - هدأت ثائرته بعد عنفوان ، وفاءت إليه نفسه ، واعتدلت مقادير الأشياء في عينيه ، فعاد إلى حالة بين الغضب والرضا ، وبين الحب والسلوان ، فاستراح إلى اليأس لولا أثاره من الحنين تنزع به إلى الماضي ، وبقيّة من الشوق واللهفة على ما كان . وفرغت أيامه من الحادثة لتمتليء من بعد بالشعر والحكمة والبيان .

ومضت سبع سنين والحياة تذهب به مذهبها ، والذكرى تغشاه في خلوته وتداعبه في أحلامه ، والأمانى التي بعثرتها الكبرياء بدداً في أودية النسيان

(١) انظر قصة الرافعي العاشق من كتابنا (حياة الرافعي) .

تتخايل له في شكول وألوان ، وخواطره من وراء ذلك تعمل ، ونفسه الشاعرة تحس وتشعر وتنفعل بما يتعاقب عليها من الرؤى والأحلام ، حتى اجتمع له ما اجتمع من الخواطر في « أوراق الورد » .

* * *

« أوراق الورد » هو طائفة من الخواطر المنشورة في فلسفة الجمال والحب أنشأه الرافعي ليصف حالة من حالاته ويثبت تاريخاً من تاريخه في فترة من العمر لم يكن يرى لنفسه من قبلها تاريخاً ولا من بعد .

ويقول الرافعي إنه جمع في أوراق الورد رسائلها ورسائله . أما رسائله فنعم ، ولكن على باب المجاز . وأما رسائلها فما أدري أين موضعها من الكتاب؟ إلا رسالة واحدة وجزازات من كتب ونتاجاً من حديثها وحديثه . بلى ، إن في أوراق الورد طائفة من رسائلها إليها ، ولكنها رسائل لم تذهب إليها مع البريد^(١) بل هي من الرسائل التي كان يناجيها بها في خلوته ويتحدث بها الى نفسه ، أو يبعث بها إلى خيالها في غفوة المنى ، ويسترسل بها إلى طيفها جلوة الأحلام ، إلا رسالتين أو ثلاثاً مما في أوراق الورد ... فلما أتم تأليفها وعقد عقدها، بعث بها إليها في كتاب مطبوع بعد سبع سنين من تاريخ الفراق !

* * *

ولكن أوراق الورد ليس كله من وحي حبيبته (فلانة) . وليست كل رسائلها في الكتاب إليها ، فهناك (فلانة) أخرى : هنالك صاحبة «حديث القمر» تلك التي عرفها في ربوة من لبنان منذ تسع عشرة سنة ، وهنا هذه...
هما اثنتان لا واحدة : تلك يستمد من لينها وسماحتها وذكرياتها السعيدة معاني الحب التي تملأ النفس بأفراح الحياة ، وهذه يستوحى منها معاني الكبرياء

(١) اقرأ ص ١٠٤ من كتابنا « حياة الرافعي » : رسائلها في المراسلة .

والصد والقطيعة وذكريات الحب الذي أشرق في خواطره بالشعر وأفعم
قلبه بالألم !

لقد مضت سبع سنين منذ أن فارق صاحبتة فلانة ، كان قلبه في أثنائها
خالصاً لها ، ولكن فكره كان يدور على معاني الشعر يلتمسه من هنا وهناك ،
فلما اجتمع له ما أراد ، ضم أوراق الورد إلى أشواكه وأخرجها كتاباً للفن
أولاً ثم لها من بعد .

هو كتاب ليس كله من نبضات قلبه الذي كان يعشقها ، ولكن فيه إلى
جانب ذلك فكر المفكر وعقل الأديب وحيلة الفنان .

بلى ، إنه كان يحبها حباً لا يتسع القلب لأن يشرك فيه غيرها ، فكان
(قلبه) لها من دون النساء جميعاً ، ولكن الذكريات كانت تتوزع (فكره)
فتوحي إليه من هنا ومن هنالك وما يستجد على خواطره من بعد معاني
الحب والبغض والود والقطيعة .

هو كتاب يصور نفسه وخواطره في الحب ، ثم يصور فنه وبيانه في لغة
الحب ، ثم لا يصور شيئاً من بعد مما كان بينه وبين صاحبتة على وجهه
وحقيقته إلا أن يتدبر قارئه ويستأنى ليستخلص معنى من معنى على صبر
ومعانة في البحث والاستقراء .

فأما رسالة فيها اللهفة والحنين ، وفيها التذلل والاستعطاف وفيها تصنع
الغضب ودعوى الكبرياء ، وفيها المنى الحاملة تتوابع بين السطور في خفة
الفراشة الطائرة وفيها ما فيها من معنى تحاول أن تمسكه فيفلت - فهي
فصل يؤدي أدائه في قصة هذا الحب العجيب .

وأما رسالة تصف ما كان في خلوة نفس إلى نفس ، وتقص في لغة الماضي
حديث قلب إلى قلب ، وتكشف عن سر الابتسامة ومعنى النظرة ، وتحدث
عن جمال الطبيعة وفلسفة الكون ، فهي ذكرى من الماضي البعيد كان حباً في
الدم فصار حديثاً في الفكر ، ثم استتبع شيء شيئاً .

وما قرأت من قول مزوق ، وبيان منمق ، ومعنى يلد معنى ، وفكرة تستجر فكرة، وعبرة تتوكأ على عبارة ، فهو من أداء الفن وولادة الفكر.

ولقد تجد رسالة كلها حنين ولهفة ، أو حادثة وذكرى ، أو فن من الفن. ولقد تجد كذلك رسالة غيرها تجمع هذه الألوان الثلاثة في قرن ؛ ففيها قلب ينبض ، وذكرى تعود ، وبيان مرصع .

فإذا عرف القارئ هذه الألوان الثلاثة وميز بعضها من بعض عرف الكتاب وعرف صاحبه ، وخرج منه بشيء .

* * *

يبدأ أوراق الورد بمقدمة بليغة في الأدب، يتحدث المؤلف فيها عن تاريخ رسائل الحب في العربية ، بأسلوب هو أسلوبه وإحاطة هي إحاطته وسعة اطلاع لا تعرف لغيره ، وهذه المقدمة وحدها هي باب طريف من أبواب الأدب العربي، تذكر قارئها ذلك النهج البارع الذي نهجه الرافعي العالم المؤرخ في كتابه « تاريخ آداب العرب » فكان به من أول من كتب في تاريخ الأدب وآخر من كتب ...

وتأتي بعد هذا الفصل مقدمة الرسائل ، وفيها سبب تسمية الكتاب ، ثم يمضي في هذه المقدمة يتحدث عن حبه ، وآلامه في الحب ورأيه في الحب ، وشيء مما كان بينه وبين صاحبه ، ثم يتحدث عن نهجه في هذه الرسائل ؛ وما أراد بها ، وما أوحاها إليه .. ثم تأتي بعد ذلك فصول الكتاب متتابعة على ما أوضحت طريقها من قبل : فيها حنين العاشق المهجور ، وفيها منية المتمني ، وفيها ذكريات السالي ، وفيها فن الأدب وشعر الشاعر ، وفيها من رسائلها ومن حديثها ...

* * *

من أراد أوراق الورد على أنه قصة حب في رسائل لم يجد شيئاً ، ومن أراد رسائل وجوابها في معنى خاص لم يجد شيئاً، ومن أراد تسلياً وإزجاء

للفراغ لم يجد شيئاً ، ومن أرادته نموذجاً من الرسائل يحتذيه في رسائله من يحب لم يجد شيئاً، ومن أرادته (قصة قلب) ينبض بمعانيه على حاله في الرضى والغضب، ويتحدث بأمانيه على حاله في الحب والسلوان - وجد كل شيء .

وهو في الفن فن وحده، ليس له في بيانه ومعانيه ضرب مما أنشأ الكتاب وأنشد الشعراء في معاني الحب ، على أنه - بأسلوبه العنيف وبيانه العالي وفكرته السامية في الحب - لا يعرف قراءه في العربية . وكم قارئ استهواه عنوانه وموضوعه فتناوله بشوق ولهفة ، فما هو إلا أن يمضي فيه صفحات قليلة حتى تسلمه يئناه إلى يسراه إلى الزاوية المهجورة من مكتبته ، وهيئات أن يعود اليه .. وكم قارئ كان لا يعرف الرافي الشاعر الشاعر العنيف في حبه وبغضه وكبريائه ، فلما قرأ أوراق الورد عرفه فاستخلصه لنفسه ، فما يعرفه في الأدباء إلا أنه مؤلف أوراق الورد .

ليت شعري أفني العربية كلها شاعر يستطيع أن ينظم ورقة واحد من أوراق الورد أو يجمع معانيها في قصيدة ؟ .. أين يكون هذا الشاعر وأين قراؤه يوم يكون ؟

أرأيت إلى المنجم الذي يمتد في الأرض ويتغلغل بعروق الذهب ؟ .. إنه كنز ، ولكن من ذا يصبر على المعاناة في استخراجهِ والبلوغ إلا أن يكون صاحب أيد وقوة ؟ . إنه كنز يطلبه الجميع ، ولكنك لن تجد في الجميع من يقدر على استخلاصه من بين الصخور المتراكبة عليه وحواليه من طبقات الأرض - إلا الرجل الواحد المحظوظ الذي يكون معه الصبر !

إن أوراق الورد منجم من المعاني الذهبية ، لو عرفه المتأدبون من شبابنا لوضعوا يدهم على أئمن كنز في العربية في معاني الحب والجمال يكون لهم غذاء ومادة في الشعر والبيان .

وكان الرافي (رحمه الله) يعتز بأوراق الورد اعتزازه بأنفس ما أنتج في أدب الإنشاء . ويباهي ويفتخر ، وما أحسبه تعزى عن صاحبه بقليل إذ تعزى بما لقي من النجاح والتوفيق في إنشاء أوراق الورد .

وكما تجدد الأم سلوتها في ولدها العزيز عن الزوج الحبيب الذي طواه الموت - وجد الرافعي العزاء في أطفال معانيه عن مطلقة العنيدة .

لقد فارقها ولكنه احتواها في كتاب !

إن الأم لا تنسى زوجها الحبيب إذا فارقها وخلف بين يديها بضعة منه ؛ ولكنها تجد العزاء عنه بشيء منه وإن قلبها ليخفق بذكره في عيني هذا الحبيب الصغير . وكذلك لم ينس الرافعي ولكنه وجد السلوى .

لقد أفلتت من يده ولكنها خلفت ذكراها معه ، ذكرى حية ناطقة تتمثل معاني وكلمات في كتاب يقرؤه كلما لج به الحنين فكأنه منها بسمع ومشهد قريب !

يرحمه الله ! لقد مات ولكن قلبه ما زال حياً ينبض يتحدث عن آلامه وأشواقه في قلب كل محب يقرأ كتابه فيجد فيه صورة من قلبه وعواطفه وآماله .

يرحمه الله !

محمد سعيد العريان

صدر من التاريخ

هذا الذئوان من الرسائل تكلّة على كتابين خرجا من قبل ، وما :
« رسائل الأحزان » و « السحاب الأحمر » فجملة آرائنا في فلسفة الجمال
والحب وأوصافها هي في هذه الكتب الثلاثة .

ورسائل « أوراق الورد » هذه تطارحها شاعر فيلسوف روحاني وشاعرة
فيلسوفة روحانية ، كلاهما يحب صاحبه كما يقول الفيلسوف ابن سينا « باعتبار
عقلي » (١) ، وسيرى القارئ فلسفة حبها في بعض ما يأتي ، كما رأى من
ذلك في الكتابين الآخرين . وقد جرت الرسائل بينهما على أغراضها في أحوال
مختلفة يكتب إليها بما عنده منها وما عند نفسه من نفسه ، وما يكون من
الوجود المحصور بينهما في حدود الحب . وكان تلك الكتب الثلاثة هي ما
استوجبته الحياة من عمل قلب ذلك الشاعر في تدوين حادثة واحدة من
حوادثه ، فلو أن بياناً أكثر من أن يكون بياناً لما علمته إلا هذا الأثر من
خالصة السريرة في ذلك الشاعر الخالص للحب . الموقف الضلوع على الهوى !

* * *

(١) لابن سينا رسالة في العشق على طريقته الفلسفية التعليمية ، أوردتها بهاء الدين العاملي
في كتابه « الكشكول » ، وفيها معان حسنة ، ولكنها لا تعد من الأدب ، وهو يرى أن
حب الصورة المليحة باعتبار عقلي هو الوسيلة إلى الرفعة والزيادة في الحيرة ، قال : ولذلك
لا يكاد أحد من أهل الفطنة والحكماء يوجد خالياً عن شغل قلبه بصورة حسنة إنسانية .
قلنا : وهذه فلسفة ولكن تنقصها الفلسفة .

وأما بعد فإننا لا نعرف في تاريخ الأدب العربي كله رسالة كتبت من هذا الطراز ، على كثرة كتاب العربية وكتبها ، وعلى ما أبدعوا في فنون الترسل ، وعلى أن هذه العربية من أوسع لغات الدنيا فيما خصت به المرأة ، وما أوقعته على صفاتها ، وما أقامت على العاطفة إليها ، وما حفلت به من ألفاظ معانيها ، حتى لو أمكن أن ترسل لغات الأمم ألفاظها تستبق في المعاني النسائية ، لما كان السبق إلا للألفاظ العربية ولا أوفى على الغاية إلا المعجم العربي وحده !

وفي تاريخ أدبنا ممن اشتهروا بالعشق من نكاثر بهم في هذا الباب ومن أشهرهم مجنون بني عامر ^(١) وصاحبه ليلي ، وقيس بن ذريح ولبنى ، وتوبة وليلي الأخيلية ، وكثير وعزة ، وجميل وبثينة ، والمؤمل والذلفاء ، ومرقش وأسماء ، وعروة وعفراء ، وعمرو بن عجلان وهند ، والمهذب ولذة ، وذو الرمة ، ومية وقابوس ومنية ، والمخبل السعدي والميلاء ، ووضاح اليمن وأم البنين ، وبشر وهند وابن أبي ربيعة والثريا (وثريات كثيرة . . .) والأحوص وسلامة ، ونصيب وزينب ، وأبو العتاهية وعتبة ، وابن الأحنف وفوز ، وأبو الشيص وأمامة ، وابن زيدون وولادة ، وكثيرون وكثيرات ...

اشتهر من شعراء الغزل خاصة كثيرون منهم ابن أدينة ، وابن الدمينية ، وابن الطثرية ، وابن ميادة ، وابن مطير وابن أبي ربيعة وابن ذريح والعرجي ، والمجنون ، وقيس بن الخطيم وسويد بن أبي كاهل ، وكثير الذي قالوا فيه : لو رقى المجنون بشعره لأفاق ، وجميل ، ونصيب ، ووضاح وعباس بن الأحنف والجليع ، والوأواء ، وابن الحياط ، وابن زيدون ، ومن لا يحصى في المشرق والمغرب والأندلس ^(٢) .

واشتهر من الشاعرات المتظرفات الجميلات الموقوفات على الحب : الذلفاء ، وعنان جارية الناطفي ، ويقولون إنها أشعر الناس ، وجنان صاحبة أبي نواس ،

(١) يظنه بعضهم شخصاً خرافياً ! ولسنا من هذا الرأي ، وإنما حلوا عليه في الرواية .

(٢) استوفينا هذا الباب في الجزء الثالث من كتابنا « تاريخ آداب العرب » وإنما نلم هنا ببعض الأسماء إرسالاً على طريق ما نحن فيه ، لا على طريق التأريخ .

وفضل الشاعرة جارية الخليفة المتوكل . وكانت أفصح أهل زمانها وكانت تهاجي خنساء الشاعرة جارية هشام المكفوف ، وعشقت الكاتب البليغ سعيد ابن حميد ، وللمتوكل بنان ومحبوبة أيضاً ، وهما شاعرتان ، وفي الأندلس زهون الفرناطية ، وولادة ، وحمدة الملقبة بخنساء المغرب ، وكثيرات غيرهن استوفينا أسماءهن في تاريخ آداب العرب .

وحفل تاريخ العرب بالقيان الظريفات الغزلات ، ولا تكاد أسماؤهن تحصى ، وهن سر الغزل الحي البديع الذي انفردت به تلك العصور ولم يظفر الأدب العربي بمثله من بعدها إلى اليوم ^(١) .

وجاء في آدابنا العربية من المؤلفات المعجبة التي أفردت للحب ومعانيه وأهله وأخبارهم ونوادرهم وأشعارهم كتب مجردة : منها كتاب الزهرة الذي ألفه الإمام محمد بن داود الظاهري فقيه أهل العراق ^(٢) وقد جعل كتابه في مائة باب وهو القائل : ما انفككت من هوى منذ دخلت الكتاب ! ثم الظرف والظرفاء ، وكتب مؤلفه الكثيرة في هذه المعاني ^(٣) ، ثم مصارع العشاق الذي وضعه أبو بكر البغدادي السراج المتوفى سنة ٥٠٩ هـ وجعله اثنين وعشرين جزءاً ، وهو أصل لكل ما وضع بعده من الكتب : كأسواق العشاق ، وديوان الصبابة وتزين الأسواق ، ومنازل الأحباب ، وغيرها .. ومع كل ما رأيت فقد انفرد الشعر وحده بالنسيب والغزل وأوصاف الجمال ،

(١) وأسماؤهن وحدها غزل ، ومن هذه الأسماء : حكم الهوى ، وقلوب ، وصدق ، ومهج ، وخشف ، وبدعة ، ومشتهى ، وكنوز ، ونشوان ، وترشف ، وملاعب... الخ . وكان فيهن أديبات محسنات ، ولهن بلاغة هي صورة أخرى من جمالهن كفرحة جارية ابن الجهم الشاعر المشهور ، سألتها ذات ليلة : كم بيننا وبين الصبح ؟ فقالت : عناق مشتاق ، وقال لها مرة : نجعل مجلسنا الليلة في القمر ؟ فقالت : ما أولئك بالجمع بين الضرائر !

(٢) توفي سنة ٢٩٥ ، ومن كتابه جزء في دار الكتب المصرية ، وكان يعشق على الطريقة التي أشار إليها ابن سينا ، والتي هي حقيقة الحب ، ولا تنس أنه كان فقيه أهل العراق !

(٣) هو أبو الطيب محمد بن اسحاق بن يحيى الرشاء ، من أدباء القرن الثالث ، وستأتي الإشارة إليه بعد ، وكتبه في هذه المعاني مسابة في الظرف والظرفاء .

وليس لنا كتاب واحد في رسائل الحب ولا نعرف أحداً من البلغاء كتب فيها. ولعل هذا راجع إلى أن تلك الطريقة استقل بها الشعر في الصدر الأول فقلد الباقون وأخذوا في مدرجتهم من بعد .

وكان هذا الباب عندهم مما يرون للشعر به اختصاصاً ، فهو سبيله دون الكتابة والخطابة ، لمكان الوزن في الشعر ، فتجيء الرسالة الغزلية لحناً غنائياً من طبيعتها ، ثم لأنه قد تقرر عندهم أنه يحسن في الشعر من فنون الكذب والمبالغة ما لا يطرد في النثر ، حتى إن أكثر الرذائل - كالهجاء ووصف الخمر والمجون - كان ظرفها الشعر . وهي فيه سائفة وفي غيره منكرة ولا يأتي منها في المنشور إلا قليل .

وقد نصوا على أن للشعر مواضع لا ينجح فيها غيره من الخطب والرسائل بل هو يفضلها .

قال أبو هلال العسكري في كتاب « الصناعتين » وهو يعد هذه المواضع : « ومن ذلك أن صاحب الرياسة والأبهة لو خطب بذكر عشيق له وصف وجده به وحنينه إليه وشهرته في حبه وبكاه من أجله لاستهجن منه ذلك وتنقص به فيه ، ولو قال في ذلك شعراً لكان حسناً » .

وقد توفي العسكري سنة ٣٩٥ للهجرة . وعلى كثرة ما حشد في كتابه من فنون النثر وطرائفه لم يأت برسالة واحدة بين حبيبين ، إلا ما أورده في باب (ما يحتاج الكاتب إلى ارتسامه وامتناله) ، قال : وينبغي أن يكون الدعاء على حسب ما توجه الحال بينك وبين من تكتب إليه ... وقد كتب بعضهم إلى حبيبة له : عصمنا الله وإياك مما يكره . قال : فكتبت إليه : يا غليظ الطبع ! لو استجيب لك دعوتك لم نلتق أبداً ... !

ولا ريب عندنا أن هذه الكتابة مصنوعة للتمثيل بها في هذا الموضع ، كالذي كانوا يصنعونه من الشعر إذا احتاجوا إلى الشاهد والمثل ، على ما بيناه في باب الرواية من تاريخ آداب العرب .

ثم هم يخصون الشعر بالغزل والتشبيب والنسيب ؛ لأن الشعر أيسر عملاً

وأخف مؤنة في هذا الباب ؛ إذ يعين بقوافيه على الإبداع في المعاني فإن
القافية كثيراً ما تختزع المعنى وتلهمه الشاعر ، ثم الشعر يصحبه الوزن والجن
فيعين بنسقه أيضاً كما يعين بقوافيه ، ثم تجيء ألفاظه مقدودة مفصلة فتكون
حلية ثالثة ، ثم هو يكتفى منه بالبيتين والأبيات اليسيرة فيجيء كل ذلك على
أتمه وأحسنه ويقوم به ، بخلاف الكتابة : فلا يجدي فيها السطران والأسطر
القليلة في رسالة تصف الحب ، وما ستر هناك يفضح هنا ، وما أعان في
الشعر يخذل في النثر ، والشعر إجمال والكتابة تفصيل .

وأنت فاعمد إلى بيتين من رائع الغزل كقول ابن الطثرية :

بنفسي من لو مر برد بنانه على كبدي ، كانت شفاء أنامله
ومن هابني في كل شيء وهبته فلا هو يعطيني ولا أنا سائله !

فاجعل هذين البيتين رسالة إلى حبيبة ، فانها يجزئان ويؤديان الرسالة ،
وينقلان إليها عن نفسك معاني الاحترق والعشق والصبابة ، ويتكلمان عندها
كثيراً ويعلقان بذهنها ويدوران في قلبها دورة الدم . ثم اعمد إليها فاجعل
المعنى المنظوم في سطرين وحاول منها رسالة كذلك ، فإن السطرين
لا يترحزان ولا يمشيان إلا كما يتوكأ الأعرج على أعرج مثله ... !

وهذا إلى أن الكتابة في معاني الحب لا تحتل الصدور والفصول وصناعة
الألفاظ والترادف بالكثير منها على القليل من المعاني ، ويسمج فيها خاصة
ما نراه يحسن في غيرها من فنون الكتابة : كالتوسع بالنقل والرواية ، وتشقيق
الكلام بما يلبس كل معنى ، والطغيان في العبارة بذلك وما إليه . وكل شيء
فهو يصلح مادة للكتابة إلا في هذا الفن من رسائل الحب ، فإن مادته القلب
والروح وفلسفة العاطفة وترادف وحي الجمال بالمعاني الكثيرة على الشعور
الواحد ، لا وحي اللغة بالألفاظ الكثيرة على المعنى الواحد ، ولا يتخلص
إلى فنونه ومعانيه إلا من ثمة . فكأن هذا الباب هو من ناحية ليس في طبيعة
كتابة المتقدمين ومن الناحية الأخرى ليس في طبيعة الاجتماع يومئذ ، لأسباب
لا محل لبسطها في هذا الإيجاز .

ولقد كتب شيخنا وأديبنا الكبير « الجاحظ » رسالة في العشق والنساء ، وهي مجموعة رسائله ، فكان والله كالذي يلبس ملكة الجمال في هذا العصر مرقعة قدرة .. واجتلب من هنا وهناك لمعانيه ، وشق لها المداخل والمخارج على طريقته ، واتسع بذلك في العبارة ، فجاءت أبرد رسائله وأسقطها ، وكان هذا الإمام فيها كالذي يتحسس بيده مجلداً ضخماً من الكتب ، ثم يذهب يستوحي من جلده أوصاف ملمس جسم الحبيبة .. التي كأنها طاقة نرجس أو كأنها ياسمين ، أو كأنها خرطت من ياقوتة .

وساق ابن قتيبة في كتابه « عيون الأخبار » رسالة منية إلى صاحبها قابوس - وهما من أعلام العشق والأدب - ثم جواب قابوس عليها ثم رسالة أخرى منه ^(١) فكتبت منية الى حبيبها :

« من سن سنة فليرض بأن يحكم عليه بها ؛ ومن سأل مسألة فليرض من العطية بقدر بذله ، لكل عمل ثواب ، ولكل فعل جزاء ، ومن بدأ بالظلم كان أظلم ، ومن انتصر فقد أنصف ، والعفو أقرب الى العقل ، وغير مسيء من أعتب ، مع الخض تبدو الزبدة ، عند تناهي البلاء يكون الفرج ، كل ذي قرح يشتهي دواء قرحه ، كل مطمع منتظر ، كل آت قريب ؛ الموت أروح من الهوى ، اليأس أول سبب الراحة ، السحر ^(٢) أنفذ من الشعر ، دواء كل محب حبيبه ، مع اليوم غد ، كما تدين تدان ، استشف الله لما بك . واسأله المدافعة عنك » ! .

وأجابه قابوس :

« من الكرام تكون الرحمة ، ومن اللئام .. تكون القسوة ، من كرم أصله لان قلبه ورق وجهه ، ومن عاقب بالذنوب ترك الفضل ، ومن ترك الفضل أخطأ الحظ ، ومن لم يغفر لم يغفر له ، أولى الناس بالرحمة من احتاج

(١) الجزء الرابع من عيون الأخبار صفحة ١٣٦ طبعة دار الكتب المصرية .

(٢) الصواب : الشعر أنفذ من السحر ، كما هو ظاهر .

إليها فحرمها ، لكل كرب فرج ، ولكل عمل ثواب ملكت فأسجحي ،
قدرت فأعفي ، ويل للشجي من الخلي الخ الخ .

فانظر ويحك ما هذا الكلام المتقطع المتبدل المطروق المنتزع كله من
الأمثال والحكم ، وكأن العشق في الحافظة .. ولم يورده ابن قتيبة إلا في باب
النساء والعشق .. ثم ما عسى كان يقول هذان الحبيبان لو أن منية هذه قامت
على منبر مسجد الكوفة .. وصعد قابوس المنبر في مسجد البصرة ، وأراد أن
يخطبها الناس لإقامة صلاة الجمعة ؟.

* * *

على أن بلغاء الكتاب في كل عصر تناولوا في ترسلهم فن (الإخوانيات)
وأجروا فيه رسائل المودة والشوق والصدقة والاستعطاف والعتاب والاعتذار
والاستئذان لمجالس اللذات والأنس وهذه كلها من أمس المعاني بالحب وأقربها
شبهاً به ، وقد أجاد بعضهم في ذلك إجادة بالغة ، وأنت تجد رسائلهم
منشورة في كتب الأدب ^(١) ومن أبدعها قول سعيد بن حميد ، حبيب فضل
الشاعرة . « إني صادقت معك جوهر نفسي ، فأنا غير محمود على الانقياد لك
بغير زمام لأن النفس يقود بعضها بعضاً ^(٢) » .

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ، والظرف والظرفاء ، والصناعتين والعقد الفريد لابن
عبد ربه ، وصبح الأعشى ، وبتيمة الدهر ، والمنظوم والنثور لابن طيفور ، وغيرها وقد
يكتب في بعض هذه المعاني بعض القيان كالرقعة التي أملتها جميلة المصنفة في استئذان عبد الله
ابن جعفر ونقلها صاحب الأغاني في ترجمتها في الجزء السابع . وجميلة هذه من أبلغ النساء
وأظرفهن ، وكانت سيدة أهل زمنها في الغناء وكانت تتواضع للأحوص وتمجبه به وتغني
بشعره .

(٢) روى صاحب الأغاني عن ابن أبي المودر ، قال : كنت عند سعيد بن حميد وكان
قد ابتدأ ما بينه وبين فضل الشاعرة يتشعب ، وقد بلغه ميلها إلى بنان وهو بين المصدق
والمكذب بذلك ، فأقبل على صديق لي فقال : أصبحت والله من أمر فضل في غرور ،
أخادع نفسي بتكذيب العيان ، وأمنيتها ما قد حيل دونه ، والله إن أرسالي إليها بعد ما
قد لاح من تغيرها لذل ، وإن عدولي عنها وفي أمرها شبهة لعجز ، وإن تصبري عنها لمن
دواعي التلف ، ثم أنشد أبياتاً من الشعر .

غير أنهم يشترطون في هذا الفن من الرسائل الإيجار والاختصار ، وألا يتجاوزوا به نكتة المعنى ، ليجيء قصداً قريباً ولعل ذلك للعلة التي أومأنا إليها من قبل ، إذا كان هذا على حدود الحب ، فإذا تبسط فهو الحب بعينه ، والكثير في الحب لا يكثر ولا يمل ، أما في الصداقة فإلى حد وحسب .

وانظر ما كتب بعضهم في قطيعة صديق إذ كتب إليه :

« لم يدع انقباضك عن الوفاء وانجذابك مع سوء الرأي في ملاحظة الهجر والاستمرار على القدر - محرّكاً من القلب عليك ولا خاطراً يومي الى حسن الظن بك ، هيهات ! انقضت مدة الانخداع لك حين أخلفت عدة الأمانى فيك وما وجدنا سائراً من تأنيب النصحاء في الميل اليك ، والتوفر عليك ، إلا الإقرار بطاعة الهوى والاعتراف بسوء الاختيار . »

فهذه الرسالة لو أنها صرفت الى حبيبة ، وامتد بها النفس على هذا الأسلوب وبمثل هذا التصرف لتكون صفحتين أو تبلغ ثلاث صفحات ، لرجفت أركانها الوثيقة ، وخرجت الى الاستكراه والتكلف ، وجاءت عيوبها من محاسنها ، وهلك من طولها أولها إلى آخرها .

ولذلك نحونا في « أوراق الورد » أسلوباً خاصاً ، تدور به المعاني الحية في ألفاظها بألين مس وأطفه على وضع مستحکم كما يمس الدم الحي عروقه التي يدور فيها .

* * *

ولم نقف على اسم كتاب أفرد لرسائل الحب ، ولو أنهم كتبوا فيها لجمعت كغيرها وأفردت بالتدوين ، بيد أن للقيان الأدبيات المتطرفات ضرباً من

← فهذه كانت طريقتهم في الحب، يتحدثون به ولا يكتبون فيه، ويتراسلون به اما في الألسنة واما في رقاع تقوم مقامها في التحدث والتأدية والإبلاغ وفي كتب الأدب أشياء من هذه وتلك . واقد كانت كلمات سعيد في تلك الحال تصلح مادة رسالة بليغة في صاحبته الشاعرة الجميلة لولا ما بيناه وكانت رسائل فضل شعراً تنظمه ، وفي رأينا أنه لو كان ابتداء فن الرسائل الغرامية كاتب لابتدأه سعيد هذا .

رسائل الحب يكتبنها بالذهب والمسك والزعفران في بديع الحرير الصيني وضروب الديباج ، ويجعلن ظروفها طرائف المناديل ؛ ويتخذن لها الزناجير الحربية تربطها ، ويطيننها بالمسك والذرائر^(١) ، ولا يكتبن فيها إلا « نتف الألفاظ المهلكة ... وملح المكاتبة ، وطرائف المعاتبة ، وجميل المطالبة ، وشكيل المداعبة . وقد جمع أبو الطيب الوشاء من أدباء القرن الثالث كتاباً من هذه الرسائل سماه (فرح المهج) والذي يؤخذ من كلامه أن أكثر ما يكتب في ذلك هو الشعر والمثل وأبيات العتاب والسلام ونحوها ، مما هو محفوظ مأثور ، فليست هذه من رسائل الحب وإنما هي من وسائله .

وأبعد في الاستحالة من كل ما مر أن يكون في الأدب العربي ديوان من الرسائل الغرامية لكاتب واحد ، فلقد كان مثل ذلك في الشعر كالندرة والقلته ، حتى قال الجاحظ : « لولا أن العباس بن الأحنف أحذق الناس وأشعرهم وأوسعهم كلاماً وخاطراً ! ما قدر أن يكون شعره في مذهب واحد لا يجاوزه ، لأنه يهجو ولا يمدح ولا يتكسب ولا يتصرف ، وما نعلم شاعراً لزم فناً واحداً ولزومه فأحسن فيه وأكثر .

ولأدبيات الجواري رقاع في مكاتبة عشاقهن ، بيد أنها لا تذهب إلا مذهباً واحداً في الكلام ، فهي في القلم كما هي في اللسان ، وليس الكتاب إلا رسولاً لا رسالة ، وقد نقل صاحب الأغاني في ترجمة « عريب » الحساء الفاتنة المغنية الشاعرة الكاتبة البليغة المتعشقة التي تكاد تشبه الأدبية الفرنسية الشهيرة المتسمية (جورج ساند) في عشقها واستكلاها ... نقل أنها عشقت صديقاً لمولايها يقال له حاتم بن عدي قال ؛ فمد عينه إليها « فكاتبتها فأجابته » وقال أيضاً : إنها لما صارت في دار المأمون ، احتالت حتى أوصلت محمد بن حامد وكانت قد عشقته « وكاتبته » . ونقل عن بعضهم قال : وسمعت من يحكي أن بلاغتها في كتبها ذكرت لبعض الكتاب ، قال : فما يمنعها من ذلك

(١) جمع ذريرة : ضرب من الطيب مما كانوا يصنعونه .

وهي بذت جعفر بن يحيى؟^(١) ثم روى صاحب الأغاني من مجونها وإفحاشها، فلو أن لها رسائل حب لاستطرف منها هو أو غيره، ولكنها كما قدمنا، رقاع في مثل الكلام الذي يتراجعه كل صاحبين إذا تحدثا أو تشاكيا أو تواعدا . وليست من الرسائل المصنوعة المجدودة القائمة في فنها على شاعرية الجمال وتفلسف الحب وغزل الروح وخصائص المعاني .

وتبذل بعض أدباء المتأخرين فكتبوا في الرسائل الغرامية يخاطبون فيها بكاف الخطاب المفتوحة . كقول الأديب الشهير ابن سناء الملك في رسالة : « وأنا والله في أمرك مغلوب، والسبب أني أنا المحب وأنت المحبوب، ولا أنجحد عليك فأغرك وأخون حبك ، ولا أتصنع عليك فأغشك وأغم قلبك ... اعمل ما شئت فأنا الصابر ، وافعل كيف شئت فأنا الشاكر ، وقل فلي سمع يعشق قولك ، والتفت تر آما لي ترفرف حولك ، وافعل فأنت المعذور ، واستطل فما أنا المضرور بل المسرور ، وارجع الى الواد الذي بيننا فكل ذنب لك مغفور » .

وهذا كما ترى ، كلام غث سمج، وحب قد يكنسه في الطريق الكناسون . ولبيدع الزمان رسالة مشهورة ، إلى بعض من عزل عن ولاية حسنة ، أثبتتها في ديوان رسائله . ولابن الأثير في كتابه « المثل السائر » رقعة قال إنها من عاشق لمعشوق ، وعدها فيما عد من معانيه المبتدعة ، وكل ذلك عندنا لا قيمة له .

(١) لا ريب عندنا أن هذه العبارة مما يتكذبون به لغرض من أغراضهم في الرواية . ولذلك قال في سندها : وسمعت ممن يحكي ... ويروون أن عريب زارت صاحبها محمد بن حامد مرة . فجعل يعاتبها ويقول : فعلت كذا وفعلت كذا . فقالت : يا عاجز ! خذ فيما نحن فيه ... فإذا كان غد فاكذب اليّ بعتابك في طومار (فرخ ورق) حتى أكتب اليك في ثلاثة ، ودع الفضول . فقد قال الشاعر :

دعي الذنوب إذا التقينا تعالي لا أعد ولا تعدي !

وهذا ان لم يكن حدث فهو تهويل من صناعة الأخبار على طريقتهم في سوق الحكاية وتنزيل معانيها وتدبير نسقها ، وان كان قد حدث فهو تهويل من عريب وتبسط ، وكانت طويلة اللسان مهادرة كأنها تقول لصاحبها : ان كان قدر لسانك طوماراً فلساني ثلاثة .

ومن المضحكات رسالة كتبها علاء الدين المغربي سماها النيرين . قال :
وهي من الحب الكئيب الى حبيب الحبيب^(١)... وقد أورد بها ابن أبي حجلة
من أدباء القرن الثامن في كتابه الذي سماه (حاطب ليل) .

* * *

فأنت ترى أن الأدب العربي قد انطوى على محجوبة من هذا الفن بقيت
في الغيب الى عهدنا هذا ، ونرجو من فضل الله أن تكون كتبنا الثلاثة قد
أظهرتها واستعلنت بها وأن تقول العربية اذا تواصلوا كتب هذا الباب في
بيان اللغات الأخرى : « هاؤم اقرؤا كتابية » .

والحمد لله بما يبلغ رضاه .

مصطفى صادق الرافعي

(١) عشق هو حبيباً... وعشق الحبيب حبيباً في مثل سنه وجماله فاتصل النير بالنير ،
فهذا سبب تسمية الرسالة بالنيرين .

المقدمة

هذا كتاب « أوراق الورد » فحدثني من حدث^(١) ... في سبب هذه التسمية قال : كانت معها ذات يوم وردة لا أدري أيتها تستنشي الأخرى^(٢) فجعلت لها ساعة من حفاوتها تلمسها مرة صدرها ومرة شفتيها ، والوردة بين ذلك كأنما تنمو في شعاع وندي ، اذا رأيتها وقد تفتحت وتهذلت حتى لحسبت أنها قد حالت أوراقها شفاهاً ظمأى .

ثم تأملتني شيئاً ، ثم نحت الى بصرها^(٣) وقالت : ما أرى هذا الحب إلا كورق الورد في حياته ورقته وعطره وجماله ، ولا أوراق الورد إلا مثله في انتشارها على أصابع من يمسه اذا جاوز في مسها حداً بعينه من الرفق ، ثم في تقترها على إلحاح من يتناولها اذا تابع إلحاحه عليها ولو بالتنهد ، ثم في بناء عقدها على أن تتحلل أو تذوي إن لم يمسه مع بنائها الرفيق حذر من أن تكون في يده^(٤) ... لأنها على يده فن لا وردة .

ثم دنت الشاعرة الجميلة فناطت وردتها الى عروة صاحبها فقال لها : وضعتها رقيقة نادية في صدري ولكن على معان في القلب كأشواكها ...

(١) نسبت رسائل الأحزان الى صديق على طريقة الرواية ، فظنها البعض حقيقة لذلك الصديق وما هي له .

(٢) تستنشق رائحتها وطيبها .

(٣) أي صرفت اليه بصرها .

(٤) يعلم القارئ من (رسائل الأحزان) أن الحببية شاعرة روحانية تسمو هي وصاحبها بالحب فوق المادة ، ولا يريدان الا وحي النفس الجميلة للنفس الجميلة .

فاستضحكت وقالت: فإذا كتبت يوماً معاني الأشواق فسمها «أوراق الورد»
وكذلك سماها !

* * *

عمر الورد فصل من السنة ! أما الشوك فعمره ما بقيت الشجرة وما بقي
حطبها ، ولذلك ينسى الحبيب ويذهب الحب ويبقى بعدها القلب العاشق
وليس بينه وبين آلامه إلا كما ذر الضياء بين أول الفجر وآخره الليل في
مرأى من النور والظلمة يخيل إليك من غبشه ^(١) أن الليل ظلام مكفوف
وراء حائط من البلور : فالآلام دائماً بمنزلة من القلب المحب والأشواق منه
أبدأ على أسباب ؛ ومن أحب مرة فاهتدى الى حبيب ينتهي منه اذا
سلاه ، وإنما ابتدأ في جمال هذا الحبيب أشواق الحياة التي لا تنتهي ، وعرف
من الحب طريقاً بين الحس والغيب آخره دائماً أول غيره كطريق الساء
لعينك ؛ كل مسافة أنت مقدرها فيه تراها قد تُيَظت بمسافة أخرى ^(٢) الى ما
لا ينتهي ولا ينقطع إذ ليس ذلك اتصالاً بين المسافات المكونة للأبعاد أكثر
مما هو اتصال بين النواميس المكونة للأبدية .

وإلقاء الحب الصحيح في قلب من خاطره الهوى ، معناه إيجاء الفن الى
صاحب ذلك القلب يفهم به الصورة الشعرية الجميلة التي يلبس منها الحبيب
جماله ، فيرى كيف يجيء كل شيء من حبيبه كأنه في وزن من الأوزان ،
حتى لكأن هذا الشكل المحبوب إن هو إلا لحن موسيقي خلق إنساناً يحاوب
بعضه بعضه ...

... وبذلك يخرج من فهم جمال الحبيب الى فهم جمال الطبيعة ويدرك
بروحه ما حول كل شيء من الجو الخيالي البديع المحيط به إحاطة الوزن
الشعري بالكلمة والنغمة الموسيقية بالصوت . ومن ذلك ينبثق في نفسه نور
إلهي خالق يفيض على كل جمال في الأرض والسماء ما يجعل هذا الجمال من

(١) الغبش : آخر ظلمة الليل . فيكون بياض الفجر على حددها .

(٢) أي اتصلت بمسافة ، اذ هو فضاء ممتد لا تقيم فيه الحدود .

إدراكه أو حسه بسبب قريب ، فتشتمل نفسه العاشقة على آفاق واسعة من جمال الخليقة ما دام في نفسه الحب ، كما تحيط العين بالأفق فتحويه ما دام في العين البصر !

* * *

وتاريخ الحب عند صاحب هذه الرسائل كان كله نظرة أخذت تنمو وبقيت تنمو ... وهو حب قد كان من غناؤه وجماله وطهره كأنما أزهرت به روضة من الرياض لا امرأة من النساء ، وكان من مساعه وحلاوته ولذاته البريئة كأنما أثمرت به شجرة خضراء تعتمر الحلاوة في أثمارها أصابع النور فأنت لا تجد في هذه الرسائل معاني النساء متمثلة في امرأة تنصبى رجلاً ، ولكن معاني الحب والجمال متألهة في إنسانية تستوحى من إنسانية أو توحى لها .

وبين الدهر والدهر تخرج الأقدار على طوفان الشهوات الذي يفرق الإنسانية عاشقاً روحانياً في طباعه مثل شموخ الجبل العالي وقوته وتماسكه تأوي إليه صفات الحب السامية يعصمها ويبقيها على ندوها ^(١) ولو في إنسان واحد كما هي على أضيئها في جمال الكون . وهذا الإنسان لا يعطي الدنيا إلا من سبيل حرمانه هو ، وكأنما يحترق قلبه ليسطع بالنور والدفء على القلوب المظلمة الباردة التي لا يكون الحب فيها إلا خديعة مسولة من الطبيعة بين الجنسين حين تعتمد الى حسابها العجيب في جعل الاثنين ثلاثة ^(٢) .

وكل الصفات السامية متى نزلت الى الدهماء والأوشاب وهذا الهمج الهامج في إنسانية الحياة ، نخلوها أسماءً من طباعهم لا من طباعها ؛ فاسم الفضيلة عندهم غفلة ، والسمو كبرياء ، والصبر بلادة ، والأنفة حماقة ، والروحانية ضعف ، والعفة خيبة والحب اسمه الفسق ... !

* * *

(١) أي نداوتها ونضرتها .

(٢) كناية عن النسل واستيلاد الاثنين ثالثاً . ومذهب أن الحب خداع من الطبيعة وتسويل بين الذكر والأنثى لإيجاد النسل : مذهب صحيح ؛ ولكن في الطبيعة من يسمو عليها ويقهرها ، فمثل هذا حب آخر ومذهب غير ذلك .

صاحب هذه الرسائل يرى نفسه في الحب كأنما وضع على هامش الناس ، منطلقاً غير مقيد ، عزيزاً غير ذليل ؛ فهو كالسطر الذي يكتب على هامش الصفحة يستعرض ما ملأها بين أعلاها وأسفلها وله الشرح والتعليق وما في معناهما ، الى التهمك والضحك والسخرية ، ومن ثم فرسانه كذلك على هامش كل رسائل الحب : يتجافى بها عن ألفاظ الشهوات ومعانيها بما يتعمده بعض فحول الكتاب في أوروبا ولا طلاوة لرسائلهم وقصصهم بغيره ، إذ هو يشبه أن يكون روح اللحم والدم في اللغة . ويتوخون التأثير من أقرب الطرق إليه ، فيمسون شهوات القراء بالحادثة والوصف والعبارة كما يدر لعاب الجائع على ألفاظ الطعام وأوصافه ورائحته ... وإنما نحن نرى أن حياة الحب - حتى يكون حباً صحيحاً - واقعاً غير الواقع في هذه الحياة ، وأوهاماً غير أوهامها ، وحقائق غير حقائقها ، فلا بد لها من كلام يلائمها في هذا المعنى الطائف بين القلب والروح يكون أشبه بكلام النية الصادقة لو نطقت في لسان ، وبكتابة الضمير المخلص لو كتب في قلم .

والحب الصحيح إذا سلمت فيه دواعي الصدر ^(١) ، واعتدلت به نوازي الكبد ^(٢) ، وتوثق فيه عقد النية ^(٣) ، واستوى غيبه ومشهده ^(٤) كان أشبه بقوة سماوية تعمل عملها لتبدع من الإنسانية شعراً أسمى من حقائقها ؛ كما كانت الإنسانية نفسها قوة عملت أعمالها لتبدع من حقائق الطبيعة أخيلة أجمل من مادتها . فشعرُ العقل تخلقه الإنسانية من الطبيعة بالعلم ، وشعرُ القلب يخلقه الحب من الإنسانية بالجمال ؛ ومن ثم فالحب كالطبقة بين الإنسانية والإلهية ، أفلا تراه يأبى حين يكون إلا أن يكون وحده هو الحق الذي ليس له في البشرية فوق فليس في البشرية ما يوضع فوقه ، حتى كل ما عداه من الحقوق والواجبات فهو من بعده في الموضع والمنزلة ؟ .

(١) كناية عن أسباب المودة وأغراضها .

(٢) كناية عن مواد الشهوات فلا تطير فيه حماقاتها .

(٣) كناية عما تربط عليه القلب ، فتحت كل حب نية آئمة أو بريئة .

(٤) كناية عن الحب للحب لا لغاية أخرى ، فهو في غياب الحبيب مثله في حضوره .

الحب الصحيح ليس له فوق ، ولا يشبهه من هذه الناحية إلا الإرادة الصحيحة ، فليس لها وراء ولا يمين ولا شمال ، وما هي إلا أن تمضي أمام أمام .

* * *

إنك لا ترى في هذه الرسائل ما ينزوع به الكلام ذلك المتزع الذي أشرنا إليه آنفاً ، ولا ما يتوسع به كتاب أوربا من الحشو الذي يوجه على علل مختلفة بين التاريخ والاجتماع وما إليها ، ولا ما يقحمونه في رسائلهم من كلام نازل كالكلام الذي يتراجعه العامة ^(١) ، فإن كتابنا خالص للجمال بذاته ، واقع من الحب في خاص معانيه ، ولقد كانت حوادث صاحبنا في حبه كالسحب الرقيقة في سماواتها ، عمر ساعة من الشفق ، وتأني وعليها ألوانها الإلهية أصباغاً واقعة كما تتفق ، ثم لا يكون الجمال والتناسب مع ذلك إلا كما تتفق ، فكذلك نشأت رسائله من وحي القلب وروحانيته ، تموج بمعانيها وتبرج في معارضها. ولعمري لمن كتب في الحب والجمال بقلم لقد كتب صاحب هذه الرسائل بقلب ؛ ولو تحيا الابتسامة والدمعة لكانتا سرور ذلك الحب وحزنه كما وقعا في حياة الكاتب وأيامه من صاحبه ، فهما لا يتجاوزان البت والتشاجي ، وتباريح الصبابة وتسليم الابتسامة على الابتسامة ، ومفاضبة الدمعة للدمعة ولكليهما من روح صاحبه داع ومجيب . وعلى ما طال بينها من زمن الحب فهي كأنها لم ترد له على أن سنحت مسح الغزال وولت ..

* * *

وكان القدر ينقي حوادث هذا الغرام كما تنقى المدرة من الحب ^(٢) بأصابع دقيقة تحت عينين مبصرتين ؛ فكانت النفس فيه مع جمحاتها كالفرس تترامى في عنائها خلى لها الطريق ، ولكن أمر الطريق لها ونهيه في العنان الذي

(١) يكثر الادرييون في رسائلهم الغرامية من سوقيات مبتذلة ، كأن الحب حادثة يومية يراد تعيينها بمكانها ووقتها واسم شارعها .

(٢) المدرة : الطين اليابس يكون في حب القمح ونحوه .

يُلجِئها وظلمات الحب في بعض النفوس المختارة كظلمات الليل في بعض الليالي : هذه لها القمر وتلك لها الفضيلة .

وما أحسب حب هذا الشاعر وتلك الشاعرة قد كان في كل حوادثه إلا تأليفاً من الأقدار لهذه الرسائل بمعانيها ، حتى إذا كسيت المعاني ألفاظها ، انبثقت كالنور وصدحت كالنغم وجاءت كإشراق الضحى ، لتناسم الأرواح^(١) بعبارات صافية من روح قوية فرض عليها أن تحب ، فلما أحبت فرض عليها أن تتألم ، فلما تألمت فرض عليها أن تعبر ؛ فلما عبرت فرض عليها أن تسلو ... !

مصطفى صادق الرافعي

(١) الناسمة : كناية عن قرب المتكلمين أحدهما من الآخر ورقة كلامها ، كأن أنفاس كليهما نسيم يتصل ببعضه ببعضه ، ولذا يقال في حديث الصاحب للصاحب .

وزدت أنك أنت

تالله لو جددوا للبدر تسمية لأعطي اسمك يا من تعشق المقل^(١)
كلاهما الحسن فتاناً بصورته وزدت أنك أنت الحب والغزل
وزدت يا حبيبتي أنك أنت ...

إن حقيقة الجمال الذي يغمر العالم أراها كأنها بحملتها مستقرة في
الموضع الضيق الذي بيني وبينك وبين قلبي ، تلامع هذا الكون عالماً
آخر من شعوري بك .

وفي نظرات عينيك الساحرتين أرى لمحات منبثة من الإرادة
المسيطرة وراء الأشياء ، تفعل مثل فعلها الجبار وراء عواطفني .
واليقين الذي دليله الإيمان والتسليم ، أحسه إحساساً في نظري
إليك وفي نظرك إلي ، كأني أتحوّل معك إلى إقرار .

والمعنى العجيب الذي يفتن فتنة درية اللؤلؤة الثمينة ، ويسحر
سحراً نورانياً في الماسة الكريمة النادرة ، هو بفتنته وسحره في
نسويتك الجذابة ، غير أنه اتخذ من أشياء الطبيعة أبدع ما ينظر فيه ،
واتخذ منك أنت أجمل ما يعقل فيه .

(١) كل ما يأتي في هذه الرسائل من الشعر فهو منها ، أي لكتابتها لا لغيره .

وما رأيته مرة إلا خيلت لي أن بعض النواميس المادية القاهرة في
هذا الوجود قد تحولت إنسانية فيك ، وكان القوى مبعثرة هناك
ومنظمة هنا ، وكانك منها تقيد منطلق ، واجتماع متفرق ، وكان ما
حدّ له رآك له حدّاً فوقف وظهر !

ولو ولد النور لكان وجهك الجميل المشرق ، ولو ولدت الكهرباء
التي هي سر النور لكانت أسرار عينيك ، ولو تولدت القوة التي هي
سر الكهرباء لكانت فتنة حبك ، وكل المعاني التي في نفسي لا تتخذ
صورها إلا منك لأنك بجملتك تمثال الشعر .

وفيك المعاني التي تقول : أين كلماتي ؟ .
وفي أنا الكلمات التي تقول : أنت معاني ! .

* * *

في نفسي عالم أحلام من خلق عينيك الذابلتين .
وفي نفسك عالم أسرار من خلق أفكار المعذبة .
خرجنا كلانا بالحب والجمال من حد الإنسان إلى حد العالم .
وتحولنا كلانا بالهوى من حالة شخص إلى حالة عقل .
كيف تجدني ما في وإنك لتعلمين أنك في ؟
أما أنا فاجد كل ما فيك حلواً لأن طعمه حلو في قلبي !

* * *

وعندما أنظر الى ازدهاء الشفق بألوانه وأصباغه كأنه صورة
جديدة في الخلق عرضت ليراها أهل الأرض ، أحسبني على مرمى
السهم من جنة في السماء فتحت أبوابها ولاحت أطراف أشجارها .

وعندما أتأمل انبثاق الفجر ، يخيل إلي من جماله وروعته أن
الوجود في سكونه وخشوعه نفس كبرى تستمع مصغية إلى كلمة من
كلمات الله لم تجيء في صوت ولكن في نور .

وعندما أبصرك أنت ، أوقن أن الحسن المعشوق ما هو إلا خيال
الجنة الآخروية يناله من الدنيا إنسان في إنسان .

أنت وحدك أذقتني نشوة الظما إلى الأسرار القلبية ، بما ذقته من
لذة ظمئي إليك ولهفته . وأريتني جمال الشعر في خيالاتي العطشى
الحائمة أبداً على نهر النور من جسمك ، وعلى ذلك النبع الأحمر الصغير ،
نبع الياقوت المتفجر دائماً بابتسام شفتيك ، وجعلتني من وحي جمالك
المتنزل على قلبي أشعر أن هذا الجمال السماوي أنشأ في صفة ملائكية
ترفعني فوق إنسانيتي .

بهذه الصفة أراك في بعض ساعات قلبي تظهرين لي وكان سرّاً من
الكون يتجلى بك ويقول لي من عينيك : المسني وانظري فيها !...

سرّ هادئ ناعم يتناثر في الحاظك ألين من تنفس رشاش الأمواج
المتطاير إلى بعيد : يكون كاهباء من البحر ومع ذلك فهو أثر قوته
وجبروته .

فيك يا حبيبتي من أبعد محاسن الكون ، وزدت أنك أنت
الحب !... !

زجاجة العطر

« وأهدى إليها مرة زجاجة من العطر الثمين وكتب معها : »

يا زجاجة العطر ، اذهبي إليهما ، وتعطري بمسّ يديها وكوني رسالة قلبي لهما .

وها أنذا أنثر القبلات على جوانبك : فمتى لمستكِ فضعي قبلي على بنانها ، وألقيها خفية ظاهرة في مثل حنو نظرتها وحنانها ، وألمسها من تلك القبلات معاني أفراحها في قلبي ومعاني أشجانها .

وها أنذا أصادحك ، فمتى أخذتك في يدها فكوني لمسة الأشواق وها أنذا أضمك إلى قلبي ، فمتى فتحتك فانثري عليها في معاني العطر لمسات العناق .

* * *

إنها الحبيبة يا زجاجة العطر ! وما أنت كسواك من كل زجاجة ملئت سائلا ، ولا هي كسواها من كل امرأة ملئت حسنا ؛ وكما افتنت الصناعة في إبداعك واستخراجك ، افتنت الحياة في جمالها وفتنتها ، حتى لأحسب أسرار الحياة في غيرها من النساء تعمل بطبيعة وقانون ، وفيها وحدها تعمل بفن وظرف .

وأنتِ سبيكة عطر . كل موضع منك يارَجُ ويتوهج ، وهي
سبيكة جمال ، كل موضع فيها يستبي ويتصبى ؟
وما ظهرت معانيك إلا أفعمت الهواء من حولك بالشذا ، ولا
ظهرت معانيها إلا أفعمت القلوب من حولها بالحب .
وكلتا كما لا يمس أحد منها إلا تلبس بها فلا يستطيع أن يخلص
منها ، ولا يستوي له أن يخلص منها ^(١) .
أنت عندي أجل أنثى في الطيب ^(٢) من بنات الزهر ، وهي عندي
أجل أنثى في الحب من بنات آدم .

* * *

قولي لها يا زجاجة العطر ، إنك خرجت من أزهار كأنها شعل
نباتية ، وكانت في الرياض على فروعها كأنما تجسمت من أشعة الشمس
والقمر ؛ فلما ابتعتك وصرت في يدي ، خرجت من شعل غرامية
وأصبحت كأنما تجسمت من أشواقي وتحياقي ولمسات فكري ، ولذلك
أهديتك . . .

وقولي لها : إن شوق الأرواح العاشقة يحتاج دائماً إلى تعبير جميل
كجمالها ، بليغ كبلاغتها ، ينفذ إلى قلب الحبيب بقوة الحياة سواء رضي
أو لم يرض ، وهذا الشوق النافذ كان الأصل الذي من أجله خلق العطر

(١) من مس الطيب علق به ، شاء أم أبى ، وكذلك هي : كأن لجمالها عطراً !

(٢) من أعجب وأغرب ما في اللغة العربية ، أنهم يقولون (ذكور الطيب) لما يصلح
للرجال دون النساء من أنواع الطيب : كالسك والغالية ، فاستخرجنا نحن منها (إناث الطيب)
لما يهدي إلى الحبيبة خاصة ، وذلك كله من دقة اللغة العربية متى لا نجد لها نظيراً في لغة
غيرها .

في الطبيعة. فحينما تسكب الجميلة قطرة من الطيب على جسمها تنسكب في هذا الجسم أشواقُ وأشواقُ من حيث تدري ولا تدري ، ولذلك بعثتك . . .

وقولي لها : إنك اتساق بين الجمال والحب ، فحين تهدي زجاجة العطر من محب إلى حبيبته فإنما هو يهدي إليها الوسيلة التي تخلق حول جسمها الجميل الفاتن جو قلبه العاشق المفتون ولو تجسم هذا المعنى حينئذ فتمثل فنظره ناظر ، لرآها هي محاطة بشخص أثيري ذائب من الهوى واللوعة يفور حولها في الجو ويسطع^(١) ولذلك يا زجاجة العطر أرسلتك

* * *

أيها العطر ! كانت أزهارك فكرة من فن الحسن توثبت وطافت زمناً على مظاهر الكون الجميلة ، كي تعود آخراً فتكون من فن الحب وفي ذلك مازجت الماء العذب ، ولامست أضواء القمر والنجوم ، وخالطت أشعة الشمس ، واغتسلت بماء فجر منذ غرسها إلى إزهارها ، لتصلح بعد ذلك أن يمس عطرها جسم الحبيبة ويكون رسالة حيي إليها !
أيها العطر ! لقد خرجت من أزهار جميلة ، وستعلم حين تسكبك هي على جسمها الفاتن أنك رجعت إلى أجمل من أزهارك ، وأنتك ، كالؤمنين تركوا الدنيا ولكنهم نالوا الجنة ونعيمها . . . !

(١) فوران الطيب وسطوعه وتوجهه وتوقده : كل ذلك حدة رائحته وذكاؤها وقوتها مع فروق بينها دقيقة لمن يذوق البيان .

ما نفع رقة روحي ؟

يَا مَنْ لَنْضُو طَرِيحٍ مُجْمَعٍ مِنْ حُطَامٍ^(١)
بَقِيَّةٌ مِنْ سَلَوٍ عَلَى بَقَايَا غَرَامٍ
وَقِطْعَةٌ مِنْ جَفَاءٍ فِي قِطْعَةٍ مِنْ سَلَامٍ
أُضِيءَ كَالنَّجْمِ لَكِنْ فِي وَحْدَةٍ وَظَلَامٍ
وَمَا أَكْبَدُ نَاراً يَرَوُهُ تَوَرّاً أَمَامِي
* * *

ما نفع رقة روحي تَنْدَى كَطَلٍ الْغَمَامِ
وَكُلُّ مَا هُوَ حَوْلِي كَحَلْقِ عَطْشَانٍ ظَامِي ؟
* * *

يَا وَاصِلاً بِالْمَعَانِي وَهَاجِرِي فِي الْكَلَامِ
مُخَاصِمِي فِي نَهَارِي مُصَالِحِي فِي مَنَامِي
مِنْ الْعَبُوسِ كَلَامٍ مَعْنَاهُ مَعْنَى ابْتِسَامِ
وَلَنْ يُغَيِّرَ جِسْمَ الْوُدَادِ ثَوْبُ الْخِصَامِ
* * *

ما نفع رقة روحي تَنْدَى كَطَلٍ الْغَمَامِ
وَكُلُّ مَا هُوَ حَوْلِي كَحَلْقِ عَطْشَانٍ ظَامِي ؟
* * *

(١) النضو: النحيل المهزول. والطريح: الذي أضجمه المرض. والحطام: ما تكسر أو تحطم.

رسم الحبيبة

« ولما أهدت إليه رسمها كتب إليها » :

كنتُ ساعة أجلس للكتابة إليك ، أراني كالصور ، غيرَ أني أنقل
من عالم في داخلي ؛ أما الآن ورسمك يملأ عيني ، فقد أضيف إلى عالمي
المضطرب بأخيلته الكثيرة عالم من الجمال الصافي ، هو فوق ذلك كالسماء
فوق الأرض : تحيها بالشمس والقمر ، وهو من وراء ذلك كالآخرة
وراء الدنيا : تطعمها بالجنة والخلد .

ولكدت والله يا حبيبتي أتخيل هذا الرق ^(١) الموضوع أمامي يبرق
بصورتك ويشرق بوجهك - نافذة سحرية فتحت بيني وبين عالم الجمال
الآزلي فأطل فيها وجه حوراء من حور الجنة ينظر إلي وأنظر إليه ،
يحملة جسم خلق ليكون فتنة للجنة ذاتها ، وكأنه بجباله ومعانيه حقائق
ذلك النعيم جاءت تترجم لذة الخلود للنفس البشرية في بلاغة مصورة
اختاروا لها رسمك أنت .

وهل في الحسن أحسن من هذا الوجه الذي يرف على القلب بأندائه
ويتلألأ بنضرته ، حتى لكانه خلق من نور الفجر وكان علامة الفجر

(١) الرق : كلمة استعملناها لهذا الورق المقوى الذي تكون عليه الصورة الفوتوغرافية.

فيه إنما هي هذا الروح الذي يحيط القلب من وجهك بمعان كنسمات
الصباح ، علية من شدة الرقة ، ذابلة من فرط الجمال ، مملوءة من روح
الندى بما يجعلها حول النفس كأنها جو من شعور حي فرح لا نسمات
في الجو .

وجه منضر يفزع لروعة حسنه من يراه ، كأن شيئاً بدعاً لم يكن
ممكناً فامكن ! أو كان في حمرة خديه وشفثيه خمر القلب رؤيتها شربها ،
وفيه السكر بالجمال والنشوة بالهوى ، فما هو إلا أن ينظر وجهك
الناظر حتى يخالط قلبه .

وعلى ما رأيت هذا الوجه الفاتن ، فما رأيت من مرة إلا حسبتها
أول مرة ، وكانت معه لنفسي جمحاتها الأولى ، كان الحب الذي بدأ في
أول نظراتي إليه يبدأ في كل نظرة إليه بدءاً جديداً ، وأرى أجمل
الوجوه يخاطب في حاسة الإعجاب ولا يعدو هذه العاطفة ، وأرى
وجهك أنت يبلغ مني القصوى ويأخذ بقلبي كله ويستولي على جملة ما
في إنسانيتي .

وإني لألمح فيه سرّاً عجيباً يكون فقدان العبارة عنده هو أبلغ
العبارة في وصفه ، إذ لا تتكلم روعة الحس بالجمال ، وهي تنزل في صور
الألفاظ ، وإنما تغمز على القلب غمزة خافتة تشعر الناظر أن روح
المنظر خامرت الروح وأن حياة الشكل انسكبت في الحياة ، وأن
المعنى الغامض في السر اتصل بالمعنى الغامض في النفس .

ويمثل هذا السر الذي يطالعني من جمال وجهك أصبح الجمال على
الحقيقة هو علم أفراح النفس وأحزانها ، وعاد الشخص الجميل المعشوق

وما هو بكل معانيه إلا الفن الفلسفي الكامل أتيح لنفس أخرى تحاول بالحب أن تكون كاملة .

ومن هذا السر يظل وجه الحبيب جديداً على كل نظرة من محبه وإن طال تردد النظر وتكراره ، كأن الوقت لا يمضي معه كما يمضي مع الأشياء ، وكان الحب أبدياً على قدر ما تحتمل الدنيا ، ولذا فهو يضغط على القلب لا بالساعة ولا باليوم ، بل يحثم بقطعة ضخمة من الزمن كأنها عمر كامل فرحها شديد شديد ، وحزنها شديد شديد .

سر عجيب فكرت طويلاً كيف أسميه فلم يستور لي ، وقد جل أن يقع معناه في كلمة ، ولكني أسميه المعنى المتفرق المجتمع ، إذ هو يجملته ظاهر في الوجه كله ، وهو يجملته أيضاً ظاهر على مقدار ذلك في كل موضع من قسّمات وجهك ومعارفه ، كأنه لا أجزاء له ولا جملة كأنه شيء أبدي ، كأنه في وجهك تاله الحب .

* * *

ومن بعض هذا السر تلك الابتسامة الواقعة على ثغرك ترق فيها الروح مرة وتتكاثف مرة ، حتى كأنها وهي في الرسم - لون روحي ظهر يتموج على شفّتيك ، فما أقلب فيه عيني إلا شعرت أن روحي تذوب فيه كما يتمازج لونان في السماء على الشفق الأحمر .

ومن بعضه هذه النظرة الحية التي تبعث في كل معنى من معانيك حياة وتخلق منه لعيني فكرة أتلحها فيه ، حتى ليروعني من أثرك عليّ وأنا أنظر إلى رسمك ، أني أتحيل نفسي بجملتها أسئلة وجسمك هذا بجملته أجوبتها !

نظرة ساحرة تجعلني أرى كل شيء في رسمك محدوداً ، ومع ذلك أراك أنت غير محدودة في شيء ! كأن لك فيضاً من الجمال والسحر يستغرق العالم ويغمر الكون ولا يكتفي بما ينتهي دون ما لا ينتهي ، أو كأنك أنت مجتلى هذا الفيض لعيني ؛ وكأنك وسيلة في اتصال روحي بروح الجمال الأزلي .

وماذا أقول في هذا الشكل المنسجم المتجاوب من كل نواحيه ، إلا أنه القوة الرهيبة ظاهرة في ملمسها الناعم ، والضعف المؤنث الذابل مسلحاً بأسلحة الشهوات والفتنة ، والسلطة القادرة اتخذت لها شكل الجمال فيك لتأمر وتنتهي فينا .

إنه لجمال أكبر من الجمال ، إذ كانت فيه القوة والفتنة والحب جميعاً والجمال وحده من شأنه أن يعجب ، ولكنه فيه يصبي ويُدله ، وبذلك يعجب ويفتن ، وبذلك يتسلط مسووغاً الحق ، وبذلك لا تكون له إلا الطاعة !

لا أرى غير هذا الشكل يأخذ بقلبي ، ولكن أين أجد الكلام يستوعب كل ما في قلبي لأعطي كل معانيك الصوت واللغة ؟

وكيف لي أن أزعم أنني وصفت التي تتأز على الشمس والقمر بأن فيها النور وحده وفي وجهها النور الحي ؟

البلاغة تلنهد

تقولين في رسالتك أيتها العزيزة ^(١) :

« لقد كنتُ أحسب فيما حسبت بعد أن طوحت بنا النوى ^(٢)
وضرب الدهر هذه الضربة بيننا - أن سعادة الفكر المتصل بي منك
والمتصل بك مني تخفف عني بعض ما أجد فتنتقل خفقة قلب إلى قلب ،
وترسل لمحة نفس إلى نفس ، وتعطي العمر ولو عمر ساعة من غير هذا
الزمن ، فأقطع إليك هذه المسافة المتراخية ^(٣) بقوة كقوة الأحلام : لا
تدع في الكون أبعاداً ولا مسافة بل تحويه كما تحوي المرأة الصورة التي
تقابلها ، تتراءى فإذا هي مرسومة كما هي منظورة ، ولكن يا أسفاه !
لقد أرتني الحقيقة أن الحياة مادة ، وأن هذه المعاني المحبوبة التي نحفظها
من نخبهم لا تزال تنازع دائماً إلى أشخاصها المحبوبين ليخففوا من لوعتها
أو قل ليزيدوا في لوعتها - فإن الحب هو الطرف الشاذ الذي لم يعرف

(١) هذه كانت أول رسالة منها وهي في مكان بعيد ، حينما أحست أن صاحبها يريد
كتابتها وفلسفتها ليضع رسائله .

قلت : هي صاحبة حديث القمر التي عرفها في روبة من لبنان منذ بضع عشرة سنة !

(٢) أي رمانا الفراق في ناحيتين .

(٣) البعيدة الممتدة .

له وسط ، فإن لم يكن ذاهباً إلى الزيادة مطرداً بها ، كان غير شك منحدرأ إلى النقص مستمراً فيه .

الحياة مادة يا صديقي ، فإذا أنا لم أقل كلمة وأسمع ردها ، أو أخط سطرأ وأقرأ مثله ، أو أرسل نظرة وأتلقى جوابها ، فإن الفكر الذي يسعدني في كل شيء هو نفسه الذي يعذبني حينئذ بأحب الناس إليّ ، يعذبني بك حين لا أراك ! .

أما والله يا عزيزتي إن في دون هذا للبلاغة كل البلاغة ، فكلامك بيان كإشراق الضحى ، وهو مثلك فوق وصف الواصف ، وإن فيك لمنبع سحر كالنهار الذي ينبع من شمس ، فلا تخط أناملك سطرأ إلا تضوأت فيه الحياة ^(١) ، ولا أقرأ لك لفظاً تكتبينه إلا بمعنى منه ومعنى منك .

بل لا أراك تجمعين ضميري وضميرك معك في كلمة ^(٢) إلا أحسست أنه لقاء بيننا في لفظ . . .

وإن كتابك ليأتيني وكأنه صفحة مرآة مسحورة بسر من أسرار الحياة : لا تلبث عيني أن تدور فيها دورة فإذا أنت ماثلة وإذ أنا لا أقرأ كلامك بل أقرأ وجهك !

ولما طلعت لي في هذا الكتاب ، ألقيت نفسي من شفتي على شفيتك

(١) توهجت وأشعت واستنارت .

(٢) كقولها مثلاً : « يعذبني بك » ، فجمعت ضميرها - وهو الباء - بضميره - وهو الكاف ، ولا غرو أن يكون هذا في جنون الحب لقاء أو وصلاً . وهذا المعنى دقيق جداً كما ترى .

وما أسرع ما نبهني مس الصحيفة ، فنظرت فإذا أنا أقبل كلمتك
البديعة : إن الحياة مادة .

كنت أعرف أن اللغة موضوعة لكل أهلها ، شائعة في ألسنتهم
جميعاً ، وقد خلقت من قبل أن يخلقوا ، وتركها الأول للآخر ،
ولكن بلاغتك التي يتهلل بعضها تهلل جبينك ، ويستحي بعضها
استحياء خديك ويفتر بعضها افترار شفقتك ، وتأتي مفننة ناعمة كأنها
جسم بديع ناضج للحب - قد جعلتني أعرف أن الكلمة التي يلقيها
حبيب إلى محبه تأتي وكأنها لغة مخلوقة لساعتها إذ ينتزع منها الحب
صوراً لا يراها في مثلها من كلام الناس ، ويصيب لها في نفسه معاني
لا تكون لها في ذات نفسها ، ويراها مبتدعة له ابتداءً غريباً على نسق
حي ، فما ألقى كلمة بين حبيبين إلا جاءت وهي تتنهد أو تبكي أو
تضحك أو تتوجع ، أو تنظر الى معنى من المعاني بينهما ، إذ لا بد
أن تضرب على القلبين أحدهما أو كليهما .

إن الكلام في نفسه وسيلة من وسائل الفهم ، فهو لغة ، ولكنه في
الحب وسيلة الجذب ، فهو قوة ، واللغة من بعض أدوات الحياة : أما
لغة الحب خاصة فالحياة من بعض أدواتها .

لهذا يا عزيزتي لا تكون الحياة في الحب إلا مادة : وإن النفس قد
تجوع وتاكل من جوعها ، إذ تخلق بإرادتها من الجوع أكلا فتشبع
شبعاً معنوياً يلائمها كما جاءت ذلك الجوع الذي يلائمها : كنفس الذي
قنع بالفقر وهو محتاج إلى الغنى والذي صبر على المرض وهو فقير إلى
العافية ، ويترد هذا القياس في كل أغراض الحياة ، إلا في الحب ، فإن

جوع النفس العاشقة يقتلها قتلاً ، إذ لا غذاء لها من شيء في الوجود كله إلا ممن تحب .

ليس الحي منقطعاً من الوجود ، بل هو منه لأنه فيه ، ويكاد كل شيء يقول له : يا ابني ، أو يا أبي أو يا أخي ، أو نحوها ، فهذه الوشيجة بين الحي (والموجودات كلها) ، هي قرابة العقل المسماة بالعرفة ، وصلته (بخصائص) الوجود في طائفة من الأحياء أو الموجودات ، هي قرابة النفس المسماة بالصدقة ، وشابكتها (بأخص الخصائص) في حي واحد يجمع كل ذلك ويزيد ولا يزال يزيد ، هي قرابة القلب المسماة بالحب .

نعم ، وإن الحب ليكاد يكون معنى كبر في السن والقيمة والعقل من ذلك المعنى الطفلي الذي يندمج بالأم والابن معاً في الوجود والعاطفة ، فإذا كانت الأمومة هي التي تلد حقيقة الحياة بمعانيها الواقعة ، فإن الحب وحده هو الذي يلد الحياة بشعرها ومجازها ومعانيها الخيالية الجميلة ، ومن ثم لم يكن الحب رحماً ، وهو أشد منها صلة وأوقع في القلب ، ولم يكن نسباً ، وهو فوق النسب ، ولم يكن دماً من دم ، وهو أشد ما عرف من حنين الدم للدم .

ولقد يكون في الدنيا ما يغني الواحد من الناس عن أهل الأرض كافة ، ولكن الدنيا بما وسعت لا يمكن أبداً أن تغني محباً عن الواحد الذي يحبه .

هذا « الواحد » له « حساب » عجيب غير حساب العقل ، فإن

الواحد في الحساب العقلي : أول العدد، أما في الحساب القلي فهو أول العدد وآخره ، ليس بعده آخر إذ ليس معه آخر .

والحياة في كل موضع - يا حبيبتى - هي هي كما تكون في كل موضع وكأنها البحر : مأؤه في أمريكا هو مأؤه في مصر - إلى حيث يكون الحبيب ، فهناك مع الحياة شيء غيرها ، هناك المادة الخفية القادرة التي تنساع في هذه الحياة لتلونها تلوين الزهرة منفردة بالجمال والعطر من بين أوراق شجرتها ، على حين كل أوراق الشجرة مسحة لون واحد .

(الحياة مادة) فأين أنت يا مادة الروح المنسكبة في روعي ؟

أضعُ في آخر كلماتي سطرًا غير مكتوب . سطر فيه كثير من المعاني المتكلمة من غير كلام ...!

رسالة للتمزيق...^(١)

وكم حارَ عشاقٌ ولا مثلَ حيرتي إذا شئت يوماً أن أسوء حبيبي
وهل لي قلب غير قلبي يسوؤه ويأخذُ لي في الكبرياء نصيبي ؟
ألا ليت لي قلبين : قلب مجبه مريض ، وقلب بعد ذاك طبيبي
ويا ليت لي نفسين : من رثم روضة ألوف ، ومن ذي لبدتين غضوب
وكيف بقلب واحد أحمل الهوى عجباً على طبعي وغير عجب
فوالله إن الحب خير محاسني ووالله إن الحب شر عيوبي

* * *

هذه رسالة لن أبعث بها ، رسالة مني أنا وإليَّ أنا ، أكتبها اليوم
لأقرأها غداً ، فقد - والله - كاد هذا الحب يجعلني على اختلاف أيامه
أشخاصاً مختلفين متناكرين ، حتى إنه ليحتاج شخص الغد أن يتعرف
ماذا كان خبر شخص الأمس .

أكتبها لنفسي ، ومتى تنفس غد هذا اليوم النحاسي^(٢) من فجره

(١) بعد رسالته «البلاغة تنهد» انقطعت عنه كتبها زمناً بحكم الدلال أو كأنها تستغفر
بالسكوت مما خطته ... فكتب هذه الرسالة .

(٢) كأنه نحاس لرخص حوادثه ، إذ كان يوم هجر ، ولا ذهب ولا فضة في أيام الحب
ألا من الحبيب نفسه دون ما في الدنيا .

الذهبي وأخذت تتسلى هموم يوم في يوم آخر ، وضربت موجة من الزمن موجة أخرى فهزمتها إلى الساحل الذي تموت فيه الأمواج ، ساحل النسيان المحيط ببحر الحوادث ، لتتكسر عليه أمواجها العاتية ضربة ضربة . ثم تنسحق وتتلاشى - فحينئذ أقرأ في رسالتي هذه تاريخ الألم الذي بلغ مني الغيظ ودك أطواداً شاحخة من الصبر كنت ألوذ بها في رمضاء الحب ، حتى عادت ظلاماً كظلال الحصى لا تفيء إليها النملة ...

وأقرؤها ثم أمزقها من سطرها الأعلى إلى سطرها الأسفل ثم أنخي عليها من كل جهة تقطيعاً حتى أدعها مزقاً بعدد كلماتها ، ثم أبسط بها كفى إلى الريح وأقول لها : أيتها الريح التي لا يستطيع أن يرد هبوبها أحد ولا أن يلويها عن وجهها ، إن هذا كله ريش طائر من طيور الحب ذبحه الهجر فخذيه إلى حيث لا تلتقي واحدة بواحدة ، وأنثريه في أمكنة منسية ، فإنك تبعثرين به خفقات هذا القلب الذي يحاول أن ينسى !

* * *

واهاً لحوادث الحب ، كأنما هي تقع لتغير من الحياة في أيام قليلة ما يغير العمر الممتد في سنوات متطاولة . سل الشيخ الفاني الذي أوفى على المائة فأصبح عمره في الإنسانية صفرين إلى عود^(١) ... سله : من أنت ؟ يقل لك : أنا الذي كنت أنا من أربعين ! بل خمسين بل ستين سنة ، ... وسل الحب الذي أضناه الحب . من أنت ؟ يقل لك : أنا

(١) المائة هكذا (١٠٠) والشيخ الفاني كالعود من العظم .

الذي كان هو من شهر أو شهرين أو ثلاثة ! . . . وسلني أنا في الهجر
لا بل دعها هي تسألني . . .

ألا إن شر الحوادث هي تلك التي تنزل بنا فلا نعرف منها إلا أننا
كنا نعيش من قبلها ، وتتقدم الحياة يوماً بعد يوم ، ولكن الحي جامد
في مكانه من الزمن على ألم يتوجع له ما ييرح أو ذكرى يحن إليها
ما يزال !

أنا منذ شهر أرقب منها كتاباً ولا يأتي كتابها ، ففي كل يوم غضب
على أثارة قبله^(١) . وكنت أرى أن الحب هو الطريقة التي يعثر بها
الإنسان على روحه وهو مغشى بماديته ، فيكون كأنه في الخلد وهو
بعد في الدنيا وأكدارها ، فأصبحت أرى الحب كأنه طريقة يفقد بها
الإنسان روحه قبل الموت ، فيعود كأنه ضارب غمرة^(٢) من الحميم وهو
قارّ في نسيم الدنيا !

ليس لي والله من شدة حبي إياها إلا أن أبغضها وأتجهمها بالكلام
النافر الغليظ وأقول لها . . . نعم أقول لها ثم أقول لها : قبح الله الحب
إن كان مثل وجدي بك : لا يؤتي الحياة جماها إلا يسلبها حريتها
واستقرارها معاً ! وأقول لها ، ثم أقول لها : لقد أوقعنتني من حبك
وهجرك بين الشرّ والذي هو شر منه . . . وأقول لها أيضاً : لقد
يكون ما نراه من حب المرأة الجميلة فنظنه أبدع ما تحسنه من الرقة
والظرف ، هو أبدع ما تتقنه من صناعة الكذب بوجهها . . . !

(١) أي على غضب كان قبله .

(٢) أي ملق بنفسه في مزدحم وشدة .

ولكن هل تصدق شيئاً من هذا وهي تعلم من فلسفتها ومن غرائزها أن إرادة البغض إنما هي أقوى دليل على وجود الحب ، وهي التي قالت لي ذات يوم : إن ازدراء رجل محب لامرأة يحبها هو حب جديد !

يا ويحي ، ماذا أصنع ؟ .

إن سكتُ علمتُ علم السكوت . وقالت : محب يأكلُ الغيظُ من قلبه ، وإن غضبت لم يفتها معنى الغضب ، وقالت : محب يلتمس أسباب الرضا ، وإن زعمت السلوة كان الزعم من حجتها وقالت : محب يصور قلبه غير تصويره !

يا ويحي ! كيف ؟

أيمكنني أن أنزل هذه الصورة الفاتنة من مكانها ، وقد أرادت المقادير أن تزخرف بها غرفة الأحلام في نفسي فجعلتها في صدرها ، لأنها من زينة الله التي أخرجها لي ولم يجتمع ما أحبه من الجمال في امرأة إلا فيها ؟ .

وهل على الحب خيار ؟ أم هو الجمال الأزلي يستعلن لكل إنسان بالوسيلة التي توافق مزاجه وتلائم تركيب نفسه على قدر ما يلائمه وعلى أحسن ما يلائمه ، فأتى الحب متخذاً من الشكل المحبوب وسيلته فلا يكون أكمل ولا أجمل عند كل عاشق من معشوقه ، إذ هو ليس إلا الصورة التي تتراءى فيها خصائص الجمال العلوي للخصائص التي في

روح العاشق وطباعه فتتصل بها من الجهة التي تنفذ منها إلى خالصة قلبه وداخلة روحه ^(١) .

* * *

أنا لن أبغضها إلا أن تسيء إليّ أكبر من إساءة دلالها ، بل إساءة تضعها في دمي ، دمي الحر الجياش المتحدر إليّ من أقصى تاريخ المكارم .

إني لمن أولئك الذين يعرفون أن لهم عروقا سماوية في أرواحهم تتضم بالشعاع القدسي الذي كان يوماً في بعض أجدادهم . إما نبوة نبي ، وإما خلافة خليفة ، وإما ملك ملك .

وفي مذهبي أنه إذا اجتمع الأذى والحب في قلب ، وجب أن ينصرف الحب مطروداً مدحوراً ، وليس من ذلك بد ، ولكن ، بالله ! أين منها الأذى الممض المؤلم الذي يطرد الحب ويجعلني أبغضها بدمي كما أحببتها بدمي ؟ .

إن هي إلا هذه الإساءة المبتسمة ، إساءة الدلال التي تغضب لتجدد الرضا ؛ وتبعد لتؤتي القرب معنى غير معناه القديم ، وتؤلم لتحدث

(١) كأن في كل إنسان جهة خاصة لا يمكن أن يشعر بجمال العالم إلا منها ، فيختار الجمال الشكل الذي تلائم خصائصه هذه الجهة . وقد يكون الشكل سخيلاً أو قبيحاً عند الناس ، ولكنه طلعة الشمس والقمر عند محبه ، إذ هو في الحقيقة ذلك الجمال نفسه الذي يتجلى في أجمل مخلوق ، ولكن بالتركيب الذي يلائم نفس إنسان بعينه ، كأن الجمال عنصر من الدواء في يد طبيب حكيم يصفه بمقادير مختلفة في أشكال مختلفة ، ولكن أثره لا يختلف ، ومن هنا لا بد أن يحب كل إنسان : ولا بد أن تختلف الأنواق والأسباب في الحب باختلاف الجهات النفسية في الخلق ، ولكن الشعور واحد ، والمعنى واحد ، والجمال نفسه واحد والطبيعة واحدة وبهذا الذي بيناه تحل مشكلة اختلاف الأنواق في إدراك الجمال .

اللذة الحادة التي يمازجها الطرب ، وترسل الوحشة إلى القلب كأنها
سفير سياسي يمضي بأسلوب الحرب ليرجع بأسلوب السلم ، وتأتي من
كل ذلك ما هي آتية لتجمع عليك من سحر الزمان الذي يهدد الحب ،
ومع قوة الحسن قوة الرغبة في لذة الحسن ، ومع ثورة القلب عليها
ثورة الفكر على القلب وعليها ! .

ليت شعري ، أتقوم العاصفة الهوجاء من خطرات مروحة
الحبيبة ؟ ويقع الزلزال المدمر من رجرجة منديلها في يدها ؟ لا أدري
ولكن ربما ! ربما ! .

إن لكل حبيبة خيالاً ساحراً كأنه خارج من قوى الكون كله
لا من قواها الضعيفة ، فما تلمس من شيء إلا سحر به على عين محبها
فحوله فيما شاء الهوى من صور الخيال المعقولة والمستبعدة ، والممكنة
والمستحيلة ! .

وكل حبيبة وصاحبها كالوثن وعابده : في أحدهما الحقائق كلها ما
دام في الآخر الوهم كله ! .

إن المرأة لتكون امرأة وحسب ، إلى أن تجد عاشقها ، فإذا هي
وافقت منه الحب فقد تاهت في قلب إنسان ، وصار لها جنتها ونارها
ومضى منها الأمر وكأنها عند محبها تأسر بقوة قادرة على أن تحيي ،
وتنتهي بقوة قادرة على أن تميت ! ... وليس ما يصفها به العاشق من
فنون الجمال الخيالي وما يفيض عليها من ألوان التعبير المصبوغ - إلا
ما تتوهمه العين البشرية من جلال فوق الحس ، ويريد الحس أن يصل
إليه كان هناك في العقائد الإنسانية معضلتين : ما وراء الطبيعة ،
وما وراء الحبيبة ...

كل يوم أقول في هذه الجميلة القاسية التي أبغضها ، أعني أحبها ،
أعني أبغضها ... إنها لظريفة إلا حين يجب أن تكون ظريفة ...
وإن كل محاسنها لاتعنّ إلا في مساوٍ بقدرها ^(١) .

ترى ماذا حبس كتبها عني؟ أتكلمني بهذا السكوت؟ إن السكوت
للغة أحياناً ! أم هي تدعني أبحث عن كلمتها في خواطري وأفكاري
لأسر بقدر ما أجد ، وأتالم بقدر ما أستطيع ؟ أم المحبة قد أخذت
تطير إلى النسيان بأجنحة الأنام التي تحمل كل شيء ولا ترجع به ؟ .

إن السكوت من أكبر فضائل المرأة ، وقليل ما وافقت إليه ! ولعله
أشق عليها من كتمان سرها ؛ ولكن سكوت الحبيبة عن كلمات الحب
هو الرذيلة ، الرذيلة التي لا يعدلها في الغيظ عند محبتها إلا أن تنطق
بهذه الكلمات - كلمات الحب - لرجل غيره .

اتفقت لي بالأمس حادثة أوحث إليّ بهذه الحكمة : قد يكون أدق
خيوط من خيوط آمالنا ، هو أغلظ حبل من حبال أوهامنا .. !
آه آه ! ما أراني عند هذه الكلمة إلا قد انتهيت إلى الموضع الذي
يحسنُ عنده تمزيق رسالتي ، لأقول للريح : خذي ريش طائر الحب
المنبوح ...

(١) أي لا تظهر محاسنها إلا مع مقدارها من المساوي ، ولا يريد مساوي الخلق ،
بل الصد والدلال ونحوهما .

القمر^(١)

« وكانت تأنس بضوء القمر ويعجبها نوره على الحديقة خاصة
فسالته أن يناجي هذا « الجميل » في رسالة ، فقال : حباً وكرامة
للقمر ... وكتب » .

إنني لاراك أيها القمر منذ علقت معاني ما أرى ولكنني لم أعرف
أنك أنت كما أنت إلا بعد أن وضع الحب فيها بينك وبين قلبي وجه
من أهواها ، كما يوضع التفسير إلى جانب كلمة دقيقة ...

عندئذ وصلتك قرابة الجمال بوجهها فاتصل بك شعوري ؛ وبت
على بعدك في أفلاك السماء تسبح أيضاً في دائرة قلبي ، واستويت
متسقاً كأن عملي لي أن تتم فن جماها بإظهارها أجمل منك ، وأمست
عندي ولك مثلها شكل السر المبهم المحيط بالنفس المعشوقة : يدخل كل
جمال في تفسيره ولا يكمل تفسيره أبداً !

ومن شبك بوجهها أزهر الضوء فيك ما يزهر اللحم والدم فيها ،
فتكاد أشعتك تقطف منها القبله ، ويكاد جوك يساقط من نواحيه

(١) في كتابنا (حديث القمر) تشبيهات كثيرة وأوصاف مختلفة ، فانظرها هناك ،
إذ هي نمط آخر غير ما تجده في هذه الرسالة .

تنهدات خافتة ، وتكاد تكون مثلها يا قمر مخلوقاً من الزهر والندى
وأنفاس الفجر !

* * *

أما قبل حبها فكنت أراك أيها القمر بنظرات لا تحمل
أفكاراً .

كنت جميلاً ، ولكن جمال ورق الزهر الأبيض ، وكنت في رقعتك
المضيئة تشبه النهار مطوياً بعضه على بعض حتى يرجع في قدر المنديل ،
وكنت ساطعاً في هذه الزرقاء ولكن سطوع المصباح الكهربائي على
منارة قائمة في ماء البحر وكنت زينة السماء ولكن كما تناط مرآة صغيرة
من البلور إلى حائط فتشبه من صفائها موجة ضوء أمسكت ووضعت
في إطار معلق ! .

وكنت يا قمر ... كنت ملء الوجود ولكنك ضائع من فكري ! .

* * *

وأما بعد حبها فأمسيت أراك أيها القمر ولست إلا طابع الله على
أسرار الليل في صورة وجه فاتن ، كما أن كل وجه معشوق هو طابع
الله على أسرار القلب الذي يحبه .

فأنت جميلٌ جمال الجسم البض العاري ، تكاد تشبه صدر الحبيبة
كشفت أعلاه فظهر في بريق الفضة المجلوة .

وأنت فاتن تحاكي في ضوئك وجهها لولا أنك بلا تعبير .
وأنت ساطع بين النجوم. ولو تجسمت صورةً من أجمل ضحكاتِ

ثغر معشوق لكانتك ولو تجسمت القبلات المنتثرة حول هذا الثغر
لكانتها^(١) ! .

وأنت زينة السماء ، ولكن السماء منك كمرآة سحرية اطلعت فيها
حورية من حور الجنة فأمسكت. خيال وجهها في لجة من النور ، فانت
خيال وجهها ! .

وأنت يا قمر ... أنت ملء الوجود ولكنك أيضاً ملء فن
الحب ... !

* * *

أتذكر أيها القمر إذ طلعت لنا في تلك الحديقة ... وتفيأت
بنورك عليها فغمرت أرضها وسماءها بروح الخلد ، حتى وقع في وهما
أنك وصلتها من سحر أشعتك بطرف من أطراف الجنة فهي ناحية
منها ؟ .

أتذكر وقد رأيتك ثمة قريباً من الحبيبة تصب عليها النور حتى
خيل إليّ أنها إحدى الحور العين متكئة في جنتها على رفرف خضر^(٢)
وقد وقف لخدمتها قمر ؟ .

أتذكر وقد لمست فكري بضوئك لمسة نور فآظهرتها لي كأنها في
جمالها الطاهر شكل ديني وضع ليكون مثالا لعبادة القلب الإنساني ؟ .

(١) أي كأن القمر قطعة اجتمعت من أنوار ضحكات ثغر جميل ، وانتثرت قبلات هذا
الثغر نجوماً ، فكل نجم هو ضوء قبله .

(٢) في صفة أهل الجنة « متكئين على رفرف خضر » وفسرت بالحداد او البسط والمراد
بها هنا منشورات الروض الخضراء التي تفرش أرضه .

أتذكر إذ نزلت علينا بآيات سحرك فخيّلت لي أن العالم قد تحول
فيها هي إلى صورة جميلة مرئية أمست لي وحدي ، ففلكت العالم كله
في ساعة من حيث لم أملك إلا الحب ؟

أتذكر ساعة جئتُها بها من فوق الزمن وكان فيها للحديقة جو
من زهر ، وجو من قمر ، وجو من امرأة أجمل من القمر والزهر ؟

* * *

أترى يا قلبي كأن في الوجود الذي حولنا أنوثة وذكرورة فهو بالقمر
تحت الليل يعبر عن نفسه تعبيراً نسائياً في منتهى الرقة ، لأنه قوي
شديد ، وفي غاية التفتر . لأنه مشبوب متضرم وفي كمال الدلال لأنه في
كمال الإغراء ، وفي أقصى الحياء ، لأنه يبعث بهذا الحياء فيما حوله
أقصى الجراءة ؟

تعبيرُ امرأة معشوقة جميلة ترف بأندائها وليس فيها إلا صفات .
وبالشمس على النهار يعبرُ الوجود عن نفسه تعبير رجل مقدام
ليس فيه غير القوة والحركة والاندفاع .

تعبيرَ رجل جبار يحمل عزائمه التي يحترق بها وليس فيه إلا
صفات النار !^(١)

أترى يا قلبي كأن مدينة الحياة في النهار بصراعها وهومها تحتاج
إلى قفر طبيعي يفر إليه أهل القلوب الرقيقة بضع ساعات ، فلذلك

(١) هذا رأي لنا لم نجد له لأحد ، فكان من المرأة مظلة أبدأ كليايا الحاق ، ومنها
مضيئة ولكن على تفاوت باختلاف الأسباب « ومنها ليلة البدر » وهي الحبيبة عند محبها :
كلها جمال ووحى وضوء ورقة وسحر !

يخلق لهم القمر صحراء واسعة من الضوء يجدون فيها بعد تلك المادية
الجياشة المصطنعة روحانية الكون وروح العزلة وسكينة الضمير ،
ويبدو فيها كل ما يقع عليه النور كأنه حي ساكن يفكر . ؟

أترى يا قلبي كان ضوء القمر صنع صنعة بخصائصها ليعث في
القلوب معاني القلوب الروحية من الفكر والحب ، كما صنع نور الشمس
ليبعث في الأجسام قواها ومعانيها المادية من الحياة والدم ..؟

أترى يا قلبي كان هذا القمر إنما يلقي النور على الحلم الروحاني
الذي الغامض الذي يحلم به كل عاشق من أول درس في الحب ، ساعة
ترسل الحبيبة إلى قلبه رسالة عنها ، ولا يحلم بثله في غير العشاق إلا
أعظم الفلاسفة ، وفي آخر دروس فلسفته ، وبعد أن تكون الليالي
الطويلة قد أطلعت في سماء عمره قمرَ الشيخوخة من شعره الأبيض ؟

أترى يا قلبي كان هذا القمر في الحب (تلسكوب) يكبر نوره
العواطف حين تثبت في ضوءه ، فلا يطلع على حبيبين أبداً إلا كبر
أحدهما في عين الآخر ؟

أترى يا قلبي أنه ليس في الحب إلا عواطف مكبرة يثيرها دائماً
وجه الحبيب ، فلا بد أن يكون دائماً وجه الحبيب طالعة فيه روح
القمر ؟

أترى يا قلبي ... ؟ آه ... أترى ؟ .

* * *

قال القمر ...

ياليلُ ، هيجتَ أشواقا أداريها فسلُ بها البدرَ : إن البدرَ يدريها
رأى حقيقةَ هذا الحس غامضة فجاء يظهرها للناس تشبيها
في صورة من جمال البدر ننظرها وننظر البدر يبدو صورة فيها

* * *

يأتي بملء سماء من محاسنه لمهجلي ، وأراه ليس يكفيها
وراحة الخلد تأتي في أشعته تبغي على الأرض من في الأرض يبغيها
وكم رسائلَ تلقيها السماء به للعاشقين ، فيأتيهم ويلقيها

* * *

يقول للعاشق المهجور مبتسما : خذني خيالا أتى ممن تسميها
وللذي أبعده في مطارحها يد النوى ، أنا من عينيك أدنيها
وللذي مضه ياس الهوى فسلا : أنظر إليّ ولا تترك تمنيتها

* * *

أما أنا فأتني البدرُ مُزدهياً وقال : جئت بمعنى من معانيها
فقلت من خدها ، أم من لواظها أم من تدللها ، أم من تأيبيها
أم من معاطفها ، أم من عواطفها ، أم من مرآشفها ، أم من مجانيها
أم من تفترها ، أم من تكسرهما أم من تلفتها ، أم من تثنيها ؟
كن مثلها لي . جذبا في دمي وهوى أو كن دلالا وكن سحرا وكن تيتها
فقال وهو حزين : ما استطعت سوى أني خطفت ابتساماً لاح من فيها ... !

نظراتها

أكتب إليك يا حبيبتي كتاب عيني، إذ أكتب عن نظرتك السحرية التي أجد لها في قلبي معرض فن كامل من صور المعاني الجميلة. فإن نظرة الحب تقع موقعها في العين وحقيقة معناها في القلب، كأختها قبلة الحب: هي في الفم وحلاوة طعمها في الفكر.

أتدري يا حبيبتي كيف أراك؟ ... إن في عيني من أثر حبك ما جعل في نظري قوة خلق معنوي تريني كل شيء من فوق معانيه، كأني خلقت فيه جمالاً أو معنى، أو خلقت فيه القدرة على أن يسمو في روحي ويرتفع بها فوق ما هو في نفسه وحقيقته، وعلى الجملة فكأني أسبغ الفن على المادة، فإذا كل شيء يُرى هو في نفسي شيء ألبس مجازاً أو استعارة أو نحوها مما يحقق فيه مع صنع مادته عمل فكري وخيالي.

في نظري من أثر حبك حس من الفكرة، فهو نظر وتقدير معاً والأشياء لديه مادة وعبرة سواء، والإدراك به حقيقة وخيال جميعاً، وبكل ذلك فالجمال في نظري جمال من ناحيتين: حسنه في ذاته، وحسنه في خيالي الذي يجعله أسمى من ذاته.

ولو أردت مثلاً أضربه لقلتُ لك: خذي جمالين في معنى واحد فلاني أنشأت حديقة زهر. ولكني لا أقول لك أنت غرست حديقة بل

أقول لك : غرست الفجر .

٩. ومن ذلك يبدع لي الحب فكرة عنك لو هي كانت في خاطر ملك من الملائكة يمر بها في السماوات لما زادت ولا ارتفعت عما هي في نفسي ولو دخل بها الجنة ، في هذه الفكرة عنك يا حبيبتى الجنس كله بأحسن ما فيه ، وبهذه الفكرة أراك وفيك الجمال النسوي كله ، فإذا نظرت إلى غيرك لم أرَ فيها إلا شخصها هي حسبه ^(١) .

كذلك أراك بحس الشاعر الذي يضيف دائماً إلى الحياة والطبيعة زوائده وفنونه ، ولكني أراك أيضاً بحس الطفولة التي تضيف إليها الحياة والطبيعة دائماً مثل تلك الزوائد والفنون ، فما أحسبني رأيتك مرة إلا وكأنني رأيت فيك أول أنثى ، وكأنما الحب هو بدء الدنيا مرة ثانية من أولها ، أي ولادة خيالية : إن لم تولد بها الأشياء في أشكال جديدة فبالوان جديدة ، أي زخرفة الوجود كله ونقشه لعين العاشق بجمال المعشوق، كان الوجود بيت قد طلي وزخرف ونقش لأنه ستدخله عروس الحب !.

* * *

وانظري الآن يا حبيبتى صور نظراتك في قلبي ، فإن لها بعثات من ورائها بعثات ^(٢) ، وفيها المعاني من تحتها المعاني .

فهذه نظرات تمتد تأمر تشعرني قوة سطوتها كأنها تقول: أريد... أريد... ثم لا يرضيها الرضا فكأنها تقول: أريد منك أكثر مما أريد...!

(١) حسب : أي فقط ، والهاء : هاء السكون للوقوف على الكلمة .

(٢) أي لها في نفسه أمارات مما تبعته وتنبهه في النفس .

ونظرات تجيء تشعر النفس قوة سحرها ، فلا تتفتر بها عيناك
حتى أرى الحياة وقد ملأت وجهك بفن من الأنوثة الساحرة كأنما
أبدعته لك خاصة .

ونظرات من عين ساجية ساكنة الطرف كأنها تقول لي : إن
نظراتي إليك بعض أفكارى فيك !

ونظرات بتقطع الطرف بيني وبينك فيها كأنها تقول لي أفهمت...؟
ونظرة طويلة صارمة لها سياء قاص محقق تبحث فيّ عن توكيد
لتهمة أو براءة !

ونظرات من عين تسال متجاهلة وقد شطرت بصرها^(١) كأن فيها
فكرين أحدهما يقول أعرفك ، والآخر يقول لا أعرفك !

ونظرات الحبيبة لألآت بعينها^(٢) كأنها تقول لقلبي: أنت جريء
كالفراشة ، ولكن على الشعلة المحرقة ..!

ونظرات الجميلة المزهوة كأن فيها شيئاً أعلى من أرواحنا يوضح
لمحات من الجمال الأزلي .

ونظرات الضاحكة اللعوب تنفر وتتدلل كأنما تقول لي :

إنها تحس بأفكارى تداعبها وتلمسها !

ونظرات الخفرة الحيّة التي كأنما تحاول أن تخفي سر قلبين تحت
كسرة طرف ضعيفة .

(١) يقال هذا في الشخص الذي كأنه ينظر إليك وإلى آخر ... فشطرت من بصره هنا
وشطرت هناك .

(٢) كما يقول العامة (برقت) وذلك يكون من إعجاب ودهشة .

ونظرات العذراء أومضت بعينيهما وسارقت اللحظ^(١) لأن روحها
تريد أن تقول : إنها للحب متيقظة !

ونظرات تنو في سكون واسترخاء كأنها تقول : إن تعبيرى هو
أن يموت في التعبير !

ونظرات أراها محدجة^(٢) كما تنظر من روعة وفزع حين لا فزع
ولا روعة ، فأعلم أن الجمال يهاجمنى بسلاح خوفه !

هذه نظرة بريئة ولكن في شكل خاص من البراءة ... لينبعث
منها فجأة معنى ظريف يتاجن ويمكر ويعبث !

وهذه نظرة ناعسة ، كان وراءها فكراً خطراً نائماً تجتهد أن
لا ينتبه .. !

وهذه نظرة - نظرة واحدة - يقول من يعرف أنساب معاني
الحب : إنها ربما كانت ... أخت القبلة ، فهي قصيرة لا ينفتح بها
الجفن حتى ينطبق !

وهذه نظرة طويلة قوية في جذبها ، ربما كانت أخت العناق !
وهذه نظرة - نظرة واحدة - يحشع فيها بصرك لأن تهمة لك من
عيني التقت مرة باعتذار لي من عينك .

وهذه نظرة بين المعنيين تحتمل كليهما : إساءة الدلال إليّ وإحسانه
عليّ !

(١) أي كأنها تنظر وميضاً ينبعث ويختفي .

(٢) تنظر ملء العين .

وهذه نظرة بين اللقاءين ^(١) تجذب في قلبي الخوف والأمل
بمقدار واحد .

* * *

تلك يا حبيبتي صور نظراتك في معرض قلبي ، وتقابلها هناك
الصور الأخرى التي لا تريد أن أصفها لك ، لأنها الصور المسكينة :
صور أحلامي .. !

(١) لقاء الفضب ولقاء الرضا ، فهي في حالة بينها لا من هذا ولا من ذاك لا عابسة
ولا باشة في وجهه .

استمداد فلسفة

« وكتب إليها » :

جاءني كتابك ، بل جئتني أنت في كتابك ، فضمت الصحيفة إلى قلبي ضمة عرفتك فيها من خفقات هذا القلب واضطرابه ! وقبلت الكلمات قبلاً شعرت من سحرها في نفسي أن هذه الألفاظ قد خرجت من فمك الوردي فجاءت عطراً وحياة وجمالاً ، ونقلت في الكتاب جواً رقيقاً ندياً كان مطيفاً بشفتيك عند كتابتها كأنه نسمة من الفجر حول وردة تتنفس بعطرها الذكي .

كلما قرأت لك شيئاً نفذ إلى روحي بالعطر الذي عطرك الله به .
كان الكلام بيننا أثير تسبح فيه مادة نفسينا : ولو كل الجميلات في العالم لفظن كلمة واحدة ثم لفظتها أنت لكنت أنت وحدك القادرة على أن تصنع روح الجمال وروح الحب وروح المرأة في تلك الكلمة لأن روحي لا تعرف الجمال والحب والمرأة إلا فيك !

تريني حين أقرأ كتابك بين سحرين تظاهرا من ألفاظك ومعانيك ، فتجديني كالنائم تخلق الذاكرة في خياله أجسام المعاني المحفوظة لتخرج له من الاسم صاحب الاسم ، وترد عليه من الحكاية واقعة الحكاية ،

وتجرد منه شخصاً لا حقيقة له ينطلق في عالم مسحور ليست له حقيقة.
ويالم النائم ويلذ كانه من اليقظة لم يزل !

* * *

يذكرني هذا بما جادلتك فيه يوماً من أن هناك عالماً معنوياً يخلق
ما ننساه ونحن ننتقل إليه أحياناً بالنوم ، وأن هذا تمثيل لمعنى الخلود
أو هو من بعض أدلته ، إذ لست أرى الموت إلا رجعة الروح إلى عالم
أنشئ لها من أعمالها في رحمة الله ونقمته . فنحن على الأرض نبني
لأرواحنا في السماء ، ومنا من يبتني لنفسه المدينه العظيمة بخيراتـه
وحسناته ، ومن يبني لروحه السجن الضيق الوعر بآثامه وجرائمه !

مالي أراني قد اندفعت إلى ما وراء الحياة ؟ ولكن هل الحب إلا
روحانية ترجع بنا إلى ما وراء أنفسنا لتضيف بعض المجهول إلى
وجودنا ، وتريد لنا نعيم الدنيا وآلامها ما لا يزيده شيء آخر غير
الـحب ؟ .

لو سألتني من هو العاشق لأجبتك إنه لن يكون عاشقاً إلا من
أحس أنه قذف به في الابتسامات والنظرات بمرّة واحدة إلى مهبط
السموات ، فيشعر أن نعيمه أهنا من نعيم الأرض ، وأن عذابه أشد
من عذابها ، وكأنه إذ يتنعم لم يصب أسباب النعيم ، بل أسباب الخلود
في الجنة ، وإذ يتألم لم يجد مادة الألم . بل مادة نارية خالدة على قلبه .

كذلك لا يبدأ الحب إلا من آخر الدنيا ، فهو دائماً على طرفها ،
ولو نصب ميزان الآخرة لعاشق من العشاق المتيمين ووضعت كرة
الأرض بكنوزها وممالكها في كفة منه ثم وضع حبيبه في الكفة الأخرى ،

لرجحت هذه عنده لأن فيها حبيبه وقلبه ، وبقيت الأخرى . كأن
لم يكن فيها شيء وإن كان فيها المشرق والمغرب !

وأعجب من هذا أننا نجد من الزهاد والمتنسكين من يقطع دهره
كله متعبداً منصرفاً عن الدنيا إلى ما بعدها ، جاعلاً لسان حواسه
الأرضية^(١) دائماً سماوي اللغة ، ثم لا يجد مع هذا النسك وهذه الروحانية
من يقول إنه كالملائكة على حين أن الكلمة الأولى التي يقولها العاشق في
وصف حبيبه ساعة يمس قلبه : إنه ملك . وإنه من السماء ، وإنه قانون من
قوانين القدر ، وإنه الوجود كله مختصراً في نفس إنسانية ، والطبيعة كلها
ممثلة في ذات لذات أخرى ، وإنه مظهر من مظاهر التقديس لا تحيط
به إلا معاني الجلال والعبادة فلا يزال القلب يركع أمامه ويسجد !

* * *

أتذكرين أيتها الحبيبة ما قلته لك ذات مرة وقد رأيت كلبك
الصغير الجميل كأنه من تراميه عليك ومن معاني نظراته إليك - عاشق
يريد أن تفهميه .. فقلت لك : إنني أراه يحبك بقوة أحسبها تحاول
أن تقلبه إنساناً يحب ويعبد ، فإن كان هذا في الحيوان ولم يزد على معنى
الوفاء والأمانة شيئاً ، فليت شعري كيف تصنع هذه القوة في الإنسان
وهي فيه أمانة ثم رغبة زائدة عليها ، ووفاء ثم غاية أعلى منه ، وحب
إنساني ذاهب إلى طرفه الإلهي ، وشيء معلوم ثم شيء مجهول في المعلوم ؟
إنها والله لن تدعه إنساناً أبداً ما دامت لا تدعه في نفسه . آه ، آه !
ما أرى الحب إلا قوة تخرج النفس وتشيعها في الوجود كله أو تدخل

(١) كناية عن الرغبات والشهوات لأنها هي نطق الحواس ولفتها .

الوجود كله إلى النفس وتدعه شائعاً فيها ، ولهذا فهم يبلغ من سعة العالم فإنه لن يمتلئ عند الحب إلا بواحد فقط ، هو الذي يحبه .

أعرف هذا منك أيتها العزيزة لأنني في هذا البعد أراك في كل مكان حتى لكان هذا الوجود كله ورقة تصوير خساسة مصوبة بآلتها إلى قلبي تلتقط رسمك منه وتلقيه على كل شيء صرفت إليه عيني ، وهذا - ولا ريب - معنى من معاني اللانهاية فلعل ناموس الحب لم يخلق إلا لتدرك منه الإنسانية ما يقرب لها فكرة ما لا ينتهي ، فادة الحبيب الممثلة في جسمه وتكوينه لا تفنى أبداً ولا تحصر أبداً . بل هي تنصب من عيني محبه على كل شيء وملء كل شيء .

الحبيب محدود بعاشقه فقط ، وهذا مثال يقرب للعقل كيف يفهم الخلود الذي لا يفنى ولا ينتهي ، لأنه أبداً ممتد مع الخالق الأزلي الذي لا ينتهي ولا يفنى .

* * *

عذراً أيتها الحبيبة ، فهم أكتب فلا يزال وراء الكلام ذلك المعنى الدقيق الذي لا يظهره الكلام ، وذلك المعنى المعجز الذي هو بلاغة فوق البلاغة ، ذلك المعنى الجميل الذي هو أنت .. !

* * *

صرخة ألم

« وسألته مرة أن يكتب إليها في أوصاف الألم وفلسفته ، قالت :
لأن قلبي يجد فيك يا أستاذي ... من يؤله ، أعني يداويه مما يؤله !
فكتب هذه الرسالة والتي بعدها :

وأنا والله يا حبيبتي كسارٍ وقع في ظلمة مدهمة تحت ليل كأنه
رماد قد هيل على جمرات النجوم فاطفاها . وهو على ذلك يخبط في قفر
أشد وعورة واستغلاقاً من جفاء الحبيبة الهاجرة المتعنتة : لا يعرف
الطريق الذي يؤدي إليها كأنها ليست في جهة ، ثم بينا هو يعتسف
وقد ضل ضلاله شام البرق فحسب الملائكة جاءت من فوقه تحمل
مصباحاً ، ولكن ظلام حظه جعل الملائكة أيضاً تطفئ مصباحها
وتدعه لما بين يديه ...

وكذلك أطفأت أنت حتى كلمات الأمل ، التي هي كالبرق تضيء
ولا يثبت منها شيء ، وتلوح معانيها ثم إذا هي مظلمة من كل معنى .
وتركتني لآلامي كالحنظلة المرة ، لو أنك أمسستها قطرات من العسل
لما أحلتها ولا بقيت حلوة .

لا .. لا ، بل قطرة واحدة من هذه القطرات تجعل حنظلتي كلها

يا حبيبتي قرصاً من العسل ما دامت منك .

تريدين أن أكتب أوصاف الألم وفلسفته ؟ ألا فاعلمي أن آثارك في
هي كتابي إليك ... لا ... لا ، بل سأتكلم عن أخرى مثلك هي ...
هي الحياة .

* * *

أكثر تكاليف الحياة في ألمها وتعبها كأكثر أمراض الحياة ، فهل
من هذا إلا أن كل إنسان مريض ما دام حياً - بأنه حي ... ؟
ونعيش بين الأشياء والمخلوقات ، ومنها ما يسرنا كأنه أجزاء في
وجودنا قد زيدت علينا، ومنها ما يؤلنا كأنه أجزاء قطعت منا . فهل
يؤخذ من هذا الإنسان ما دام مضطراً فهو مريض بأنه مضطر ...
فأين إذن يلقي الحي آلامه وفي جسمه مرض يخلقها مندفعة منه
وحول جسمه مرض آخر يردّها راجعة إليه .

أهما مرضان في القوة أم سجنان للقوة ؟ أم الألوهية تحقق بهذا
الأسلوب الجبار قدرتها في ضبط هذا الإله العقلي المسمى الإنسان فشده
وثاقاً من شعوره بآلامه . وجعلت أكثر معانيه الإنسانية هي أكثر
سلاسله .

* * *

إنما أمر الله إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، ومن شقاء
الإنسان أنه طول حياته يزور كلمة الألوهية « كن » ويريد أن يقبض
من الأشياء قيمتها ... !

وأشد ما يؤلمه أن يهزأ منه ما يقول له « كن » فلا يكون منه شيء، فالحكيم لا يتألم إلا ألم الحكمة، والجاهل يتألم بألام الخيبة والعقاب.

* * *

على أن كل ألم لو حققنا راجع بلذة أو حكمة أو منفعة ، وأفراحنا وأحزاننا - على تناقضها تلتقي كلها منسجمة في الحكمة الأزلية التي قدرتها لمن يفرح ومن يتألم .

وما أشبه آلام الإنسان بألم الطفل المدلل . نراه يحزن لكثرة ما يفرح ويحول ابتسامته دموعاً في عينيه فيتغير في صورته دون أن يتغير في معناه ، فيضحك باكياً ، ويشكو فتكون شكواه طريقة مرح في غير شكلها ويكون في نفسه معنى واحد ولكن وجهه الغض اللين يضع لهذا المعنى أساليب مختلفة هي أنواع من ألعاب الطفولة .

* * *

إننا نسر حين تخضع لنا القوة المحيطة بنا فتؤاتينا ، ونألم حين تتمرد علينا . ولكن يا ويحنا ! ألا يجوز أن نكون نحن قد تعالينا ففتناها وتكون آلامنا آتية من سموها على المادة، كما ترى وجه الفيلسوف عابساً تحسبه منظر لوعة وهو منظر فكرة سامية ؟

ترفعنا الهموم والآلام ، لأن عواطف الحزن والشقاء لا تكون إلا من سمو ، وهي لا بد أن تكون لأنها وحدها الحارسة فينا لإنسانيتنا ، إذ تخلق مع حياة الجسم المادية حياة معنوية للقلب ، ونحسها من فقد ما نفقده ، لأنه لا بد للضمير الإنساني من صوت أليم يقول له أحياناً :

أنت سماوي فاترك هذا ، وكان كل لوعة ألم يحسها المرء هي صرخة
عاطفة جديدة ولدت في النفس !

* * *

حين يموت الميت العزيز يولد من موته لذويه الحزن عليه ... تلك
بعينها هي طريقة خلق الفضيلة ، نفقد شيئاً فنجد من فقدته معنى .

والمرأة بكل قواها ترعى طفلها وتحوطه وتربيته ، ولكن ابنها
بكل ضعفه يربي عواطفها ويرعاها ويحوطها ، وإن دمه ليجعلها ترى
للأشياء مدامع .. فهو خالق فيها لأنه مخلوق منها وهذا هو التفسير
الذي لا غموض فيه ، لأنه هو ذاته الغموض الذي لا تفسير له .

وكذلك آلامنا هي أطفال معانينا .

* * *

وقفت يوماً على شاطئ البحر ، فخیل إلي أنه عين تبكي بها
الكرة الأرضية بكاء على قدرها ، وتأملت الجبال فحسبتها هوماً ثقيلة
مطبقة على صدر الأرض ، وفكرت في البراكين فقلت لوعة أحزانها
تشور وتهمد .

ثم رجعت بهذا النظر في الإنسان ، فإذا له على قدره بحر وجبال
وبراكين .

عند الطبيعة : لا ألم ولكنه نظام ، وعند الإنسان : لا نظام
ولكنه ألم ...

ولعمري ، لو أتى للأقدار أن تخاطب البائس المتالم لكان الخطاب
بينهما جملتين من القدر وحرفاً واحداً من البائس على هذا النسق :

القدر : هل عرفت كل السر ؟

الإنسان : لا .

القدر : ويحك ، فهذا الذي أصابك بعض السر !

* * *

... وألم الحب

أما ألم الحب ، فذاك حين يأتي على اللحم والدم معنى لو تجسم
لكان هو الذي يصهر الحديد في موج من لهب النار ، ويحطم الصخر في
زلزلة من ضربات المعاول ..

هناك الألم المدمر لا يكابده إلا إنسان كأنما يراد خلقه مرة ثانية
فيهدم ويبنى ، أو يزداد تنقيحه فيغير ويحول .

وأعظمه لأعظم الحكام والشعراء ، فهم وحدهم الخارجون دائماً
عن هندسة الحياة المنسجمة ، وهم وحدهم الذين يتحول كل شيء في
أنفسهم إلى حقيقة عاملة فلا يبرحون في تغيير ، ومن ثم فلا بد فيهم
من هدم ... !

ولا بد لهم من آلام على قياس العظمة ، تكون لكل منهم كالبراهين
عنه نفسه أنه غير إله ، وأنه حين يكون بين حكمتين إنما يكون بين
ضربتين ... !

تجد الشاعر العظيم وإنه ليكاد يملأ الكون ، فلا يضرب بالحب إلا
الضربة الداوية تنطبق بها أقطار المشرق والمغرب !
وإنه لضغط بالوجود نفسه على بعض الناس ، كضغط الأرض

بالآلاف الأجيال على بعض الفحم المظمور في أعراقها ليتحول فيكون
منه الماس الكريم المتلألئ !... ألا ما أهولها قوة في تبييض الأسود
بطبيعته ، إلى جوهر النور بطبيعته ، وفي خلق شمس ألماسية وهاجة ،
ولكن من ظلمة حالكة انعقدت في التراب !

وما أهول مثلها من الآلام في مضاعفة الحكيم أو الشاعر بقدر
إنسانيتين ، ليتسع لبؤس من الأشقياء وسرورها جميعاً ، وليكون على
مدرجة بين الخليقة وخالقها ، وليبقى دائماً من ضغط الوجود عليه
كانه محصور في عمر ساعة ألم قد جمدت حوله !

* * *

أولئك يتأوهون لا بالآنين كغيرهم من الناس ، ولكن برعد الأرواح
يرجف إذ تنفجز بكهربائها ، ويبكون لا بالدموع ، ولكن بسحائب
من معانيهم يؤلفها القدر ويراكمها ويضرها فيسوقها لتمطر على ناحية
الجدب الإنساني .

أولئك يتألمون لا بالألم . ولكن بتمزيق في أنفسهم كتمزيق الأرض
حين تودع أسرار الزرع ، ويتوجعون لا بمقدار عمل الواحد منهم
بنفسه ، ولكن بمقدار عمل الدنيا به ، وليس منهم البائس الحزين الذي
نزل به الألم رغماً وذللاً . ولكن البائس الجميل الذي اتخذته الحكمة ليبعد
الصورة الكلامية من جمال نفسه لجمال الكون شعراً وبياناً وفناً .

في موضع تقع الشرارة لتنفطى ، وقد تنطفئ قبل وقوعها وفي
موضع آخر تقع وكأنها ولدت ثم لتتحيا وتكبر ، فإذا هي من بعد نار
تعمل أعمالها . وكذلك الألم ومن يتألمون « وربك يخلق ما يشاء ويختار .

ما كانت لهم الخيرة ، (١) .

* * *

? ومن قسوة القدر على الشاعر العظيم أن لا يجعل حبه حباً خالق
الوحي إلا في امرأة على قدر تأله عظة وسخرية ...!

يقول هو عنها : ما أحوجني إلى معجزة نبي تحول الحجر الذي في
ضلعها إلى القلب ... وتقول هي عنه : ما أحوجني إلى بعض
الملائكة أو الشياطين ليكشف لي سر نفسه الخبوءة تحت مكان الصبر
في قلبه !

ويعيشان في الحب كما يعيش اثنان في قصة ... وضعها مؤلف
خيالي فأحكم عقدها ... وتخاصم سعادة كل منهما سعادة الآخر ،
ويعملان كما يعمل الغني الشحيح . يفقد الحياة لينال الدنيا (٢) . ثم إذا
سألت ذلك المسكين الأعظم : ما لذة هذا الحب الأليم اللهفان ؟ قال
لك : لذته أنه حب !

هي حينئذ كل العذوبة السيالة في روحه ، وهي بذاتها كل الأقداء
التي ألقيت في ينبوع نفسه ؛ وآلامها ميلاد حقيقي لمعانيه ، ولذاتها
أكفان حقيقية لموتى هذه المعاني إذا أريد لها الموت ، وكل ما يضع
الآلام والأوجاع فيه يضع منها النور في كلماته !

(١) آية مقتبسة من القرآن الكريم . وفي اعتقادنا أن الحب ليس اختياراً كما مر في
(رسالة للتمزيق) . وإنما هو استعلان معنى الجمال بالصورة التي يمكن أن تفرض فرضاً على
عحبها ، فما هو إلا أن يراها فتخالطه فيحس الجمال فيجب . وسيأتي هذا المعنى .
(٢) أي يتصرف كلاماً بمناد وتهور وخطأ . ومقدمات تستحيل معها النتائج السعيدة
لأحدهما أو كليهما ، فهو ذو عناد وهي ذات معاصرة !

من كونها هي في قلبه يشعر أن الكون فيه ، حتى ليقول في وحيه
للجبال الراسية على أعضاء الأرض : آلمتني يا أعضائي ...

وتلقي في حياته ألوان عينيها وخديها وثرغها ألواناً وألواناً ،
فإذا حياة فنية مزخرفة منقوشة بأبداع وأجل مما في الطبيعة ورياضها
وألوانها .

ولاتصالها بموضع السر من روحه ، تشعر السر العجيب سر الحب
الذي يحير العاشق حين تفتنه من يهاها فيحسب كأن الجنس كله
مستحيل وأمكنت واحدة ، أو كأن الجنس كله ممكن واستحالت
واحدة تعلقها ، فكأنه لا جنس بل واحدة فقط ...

وتتصرف به في دلالها وهواها تارة وضدها ، فيراها حيناً كما ينظر
طفل إلى سكرة ، وحيناً كما ينظر المريض إلى مقبرة !
وإذا هي أنفقت أهلكت بلذة ، وإذا هي امتنعت هلكت بألم ...
داءٌ لا يدري أنى يؤتى له ^(١) .

يا رحمة للمحب الذي يتوجع بالآلام وحقائقها ثم بمعانيها في روحه
وأمانيه ثم بالصبر عليها : ثلاثة آلام من ألم واحد !

ويا آلام الحب ، أنت ثقيلة ثقيلة ، لأنك نظام التراب في روحانيتي !
ويا آلام الحب ، أنت جميلة جميلة ، لأنك إشراق السر الأعلى في نفسي !
ويا آلام الحب ، أنت حبيبة ولو أنك آلام ، بل حبيبة لأنك آلام ..

* * *

(١) أي لا يدري كيف يتأتى له ولا كيف يداويه ، إذ لا يدري ما هو ، ولا أين هو !

مني السلام

مني السلامُ على من لو تصافحها يد النسيم ، أحست غمز آلامي
مرت على الورد في الأكمام فارتعشت أسيّ ، وقالت: أهذا قلبه الدامي؟
وأبصرت غصناً ظمآن منطرحاً فما رأت فيه إلا بعض أسقامي
وتسمع الطير صداحاً بأيكته يشكو، فتسمع في شكواه أنغامي!

* * *

حقيقة الحب فيها ، ثم تُظهر لي كأنني عالق منها بأوهام
يا للعجيبه للمرأة ! أنظرها ولا أراني فيها وهي قدّامي ...

* * *

يا أختَ شمس كلون الخد مشرقة وأخت بدر كنور الوجه بسام
ما كنتِ مثلها إلا لتبتسمي على لياليّ في حيي وأيامي

* * *

الحبيبات والمصائب ...

« وكتبت هي إليه »^(١) :

كنت أقرأ الساعة في كتاب... لذلك النابغة الفرنسي الذي أخرجه الحب للشعر فأخرجه الشعر للإنسانية .

هو (فلان) ، هذا الرجل الذي ولد مراراً في الحياة، فإن الشاعر العظيم لا تلد منه أمه إلا الجزء الأرضي الآتي من المادة ليفنى في المادة، أما الأجزاء الروحية السماوية التي هي زيادة فيه على الناس ليكون أكبر من الناس ، فهذه – كما قلت لي أنت مرة – تلده الحبيبات و ... ومصائب الدنيا !

أترى يا عزيزي مصائب الدنيا نوعاً من الحبيبات في بعض وجوه الشبه واتحاد الغاية ومطابقة الحكمة ؟ .. لك فلسفتك ولكني أرجو أن لا يكون أنا الموحية إليك بهذا المعنى ...

(١) ليعلم القارئ أن الصديق (صاحب الرسائل) تلقى من صاحبه رسائل كثيرة ، ولكنها كالمصاحفين : لها من دلالتها « قانون مطبوعات » تراقبه ... وقلها قلم فنانة ، فيه مع الجمال خبث جميل ... وهي إلى الآن لم تأذن بنشر رسائلها ، وإنما استرقنا هذه وبعض فصول من غيرها . أما لغة الرسالة فليست لها ، بل هي من تهذيب صديقها . وفي يقيننا أنها لو كانت لإتمام رسائله وأفرغت له قلبها وفنها كما فعل هو لظفر منها الأدب العربي بأغن كنز في معاني الحب ، وأهل ذلك كانت وكان صاحبها ، فقلما وجد مثلها .

الآلم في الحب والآلم في المصائب : كلاهما أسلوب إلهي رحيم على قدر ما هو عنيف ، يؤتي من القوة بمقدار ما يبتلي من الضعف ، وينتهي إلى السعة في الروح كما يبتدىء بالضيق في الحاسة ، وينشئ فينا مع النظرة المتأللة أو المتحزنة أو المتكسرة نظرات أخرى ، منها النظرة المفكرة والشاعرة والمتحدثة في صمتها واسترسالها بأسرار عالية كانت معانيها من السمو الروحي لأن لغتها من الأوجاع والأحزان !

ذلك الأسلوب القاهر لا يزال يتقصى بالوجيعة ويتتبع بالشدة حتى يخرج من الإنسان الموهوب ما تخرج حبة الرمل من حيوان الصدف حين تندس بخشوتها في لينه وتنغرز في لحمه إبرة حياة فإذا تاربخ ألم طويل حي لا يزال يستخرج ما يكونه حتى يلتف ويتغشى ويستكمل ، ثم تكنز منه الطبيعة كنزها ، فإذا أنت من حبة الرمل بحبة لؤلؤ ...

* * *

شاعرنا الفرنسي هذا يشبهك يا صديقي شبة تاماً ، حتى كأن التاريخ يعيده فيك ، مملوء من كبرياء العقل وكبرياء الغضب على الحياة ، فليس يراه أحد في وقت يكون فيه مع الأشياء ... إلا حسبه - لاهتياج نفسه وعنفوانه - كأنه خارج لتوه من عراك أو خصام ... !

لقد قلت لي يوماً : إذا كلمتك عن خصومك والمفترين عليك من حاسديك ، إن عداوة الأعداء مهما كثروا ينسيها حب حبيب واحد ، ولكن عداوة حبيب واحد لا تنسيها صداقة الأصدقاء مهما كثروا .

فشاعرنا هذا ... دائماً يرى كان به عداوة حبيب ، ومذهبه هو مذهبك بعينه ، هو أن الحب الذي هو في جملته أعلى الصداقة ، هو في

أشياء كثيرة إلف العداوة أيضاً^(١) ...

* * *

ولنرجع إلى الكتاب .

أتذكر إذ التقينا وليست بيننا شابكة ، فجلسنا مع الجالسين لم نقل شيئاً في أساليب الحديث ، غير أننا قلنا ما شئنا بالأسلوب الخاص باثنين فيما بين قلوبهما ؟

وشرنا أول اللقاء بما لا يكون مثله إلا في التلاقي بعد فراق طويل ، كان في كلينا قلباً ينتظر قلباً من زمن بعيد ؟

ولم تكد العين تكتحل بالعين^(٢) حتى أخذت كلتاها أسلحتها .. وأثبت اللقاء بشذوذه أنه لقاء الحب !

وقلت لي بعينيك : أنا .. وقلت لك بعيني : وأنا .. وتكاشفنا أن تكلمنا !

وتعارفنا بأحزانا كان كلينا شكوى تهم أن تفيض بيشها ؟
وجذبتني سحتك الفكرية النبيلة التي تضع الحزن في نفس من يراها ، فإذا هو إعجاب ، فإذا هو إكبار ، فإذا هو حب ؟
وعودت عيني من تلك الساعة كيف تنظران إليك ؟
وجعلت أراك تشعر بما حولك شعوراً مضاعفاً كان فيه زيادة ولم يزد !

(١) أكثر دلالات الحبيب هو عداوة لطيفة لعواطف محبه ، فالنعم مثلاً عداوة للطلب ، والبعد عداوة للقاء ، وهكذا .

(٢) هذا تعبير عربي بديع ، يقولون : لما اكتحلت العين بالعين ... كأنهم يقولون : لما التقيا ووجدت كل عين من الأخرى جمالها وقوتها وزينتها ... فتأمل !

وكان الجو جوقليينا .

وتكاشفنا مرة ثانية بأن تكاتنا مرة ثانية ..!

* * *

آه ! قلت : ولنرجع الى الكتاب ، ففي الكتاب قصة محب تبدأ هذه البداية وتجري في هذا المزع ثم تطرد وتنساق فلا يقرأها من عرف الحب إلا أحس كأن خيال ذلك المحب قد خرج من الكتاب ولزمه ، لشدة ما تؤثر القصة في النفس ، حتى لكانها حادثة وقعت لمن يقرأها ، أو كأنه يرى القصة رأي عين .

رجل وقع من الحب بين لا ، وليت ، وهيهات ولات^(١) بين التمني بأسلوبين ، والبعد عما يتمنى بأسلوبين أيضاً ، فأحب ليتعذب، وتعذب ليتصل بمعنى نفسه . واتصل بنفسه لينفذ منها إلى طرف من معنى الألوهية ، وإن أردت الاختصار قلت لك : إنه أحب ليتاله !

هل تفعل بسمات الحبيبة كل هذا ؟ ألا قل لي من أنت ، فإن الكتاب لا يقول لي شيئاً ، وما كنت أقرأه بل أقرأك^(٢) .

ماذا ترى في الابتسامات ؟ أمر تسقط عليه بندي السماء في نشر الروض وعطره ، أم تلذع قلبك بالبحر الضاحك الذي لا يقال فيه حين يشتعل إنه اشتعل ، بل إنه ، بل إنه تندى ... ذلك البحر الذي يحرق من غير أن يتضرم ، فلا يفني ما يحرقه ولا يأخذ منه ، بل يصبح كلهيب الياقوت في الياقوت وديعة إلهية جميلة في شكل النار ؟

* * *

(١) أي وقع من الحب المتمتع المطمع في مثل معاني هذه الكلمات نفياً وتقنياً وبعيداً .
(٢) ستأتي فلسفته في رسالة الابتسامة بعد هذه وكيف يرى الابتسامة .

في كل صفحة من الكتاب كنت أراك فأرى المعاني شعاعاً فكرياً
منبعثاً من جبهتك السامية لا من الأسطر وأوراقها .

كأس الكتاب مملوءة بماء الشعر العذب ؛ ولكن مؤلفه لم يناولني
كأساً بل نقلني إلى ينبوع المتفجر إذ نقلني إليك . أعطاني هو مادة
القراءة وهيأت لي أنت مادة الفكر فيما أقرأ فوضعني هو في الكتاب
ووضعتني أنت في نفسي !

روحية الكلام المكتوب يا صديقي هي وحدها التي تجعل الكتاب
عالمًا من العوالم يحمل دنياً مستقلة وإن كان هو يحمل في اليد ، ولن
يستطيع مؤلف أن يخلق في كتابه هذه الروحية ، بل يبشها القارئ
فيها يقرأ من ذات صدره أو ذات نفسه : فلا بد للمؤلف الناجح من
ثلاث : نوع الكتابة ، ونوع الأسلوب ، ونوع القراءة ؛ ومتى أصاب
هذه الثلاث التأم قليله بالكثير ، واجتمعت فصوله بالحوادث ؛ وتلبست
كلماته بالأعمال ، ووجد من قرائه تفسيراً لكل ما يقول ؛ فإذا هو قد
ارتفعت به الحال فلم يعد كاتباً ينتظر قراءه بل نبياً ينتظر المؤمنين به؛
لأنه خارج من إحدى نواحي القلوب ، وراجعاً إلى القلوب من
ناحية أخرى .

* * *

وقصص الحب متشابهة ، ولكن لكل منها طعمًا ومذاقًا وأثرًا ،
كان كل حب هو نفس جديدة ، فهو بذلك قصة جديدة ، وعلى هذا
القياس يمكن أن تقول : إن الحب هو تجديد النفس .

هذه النفس تسام الحياة فتريد أن تخرج منها وهي فيها ، فلا يصنع
لها هذه المعجزات إلا الحب .

والنفس قديمة ، فتحاول أن تتوهم إنسانية جديدة خاصة بها فلا يأتياها بهذه المعجزة إلا الحب .

والنفس بين سماء وأرض لا بد لها منها ؛ فتتزعج أحياناً إلى أن تكون بين سماوين رجاء أن يكمل إشراقها ، فلا يخلق لها هذا الخلق المعجز غير الحب !

* * *

أنا الآن جزيئة وقد حضرني بشي^(١) فاطرقت إطرقة طويلة عند هذه الكلمة ، إذ الجديد لا يبقى جديداً إلا مدة ما ، فهل ترى يستمر الحب حباً ؟

آه من سيل الزمن الطاعني العنيف المندفع دون رد على وجودنا بهذه القوة الماحقة المستأصلة ، قوة ما لا ينتهي ، تندفع لتكتسح في طريقها ما ينتهي !

أيها السيل الأزلي الذي لا يرحم ولا يبقى ! من هذا الذي يستطيع أن يضع لك سواحل وشطآنًا ويقول لك : استقر هنا يا بحر الزمن ؟ وأنت أيها الحب ! من الذي يقيم عليك سواحلك وشطآنك ويقول لك : استقر ولا تذهب في السيل ... ؟
أيها الصديق ! وأنت ...

* * *

(١) أي اشتد حزني .

رسالة الابتسامة

يدمد الحب على قلبه كأنه في نفسه ينهدم^(١)
برجفة حاملها لم يزل ممزقاً في القلب لا يلتئم

* * *

زلازل البركان لما دعت أن سئمت بركانها المحتدم
أجابها الله الطفي وارجفي من شفتي محبوبة تبسم ...!

لا يمكن القلب أن يعانق القلب، ولكنها يتوسلان الى ذلك بنظرة
تعانق نظرة ، وابتسامة تضم ابتسامة .

تلك يا حبيبتي كلمة سماوية مخلوقة من الضوء في شفتيك الجميلتين
تعبر عن كل شيء بحركة واحدة لا تتغير ولا تختلف ، على حين أن
معانيها في النفس دائبة في تغيرها واختلافها .

وفي عينيك الأحلام رهيبة غامضة ، ولكن على شفتيك معاني
الأحلام واضحة مفسرة : فابتسامك هو كلامك الذي لا تتكلمين به ،
وهو يختلج لأنه حركة ظاهرة لفكرك في الحب ، ولذلك هو دائم
متنوع ، دال على معنى ... وهو يضيء ليومىء بإشارة سماوية إلى سر

(١) أصل الدمدمة : الغضب ، ودمدم عليه إذا كله مغضباً ، والمراد هنا عنف الحب
في هز القلب من احتياجه وشدة كأنه مسلط عليه يهدمه .

المجهول الذي يتحجب في جمالك ، ولكنه لا يكاد يومض حتى يطفئه
هذا السر ، فيعود فيستطير ثم يعود فيختفي ثم يعود ثم يعود .

أهناك نزاع على حقيقة خفية من الحقائق الجميلة لم تجد لها مخبأ
إلا ثغرك الجميل ؟

أم لك فكر شعري موسيقي فهو يرقص دائماً على وزن من
ابتسامك ؟

أم في قلبك مادة من النجوم فهي دائماً تلمح لحها في سماء وجهك
النيرة فيسمون لحها ابتساماً ؟

أم ثغرك يبتسم دائماً لأنه بطبيعة جمالك وظرفك يتهاى دائماً لقبلة ؟

* * *

يجد الطفل على كل حالة وفي كل مكان سرور نفسه ، لسبب واحد
وهو أن ابتسامه أبداً معه فهو لم يملك من الوجود شيئاً بعد ولكنه
أغنى من عليها بهذا الكنز الذي خبأته السماء فيه فينفق منه فيما لا تباع
كنوز الأرض ولا تشرى !

ولولا هذا الابتسام في هؤلاء الأطفال وانه على أفواههم كالنبض في
قلوبهم لما نفعتهم نافعة في تحصيل النمو للجسم ، والصبر للطبيعة
والاستقرار للعاطفة ، والهدوء للنفس ، والسعة للعقل ، ولضغطت
الحياة أجسامهم ونفوسهم اللينة في قوالب معانيها المحدودة الضيقة
المصوبة من الضجر والآلام والهموم ، فما يكبر من بعدها على الأرض
طفل أبداً ، ولكن ابتسامهم سراج من كل قيود المادة ، هو أشعة إلهية

تذيب ما حول القلب الصغير من المعاني الضاغطة عليه ولو كان معنى
روح جبل صخري من الهم !

ولا تزال الجنة مع الطفل ، حتى إذا كبر قيل له كما قيل لآدم :
اهبط منها !..

أكل آدم من الشجرة ، ولا شيء يضيع في الكون ، فأين الحلوة
التي ذاقها في الجنة ؟
هي في أفواه الأطفال ...

* * *

ويتبسم الطفل ويضحك ونحسب ذلك على مقداره . كلا، إنه وإن
يكن طفلاً صغيراً في ملء جلده وعلى وزن جملته، ولكن مادة ابتسامه
على مقدار الطبيعة كلها، لأن عظمة الكون هي التي ترعاه بهذا الأسلوب
الصغير .

هو لا يحيا في العالم ، بل في معاني نفسه ، وبذلك هو دائماً فوق
الدنيا .

ومن حياة الأطفال المنحصرة في معاني أنفسهم ، ندرك، سر الحب
وسر السعادة، فإن كل لذة الحب، وإن أروع ما في سحره، أنه لا يدعنا
نحيا فيما حولنا من العالم، بل في شخص جميل ليس فيه إلا معاني أنفسنا
الجميلة وحدها ، ومن ثم يصلنا العشق من جمال الحبيب بجمال الكون ،
وينشئ لنا في هذا العمر الإنساني المحدود ساعات إلهية خالدة ، تشعر
الحب أن في نفسه القوة المألثة هذا الكون على سعته ، فتمر النفس
حينئذ في سباحات اللذة الروحية، من الجميل، إلى الجمال، إلى الطبيعة ،

إلى الله جل جلاله^(١)

* * *

إما ابتسامتك أنت ..

أنك حين تمنحين نظرتك وتتبعينها الابتسامة التي تفسرها أقول
عندئذ في نفسي: لقد علم الله علمه في حكته ورحمته، فلما خلق الحقيقة
من قوته عابسة جافية ، قابلها من رحمته بالحبيبة متبسمة رقيقة ...
فلعل المرأة الجميلة أسلوب في الفرع الإنساني كأسلوب إنشاء الزهرة في
ذات القوة الحشنة التي تنبت الشوك .

ولك ابتسامة يزيد سكون الطرف من غموضها ، والأخرى يزيد
استطلاق وجهك من صراحتها ، والثالثة على استحياء كان وعداً
معلقاً فيها .

ولك ابتسامة ملحنة كأنها نشيد وجد، يترقرق فيها صوتك الرخيم
الذي هو أيضاً تصوير الابتسامة بحروف ورنين .

* * *

(١) لنا في « رسائل الأحرار » و « السحاب الأحمر » وفي هذا الكتاب آراء مختلفة في
كيفية اتصال النفس من الحب والجمال الإنساني إلى مصدر الجمال الأعلى، وتوفية لهذه الآراء ننقل
هنا هذه الكلمة من كتابنا « المساكين » الطبعة الثانية :

« والطبيعة نفسها تهيم الإنسان للدين بأسلوب غريب ، وهو هذا الحب الذي يخلق فطرة
على أنواع مختلفة متعددة ، حتى لا يخلو منه أحد فلا معدل عنه ولا محيص ، وإنما هو في
مظاهره - أيها كان - درجة للنفس الإنسانية تصعد به درجات من الفضائل : كالإخلاص
والإيثار والاتصال الفكري والانبعاث الروحي والشوق الحياي ، ونحوها مما هو في الحقيقة
إيجاد للحياة النفسية في أعمالها ، وفيض بالقوة الروحية على مظاهر المادة لإحداث الملازمة
بين الأرواح والأشياء ، والترابط بين الجاذب والمنجذب . وكل ذلك تهيئة للدين وعمله في
النفس ، ليكون قائماً على أساسه في الطبيعة ، فالحب دين على أسلوب خاص ضيق ولذلك يشتد
فيه التمسك كما يقع في الدين من المؤمن به ، على وتيرة واحدة ، إذ لا يرضى للقلب في هذا
ولا هذا غير رأي واحد » .

المعنى الذي يتحول بغيره، يقابله المعنى الذي لا بد أن يحول غيره .
إنها مشكلة عجيبة كان حلها أعجب منها .

فما توجد امرأة هي جميلة فاتنة في وهم رجل ، إلا انبعث من شخصها معنى ليس في أحد غيرها ، كان فيها وحدها ما لا يوجد في آدمي ، وفي هذا السيال المعنوي يذوب كل شيء . وترى هذا الرجل يصغر للحب - ولا أقول يصغر به - فيرجع كالطفل تتولاه الطبيعة متمثلة في امرأة .. امرأة تعمل وحدها فيما يسوء ويسر عمل الدنيا وأكبر من عمل الدنيا !

لكل محب مع المخلوقات التي يعيش بينها مخلوقات من خواطره وآماله، وهذا برهان آخر على أن الشخص المحبوب أحد قوتين متقابلتين في الخلق^(١) .

وقد تم الحبيبة أن تكشف محبتها ، ولكنها بابتسامة ظريفة ترد أفكارها الخطرة إلى أماكنها ، وبهذه الابتسامة عينها ترعج في نفس محبتها تلك الأفكار من أماكنها .

آه من تلك الابتسامة المرحّة الذاهلة ! عليها لعيني المشتاق سمة من فتح ذراعيه وضم وقبل !

* * *

في ابتسامة الحبيب يتنقل العاشق بروحه بين المعاني والخيالات الشعرية السماوية، وفي تلك النظرات منه يسافر بقلبه إلى أحلامه البعيدة كما يسافر الفلكي بعينه إلى النجوم في (التلسكوب) .

(١) لأن الحبيب قوة خالقة في المواطن والمعاني ، وكان هذه هي حكمة وجود الحب ، والله يخلق الإنسان ، والحب يوسعه ويمد من حدوده وقد يضيقه ويختصره .

يسمونه ابتساماً ، ولكن حين يظماً النبات لا يقول للناس : أريد
الماء ، بل يقول للشمس وحدها . أريد من شعاعك البارد العذب
يا حبيبتي !

الماء حين يبصر تحرق الإسفنج وقد جف وانكش يقول : إن كل
ثقب من هذه الثقوب نفس ظمأى .

كذلك أوحى إلي أن محباً قبل حبيبته في روضة عند شجرات من
الورد، فأشارت إحداهن إلى شقّي الجميلة المضمومتين وقالت لصواحبها
أسمعتن قط أجمل همساً من هذه الورود الصغيرة وهي تتفتح ...

* * *

الزمن كله موسيقى عند المحب ، ولماذا ؟
لصوت حبيبته .

والزمن كله ربيع في رأي عينيه ، والدليل ؟
ورد خديها وشفتيها .

والزمن كله جمال في نفسه ، والبرهان ؟
كلها كلها ...

* * *

وهل أبدع الله الفم الجميل المبتسم بهندسته وتقسيمه إلا لبيدع
هو في ابتساماته فن الروح حين لا تستطيع أو لا تريد أن تتكلم
فترتعش ... ؟

كلام الفكر من اللسان ، وكلام القلب من العينين ، أما كلام الروح
فهو هذه الحركة البليغة وحدها ! وحدها !

أليس تالِق الماسَة هو وحده لغة معدنها النفيس ؟
والألفاظ تجيء وفي نطقها معانيها ، ولكن ابتسام الحبيبة هو
يستخرج معناه من محبها !
واللغة رابطة بين النفس والمادة ، وأما الابتسامة فرابطة بين الحس
والقلب .

إنها الروح تأخذ عن روح أخرى في حالة من الحالات النفسية
الخالقة ، تحول كل شيء الى لغة حتى اللحم والدم .
ورب ابتسامة على شفتي حبيبة هي خطاب لكل حواس محبها .

* * *

عندما تبتسمين أشعر بحرارة أفكارك في دمي ..
وفي تضرج وجنتيك لا أرى احمراراً ولا خجلاً ولا حياء ، بل
أرى قلبك يتكلم بلون خديك !
إن للقلب أربع لغات يتكلم بها : واحدة منهن بالألوان في الوجه
والثانية بالدلال في الجسم ، والثالثة في النظر بالمعاني ، والأخيرة وهي
أسهلن وأبلغهن . يتكلم بكل ذلك في ابتسامة .

* * *

ومع ابتسامة الحب يابى فم الحبيب أن يلفظ كلمة لا يقبلها
فم حبيبته ، يا لها فكرة ملائكية معلقة على فم ... !

* * *

جواب الزهرة الذابلة

« وتلقى منها ذات يوم كتابا ، فلما فض غلافه لم يجد فيه إلا زهرة ذابلة ، فكتب إليها : »

قرأت يا حبيبتى هذا الكتاب الذي لم تكتبيه ... ونسمت شفتاي ذلك السر الذي فيه ، وكدت أقول إنها هي نسمات عطرها سحرتها في هذه الأوراق بسحرها ، ولكنني تأملت الأوراق الذابلة فخيّل إليّ من ذواها وطيبها ، انها أجسام قبلات حارة احترقت على شفتي حبيبها !.. وفهمت من العطر أن الرسالة مكاشفة بالحب أو مناسمة : ولكنني فهمت من الذبول أنها معاتبة في الحب أو مخاصمة !

* * *

وقالت لي الزهرة يا حبيبي :

« بل أنا كوكب عطر من يدها الجميلة في فلك زهري غض ، ثم انتثرت من فلكي وذبلت لاني انتثرت من فلكي ... !

وقد نشأت في روضتي على أملود ناعم ريان ، فلما صرت في أناملها على أغصان اللحم والدم في روضة الجمال ، أحسست اني بت قلباً يحب ويعشق ، ومرضت لأنني بت قلباً يحب ويعشق ... !

« وكنت أنفح بالعطر والشذى الفياح ، فلما لمستني شفتها لمسة
عدت أفوح بالحب ، وهجرتني لأنني عدت أفوح بالحب ...
« وكنت تمثال النشوة والفرح : فلما رفت بي على خدها رفتين ،
صرت تمثال السكر والعريضة ، واطرحتني لأنني تمثال السكر والعريضة .
« وكنت بملء النضرة أفيض منها على الكون فلما وضعتني ساعة
على صدرها التهبت كشعلة هوى ، ونبذتني لما أحست بي على صدرها
كشعلة هوى ... »

* * *

وقلت للزهرة يا حبيبتى :
إنما أنت كلمة أيتها الزهرة الذابلة ، وما ذبولك إلا سحابة على نور
معنى من المعاني .
أفمن لغة القبلية أنت ، وقد جئت رسالة من شفتيها إلي فأنكشت
من حياء وخفر ؟
أم من لغة الابتسام ، وقد جئت تحية من وجهها وفيك ذلك المعنى
من غموض الدلال ، فأنت موجهة إليّ ولست موجهة إلي ؟
أم أنت من لغة اللمس ، وقد جئت سلاماً من يدها وهذا التجعيد
فيك شدة حب وضغطة شوق ؟
أم أنت من لغة النظر ، وقد جئت ذابلة متناعسة لأن فيك نظرة
من غرامها تنظر ولا تنظر ؟
أم أنت من مادة العناق وقد جئت هالكة ضماً من انطباق صدرين
تحتها زلزلتا قلبين ترجفان ؟

أم أنت ...! آه ! أم أنت من لغة النسيان ، وجئت رسالة هجر
منها ، وهذا الذبول الذي فيك هو مرض الجفاء ترسله الى قلبي ؟

* * *

ولكن ماذا قلت أنت للزهرة يا حبيبتي ؟
أما إنك قلت لها : إن كتابة العطر لا تقرأ ...؟
إن كلام النية لا يتكلم ...!
إني أضن عليه بكلمة ...!

* * *

يا للجدال

رسالة الجاذبية

آه لو أستطيع أن أخرجها من زماني ، إنني لا أستطيع
آه لو أستطيع أن أدخلها في حياتي ، إنني لا أستطيع
قدرت قدرتها في .. فلا أستطيع قدرة لا أستطيع ...

* * *

كل من يكذب في الحب قدر^(١) إن أطاق الحب - والله - غدر
وصحيح الحب جبه هدر كل ما يستطيع أن لا يستطيع

* * *

في عينيك يا حبيبني سحر ظاهر بمعانيه يلقي الحب على من
ينظر إليه .

أهو سر الضرورة الذي نشعرنا من معانيك الرحيمة بمعانيك القاسية؟
أم هو روح اضطراب مجهول أودعتك القدرة إياه ليخلق حولك
العواطف القلبية ؟

أم هو استبداد الجمال الذي خصصت به ليكون قلبك وحده في قوة
القلوب كلها ؟

(١) الحب الصادق لا يقدر إلا على أن يحب والكاذب يقدر على ما شاء ...

أم هو ذلك المعنى الخالق الذي يفيض على جمالك تميز جملتك البديعة
في شيء شيء وفي حسن حسن ؟

أم أنت أنت وذلك السر في عينيك معنى « أنت » ؟

* * *

دائماً يضيف وجهك إلى كلامك بلاغة إلهية :

ولو نطقت بألفاظ القوة التي تشبه أجراسها صلصلة السلاح^(١)
لخرجت من شفتيك متنهدة .

ولو تكلمت بأشد ألفاظ القسوة لذابت في حلاوة شفتيك ومتى
نطقت باسمي خرج من فمك سكران ...

أي سر هذا الذي يجعلك على كل أحوالك تفيضين بالقوة كأنما بنيت
على شكل لا يزال يجمعها في نفسه وييثها من نفسه ؟

إنه ولا ريب طابع الجاذبية على القوة .

وأي إبداع هذا الذي يظهر في محاسنك مظهر كون خلق كله
من الزهر ، وهو جميل في مجموعه بأجزائه وفي أجزائه بمجموعه !

إنه ولا ريب طابع الألوهية على المعجزة .

* * *

حولك ما نحسه ولا نعرف منه إلا أنه حولك وحسب ، والجو
الذي أنت فيه ينعكس عن جمالك في صورة سحرية ، فلو أنني طفت
العالم كله لرأيت من حولي أينما كنت ، وأبصرت وجهك دائماً أمام عيني
كأنني محدود بك في حدود مسحورة تدعك حيث أنت وتمضي معي
حيث أكون !

(١) الأجراس : الأصوات ، والصلصلة صوت وقوع السلاح بعضه على بعض .

وما الوجود إلا انسياب قوى المادة بعضها في بعض ، وفي هواك
تنساب القوى من روحك إلى روحي ، فالأصل الذي بني عليه الكون
في منافعہ بنيت أنت عليه في محاسنك ، كأنما هو يعرض قوانينه التي
تحس ولا ترى في صورة منك تحس وترى ، وتزيد على الرؤية انها آخر
حدود العشق ، وعلى العشق أنها أول حدود العبادة .

أما والله لو ناديتك بغير اسمك يا حبيبتى لما وضعت لك إلا اسماً من
معانيك ، ولو سميتك بهذه المعاني لما ناديتك إلا بهذا الاسم العظيم :
يا نسوية العالم !

* * *

نارية في غير نار ! آه من يفهم هذا ؟ ولكني أحسه منك حتى لا أرى
جسمك إلا مضيئاً مشتعلًا بالشباب والجمال ، وتالله إنني لأحسبك في بعض
سبحاتي ناراً مدمرة كأنك تقذفين على قلبي منفجرة فيه : ويشدني
الوجد وأضيق فما أظن الحب إلا عداوة ساخرة تهزأ بالناس فتجيشهم
متلطفة في غير أسلوبها وعلى غير طريقتها ومن غير أهلها ، من الحبيب ..
من الحبيب على أنها عداوة !

أتلك تلك يا قلبي نار وتدمير وعداوة ؟ أم أنها ترتجف من جاذبيتها
على زلزلة لا تهدأ ولا تقر ولا بد لها أن تتم عملها بطريقتها العنيفة ؟
إن فيها حركة الجذب ، وإن في حركة المقاومة ، فأننا المتألم بطبيعتي لأن
انجذابي إليها إن هو إلا اصطدام معاني بمعانيها ، واندفاع ما يتحطم إلى
ما يحطمه . ولكن يا لها من عجيبة ، إن هذه هي بعينها لذة الحب ،
إذ كان تحطيمه فينا هو تغييره فينا ، وبذلك يحدد الحياة ، أيامها

وأشياءها ومعانيها ، ويضع في كل أمر غراماً ، ويجعل لكل شيء عيناً
كحيلة ...

وراءك يا حبيبتي فكرة مخفية كأنك أنت عملها على حين كأنما هي
من عملك . أيكما يا ترى الخطر المستور بجماله ؟

مع جاذبية الألوان والعطور في ثيابك وحلاك جاذبية أعطرك
وأزهى في ملابس معانيك من العواطف ، وفي ملابس روحك من الدلال
ولا يعدلك في هذه الفتنة الكاسية إلا السماء في فتنها للرجال الإلهيين ،
حين تلبس حرائقها من شفق الصبح .

يا للجلال ! إذ تفسر الطبيعة نفسها الغامضة بامرأة جميلة ، لتحقق
بها في النفس العاشقة وهم الكمال الإنساني المستحيل الذي يخيل لها اندماج
الكون بجلاله العظيم في ذاتية إنسانية، ذاتية المحبوب المخلوقة على مساواة
وتقدير من محبتها لتجذبه وتفتنه ، فتخرج به من حكم عقله فتنفذ
أقدارها في أقداره ، فتعقد على أطراف حياته بعقدة عاطفية واحدة
تستطيع بها تلك المرأة أن تهزه من كل نواحيه بأيسر لمسة ! ..

* * *

إنما الكون كهربائية ، ولا بد في الكهرباء من سلب وإيجاب ؛ فمن
يدري لعل كل متحابين هما مظهر كهربائي لا يحوطهما إلا جو النفس
المحترقة تشعل بالضحكات كما تلتهب بالدموع ! لأن هذه وهذه مادة حب
ساطعة في مظهرين ! كاللهب ؛ تكون فيه مرة شدة الانبعاث فكأنما
يضحك ، ومرة فترة الانطفاء فكأنما يبكي ، ويقع الإيجاب في السلب
فيحدث الحب ، ويحدث فتكون الجاذبية ، وتكون فإذا إنسان يعانيه

قد احتل إنساناً في مادته فتفاعل أجزاؤها، فلن يكون الحب والبغض
منها إلا فوق الاعتدال ، إذ في واحد تتهارب أجزاء من أجزاء ، وفي
الآخر يفتنى بعضها في بعضها .

إنما هي قوة تلبست الصورة لتعمل بها عملاً في نفسها ، وتندل بها
دلالة في غيرها ، فحيي الخالص الشديد معناه فيك أنت الحسن الخالص
الفاتن ، وتفكيرني في محاسنك معناه في أنا : خلق لغة الأشياء الجميلة
ليتصل عقلي بحقيقتها .

وإحساسي بك وحدك معناه في الوجود إحساسي بجماله كله .
والآن وأنا أكتب إليك .. تتمثلين لي فأرى تقاسيم الحسن فيك
فأقول : وما هذه التقاسيم البديعة ؟

ألا رفقا بالقلب الذي أجابني إنها تركيب المغناطيس الغرامي
وتوزيعه في أماكنه على هندسة الجاذبية : رفقا بالقلب الذي تلمسينه من
جاذبيتك بالنظرة والكلمة والفكرة كأنه حولك لأنك حوله ... !
بالوحي ، والخيال ، والحسن ..

من أجل الإبداع ، والسمو ، والحب .
أنت في نفسك ، وأنت في معانيك ، وأنت في !

* * *

الأشواق

هاناذا يا حبيبتي أجلس لكتاب الشوق ، وفي يدي القلم ، ومعانيك
مني قريبة تكاد تحس وتلمس على تباعد ما بيننا ، لأن كل ما فيك هو
في قلبي .

وهذه عينك الظاهرة دائماً بمظهر استفهام عن شيء ، لأن وراءها
نفساً متعنتة تأبى أن ترضى . أو حائرة لا تكفيها معرفة ، أو غامضة
تريد أن لا تفسر ، أو على الحقيقة لأن وراءها نفسها فيها التعتت
والحيرة والغموض ، إذ عرفت أنها معشوقة .

هذه عينك من وراء البعد تلقي عليّ نظرات استفهامها فتدع كل
ما حولي من الأشياء مسائل تطلب جوابها من حضورك ومرآك لا غير
وبذلك يهفو إليك القلب بأشواق لا تزال تتوافى ، فلا تبرح تتجدد ،
فهى لا تهدأ ولا تسكن ، وكأن غيابك سلب الأشياء في نفسي حالة
عقلية كانت لها ، كما سلبنى أنا حالة قلبية .

وآه من تباريح الحب ! إنها لوحوش من الأحزان ثائرة ، فكل
راجفة من رواجف الصدر^(١) كأنها من حر الشوق ضربة مغلخ على القلب.

(١) رواجف الصدر هنا : كناية عن الحواطر الغرامية التي يضرب لها القلب العاشق .

الشوق ؟ ما الشوق إلا صاعقة تنشئها كهرباء الحب في سحاب الدم
يمور ويضطرب ويصدم بعضه بعضاً من الغليان ، فيرجف فيه حين
الرعد القليلي يتردد صوته آه آه آه ... !

* * *

والآن يا حبيبتي ألقِ عينك الساحرة عليّ نظرة استفهام أخرى
بالصبابة ورقة الشوق ، فأحسست بروحي كالغصن المخضر أثقله الزهر
وقد طفقت أزهاره تتفتح وتسلم النسيم ودائع الجنة من نفحاتها
وتسليماتها عليك .

وأشعر بالقلم في يدي ، وكان له شأنًا مع الكلمات التي أكتبها إليك ،
فهو يخطها حرفاً حرفاً ، ويقبلها كذلك حرفاً حرفاً ! ... وكأنه الساعة
ذو هيئة إنسانية (الريشة) التي فيه تمتد إلى الكلام امتداد الشفة الظمأى
بالقبلات الكثيرة المخبوءة فيها !

وأشعر بالقرطاس وكأنه قد علم أن سيحمل أشواقي وأسرار قلبي
فلا يعد صحيفة ورق تموج بالألفاظ بل صحيفة صدر ملاءها جو من
التنهّد آه آه آه .

* * *

وبنظرة استفهام أخرى من عينك أشعر بحقيقتك النسوية من حولي
حافة بي ، فمرتجة في صدري ، فلقية على قلبي المسكين من كل خطرة
شوق لسعة ألم ..

نعم إنك يا حبيبتي ترسلين الأنوار في هذا القلب ، غير أنها لم تكن
أنواراً إلا من أنها شعل مضطربة ، والمحّب الذي يضيئه عشقه ويظهر

للجمال ، وجوده الغرامي ، إنما ينيره احتراقه وفناء وجوده الذاتي ،
كل قدر من النور بقدر مضاعف من الاحتراق .

وكذلك البطل العظيم في الحرب : تنهش من لحمه السيوف ويثقب
في عظامه الرصاص ، وما مرقه الموت بهذه ولا بتلك ، ولكن
مزقه مجده !

أما إنك يا حبيبتى لو ضربتني بسيف لقتلتني قتلة معطرة !
أما إنك يا حبيبتى لو ضربتني بسيف لما كنت قد زدت بسيفك
وضربتك على أن تكوني خلقت الحسن في نظرة قاسية من نظرات
عينيك .

وهكذا علمتني حقيقتك أن الحب إن هو إلا تفسير كل شيء في
العالم تفسيراً من القلب !

* * *

أنت ممزوجة بالآمي ، وآلامي منك هي أشواقي ، وأشواقي إليك
هي أفكاري ، وأفكاري فيك هي معانيك في نفسي ، ومعانيك هي
الحب ، ولكن ما هو الحب إلا أن يكون آلامي وأشواقي وأفكاري
ومعانيك في نفسي ؟

ولروحك أنفاس تناسمني^(١) فاستنشقتها مهما انصدعت المسافات
بيننا ، كان ما ملأ النفس يلاً الكون ، فمن شعوري الدائم بانسكاب
روحك في روحي ينبعث غرامي ويرصد بهواك لي في منفذ كل معنى

(١) أي أجد نسيمها كأنها بحضر مني ، وقد مر تفسيرها في المقدمة .

إلى نفسي ، ومن هذا تنبعت أشواق الحزينة ما دمت لا أراك . وإذا
كان الغرام هو سكر الروح بالروح ، فما الشوق إلا التمرد العنيف من
حواس الجسم المحب إذا حرم أن يسكر بالجسم الذي يحبه .

* * *

في بعدك لا أشعر بالزمن يفنى من الساعات والأيام ، بل مني ومن
حياتي ، فأنا في بعدك أذوب ، أذوب فناء ، أي أذوب شوقاً ، وأفنى
صبراً وعمراً بين كل ساعة وساعة !

وفي الحياة يفنى الوقت ذاهباً فيما نحن بسبيله من واجباتها وممكناتها
وتعبنا بها وقتاً وراحتنا فيها وقتاً آخر ، فكأنه لا يمينا نحن بل يمس
أعمالنا ، فنحمله بذلك ونطيقه على ذلك ولا نحس أننا نموت فيه يوماً
بعد يوم ، بل نشعر بالحياة تبدأ فينا ولا تزال تبدأ ، أما في الحب على
امتناع الحبيب أو هجره أو فراقه ، فحاضرنا هو الماضي ويومنا هو
أمس ، إذ لا تزيد فيما يكون إلا مراجعة ما كان فيقع الزمن على قلوبنا
ويعتمل فيها ويأخذ منها ولا نشعر به إلا موتاً في صورة حياة ممتعة
علينا ومن ثم فلا يكون الشوق إلى الحبيب الممتنع أو الهاجر أو المفارق
إلا لهفة نائرة كهفة الشوق إلى الحياة من مريض وقذه المرض ورس على
جسده السقم^(١) فمات أكثره وبقيت منه البقية الذاهبة نفساً في نفس ،
ويشعر بالموت يبدأ فيه ولا يزال يبدأ !

يا رحمة للمشتاق حين يكون فيما حوله وهو بعيد عنه ، وقد يتكلم

(١) أضناه المرض وثبت على جسده .

بالكلمة وهو مسيرة شهر من معناها ...^(١) ويعيش في سكوت ملأته
أرواح ألفاظ محبوبة تريد بما وسعه أن تتكلم ولا يمكن أن تتكلم ،
إذ الفم الجميل الذي ينطقها بعيد في وديعة النوى ، ويروي أنه هو
وحبيبه ناحية فكرية من نواحي الدنيا بعيدة عن الناس والأشياء ،
كأنها معتكفان في عزلة ، ومع ذلك فالحبيب عنه بعيد ، فكأنما المسكين
غريب في دنياه وفكره معاً ، ويحس الآلام لا تنتهي ، إذ كانت هي
أشواقه الدائمة الحنين إلى من يهواه ، فالآلم دائماً فيه يبدأ ولا يزال يبدأ !
ومن كل ذلك فأشواق لك يا حبيبتي دائماً تبدأ ولا تزال تبدأ ،
وأنا دائماً في أولها !

* * *

آه ما هذه الأفكار الحزينة التي جاءت تبحث عن دموعي .
وما هذا المعنى الناري الذي يطير في دمي .
وما هذا الرعد القلبي الراجف يتردد صوته : آه آه آه ... ؟

* * *

(١) يريد أنه ذاهل ، أو أن كل كلامه يكون على حبيبته وهي بعيدة عنه ، أو أن
مركز معاني الحب لم يعد فيه هو ، بل في حبيبته ، فالحوادث ليست عنده على نسبة من
حقائقها السارة أو المؤلمة ، بل السرور والألم على نسبة بعده هو أو قربه من حبيبته أو من
رضاها . وهذا كله يكون من تخطيط الحب ، فسيأتي مثل هذا المعنى على وجه آخر .

كتاب رضا

كتابها قد جاءني حاملا لقلبي الخفاق قلبا خفق
والتمعت فيه نجوم المنى في أسطر مثل سواد الغسق
وأعرف القبلة في موضع يلوح لي كالزهر لا كالورق
وكم به سطر إلى آخر كالصدر للصدر دنا فاعتنق !
وكم به معنى أنام الجوى وكم به معنى أتى بالأرق !

* * *

سالته كيف رأى وجهها ؟ فقال : جل الله فيما خلق
قلت : وذاك الخد لما استحى ؟ فقال مثل الفجر فيه الشفق
قلت : وذاك الثغر ما أمره ؟ فقال : لما ذكرتك « انطبق »^(١)

* * *

يا ثغرها ، فيك نسيم الندى فكيف قلبي في نداءك احترق ؟

* * *

(١) كأنها تقبل اسمه حين ذكرته .

قلت : وانظر التعليق في صفحة ١٠٩ من كتاب « رسائل الأحزان » .

رواية القلم

أشعر أحياناً أيتها الحبيبة أن لقلمي عليّ خلافاً، وكان فيه عاطفة ترميه بنوازعها ، فهو يجاذبني نفسه لا يريد أن يكون في بناني ولا أن يقر معي . وهو الساعة مرتبك متبلد تمشي به يدي وكأنها الشيخ المتهدم الفاني يدعم على عصا^(١) يراه الناظر إليه مترحزحاً مترجرجاً فيحسبه يرتعش ولا يمشي .

وإن يكن بهذا القلم شيء مني فما به إلا الضجر مما يمليه قلبي الذي يهابك في رسائله كما يهابك في حبه ، فيقذف لقلمي بالكلمة من الكلام يكتبها عنه وإن القلب في ذات نفسه ليزمزم^(٢) بمعنى ليس في هذه الكلمة ، بل في كلمة غيرها قد أخفاها وضر عليها .

أحسب قلمي يا حبيبتى لا يتمنى إلا أن يكتب بغير يدي على أن لا تكون الرسالة يا ذات قلبي إلا من قلبي أنا ، وهذا معنى لو كشفته لكان هكذا . يود قلمي أن يكون في يدك أنت ليكتب بيدك إلي ... كأنه يعقل ويتلو معي رسائلك ويعرف أنك دائماً هاربة فيها ...

(١) أي يقوم بها كأنها دعامة .

(٢) الزمزمة : صوت خفي لا يكاد يفهم .

ويتللف مثلي على كلمة مقبلة (١) .

* * *

وهيبه الآن في يدك الرخصة الناعمة التي أودع الله فيها سر ثمره من أحلى وأنضر ثمار الجنة فتذاق منها حلاوة الجنة بالتقبيل، إنه يلمسك... إنه تحت أنفاسك يرتقب كلام شفتيك .. وربما فكرت قليلاً فأطرقت إطرقة فلمست به خديك. وربما أغمضت عينيك ليسعدك فكرك العميق بأسلوب مقلوب ... فإذا أنت في ذلك قد ألصقت القلم بشفتيك ولبثت ساكنة ولبث ساكناً ...!

ويك يا قلبي الحبيث ! أتريد أن تدعني ... لكانك والله نفس معلقة في أصابعي تحب وتشتاق !

* * *

وماذا عسى أن يكتب إلي قلبي وهو ذاهل في راحتك سكران من أنفاسك ، مضضع من لمسة خديك ، مترفع على الوجود كله بموضعه من شفتيك ، وهو كالميت من إفراط هذه الحياة كلها عليه ؟ أحسبه يكتب إلي من يدك هذه الرسالة :
« سيدي الاستاذ الفيلسوف .. »

« لم يخالني الريب قط في أنك من نزعاتك الروحانية ومن ذهولك الرباني كأنك في جو كوكب ... لا في جسم إنسان ، وكأن عناصرك المطهرة قد أنضجها اللهب القلبي الذي يحرق الإنسان وרגائبه وأهواءه في شعلة متقدة تفني منه شكله الأدنى لتوجد منه شكله الأعلى وتدعه ذؤابة نور ترتعش . »

(١) الكلمة المقبلة : المحضبة من المعنى الذي يحبه : والمديرة : المجدبة .

« وإن الساعة التي قرأت كتابك فيها لتكاد تشعرني بأنها من غير هذا الزمن ، فكانها خلقت لي تأتيني مع بريد من الملائكة حين يوافي البريد بكتابك » .

« وثالله إن كتابك يا سيدي لزهرة من روحك تحيتها عندي في تأملها والإعجاب بها ، أما بلاغته فبالله أحلف صادقة ما رأيت أكمل منك لسان قلم .. ولا أذكى مع هذا القلم .. قوة طبع ، ولا أبلغ طبيعة نفس ، ولكأن قلمك ... مهبط إشعاع تلتقي إليه سبحات روح الجمال المنبثة المألثة هذا الوجود مما بين أزهار الأرض ، إلى كواكب الفلك إلى حدود الحور في مقاصير الخلد .

« وسألتني اللقاء ولكن قلمك ... ساحر قدير فهو يستطيع أن يحملك إليّ دائماً في رسائلك البليغة ، ولو شاء هذا القلم الساحر ... لجعل من الصحيفة روضاً يفرشه تحت أقدامنا نثار الورد^(١) وقد جلسنا فيه تحت خيمة من الندى مطرزة بشقق عريضة من حرير الشمس ، ونلتقي وإن كنا لم نلتق !

« واهاً لقلمك ... يا سيدي واهاً .. وسلمت للمعجبة بآيات هذا القلم المعجز ... »

* * *

على أن هذا القلم الحبيث لو استملى من نشوته وسكره هذا الكلام المربد في قلبي وركب ذلك الفن من الغيرة وأخذته هذه الرجفة وكتب إليّ بيدك تلك الرسالة لقرأتها أنا هكذا :

(١) نثار الورد : ما تنثر منه في المجلس . وحين ينتثر في المجلس يسمى المجلسان (بضم الجيم وسكون اللام) .

» يا من أنا سيدته !

» لم يخالجني الريب قط في أنك - من حبك - نفس تحترق بذاتها كالكوكب، فعناصرك الملتبهة تلفنا معاً في شعلة غرام تفني منا شكلين لتوجدهما في الحب شكلاً واحداً ، وتدعه كذؤابتي نور معتنقتين .

» وإن الساعة التي قرأت كتابك فيها لتكاد تشعرني أنها منك أنت لا من الزمن ، لأحيا فيك وأنا أقرأك .

» وإن كتابك لمن روح أيها الحبيب لا من كلام ؛ فإنني لما نشرته في يدي أحسست كأنه غمز يدي .

» أما بلاغته فبالله أحلف صادقة لقد نقل إليَّ الكلمة التي لم تكتبها،
وسالتني اللقاء

آه ما بالك جمدت الآن أيها القلم الخبيث وقطع بك ؟ فكانك تغار حتى من موعد مزور ...!

* * *

هذه يا حبيبتي رواية قلمي فما رواية قلمك ؟

إنك لتنظرين إليَّ نظرات ناعمة من ذلك النظر الرطب فأجد لها مساً كمس يد الحبيبة الفاتنة ؛ فلماذا لا تكتبينها ؟

وتبسمين أحياناً ابتسامات معنوية تهرب إليَّ فيها بعض قبلاتك ،
فلماذا لا تكتبينها ؟

وأرى على نور قلبي أحرفاً مختبئة في قلبك هي: ألف، حاء، باء، كاف
فهل تكتبينها ..؟

* * *

نار الكلمة

تقولين في كتابك أيتها الحبيبة : ولعمري إني لأستحس وهجاً من حرارة الجذوة التي في قلبك ، أشعر به ومن بيني وبينك عرض المشرق^(١) ولقد عرفت هذه النار وآمنت بما قلته لي مرة من أنها اتصال الشعاع الأزلي بالقلب الإنساني ملطفاً في وسيلة إنسانية ، مخففاً بجمال ، مزخرفاً بلذة ، معاباً برغبات كثيرة كيلا يحق محقه الذي كان أخفه وأيسره أن تجلي للجبل فجعله دكاء^(٢) ، ولكن أيها الصديق ...

ولكن بأية نار تشعل ألفاظ رسائلك ؟ وكيف ينبض القلم في يدك هذه النبضات الحية المتمثلة حتى ما يخالجنني شك في أنه لو وضع على كتابك ميزان الحرارة لجاءت درجته في حرارة قلب .

* * *

أتجهلين ؟... يا بعد ذلك !

أتعرفين ؟... يا حب ذلك !

(١) يعرف القارئ من (رسائل الأحزان) أن صاحبة هذه الرسائل سورية .

(٢) كأن الحب إحساس في الروح بشعاع أزلي ، ولكن هذا الشعاع ملطف في وجه جميل ومعان جميلة ، ولولا ذلك لأهلك وانفجر به القلب من ساعته ، وفي قصة موسى عليه السلام : « قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فسوف تراني ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاء وخرَّ موسى صعقاً » .

إنما تأتي رسائلي أيتها العزيزة من تحول الكهرباء التي في قلبي إلى
ألفاظ ، إذ يدفعها الشوق أن تكون عملاً مني بعد أن كانت عملاً منك
وهي كالنور ، لا يرى حتى يلبس ما يرى فيه ، فتلبس الكهرباء
ألفاظي وتترأى .

وإنما تأتي المعاني التي أبدعها فيك من تلك العواطف التي تخلقها
أنت في ، وكما لا ينطق فم الإنسان من شفة واحدة : فكذلك لا بد
للحب من اثنين ليتكلم فم الحقيقة بكلام الحب !

وما أكتب لك حرفاً حتى أراك قبل في مرآة نفسي ، وأتمثلني في
مرآة نفسك ، ثم أضع بيننا مرآة اللغة فتعكس مني ومنك أجزاء
وصوراً تكون هي كلماتي .

ولو رأيته وأنا أتلو رسائلك ؛ لرأيت أنك لا تكتبين لي كلاماً ،
بل تزرعين في الورق زهر أنفاسك فيأتيني فأقرؤه . أي أقطفه ...
وبهذه الطريقة أكتب كلماتي ، أي أزرع تنهداتي يا حبيبتي .

والخائف من شيء يرى لاسمه بعض عمله من تأثير الخوف على
أعصابه ، فاسم الثعبان عند من لدغ مرة هو لفظ كالإبرة يمس مكان
اللدغة ؛ كلمة الذئب تعض ... وكلمات الحب يا حبيبتي تتألم .

* * *

لست أشعل ألفاظي ولا ينبض القلم في يدي نبضات حية ، ولكن
هذا وذلك غليان دمي على أربع نيران، هي خيالي، وغرامي، والفكر
الناري الذي هو أنت والجمال الذي أحمي على شبابك حتى بلغ درجة
الاحمرار في خديك وشفتيك !

هو الوجد ، ذلك الوجد الذي يوحى لكل عاشق بأنه إن امتنع
على الفم أن يلقي في القبلة أنفاسه الحرى على وجه الحبيب ، فليقابل
وجهه بالفاظه الحارة في رسالة ...

هو الجمال ، ذلك الجمال الذي يريد التعبير عن نفسه تعبيراً صادقاً
حياً ، فيتخذ العاشق حياة فكر مثقلة بالآلام وتباريح الصبابة والشعر
والخيال عالياً عالياً إلى الحكمة ، أو نازلاً نازلاً إلى الرذيلة ، أو هالكا
هالكا إلى الجنون !

* * *

إنما أضرب على أوتار نفسك ألمها بأفكاري ونظراتي وأشواقى ،
وبافراح المعرفة الغرامية وآلامها ، وأخرج من ذلك أنعام حيي التي
هي رسائلي !

وإذا كنت أنا المتكلم فمعنى ذلك أنك أنت المتكلمة بي ، وفنك
يا موسيقى الجمال هو في تركيبك الجميل وانطوائك به على أسرارك ،
ولكن فني إنما هو في لمساتي عنفاً ورقة^(١) ، وكلما في كالآزهار تخلق فيها
مادة ألوانها وأعطارها وديباجها ، لأن أرواح أغراسها تنسكب فيها ،
وحين يلقي الشعاع كلمته الغرامية في قلب كل شجرة من ذوات الزهر ،
تفكر الشجرة مدة ثم تزهر وتتفتح ، أي تجيب بأسلوب نسائي في
ظرف ورقة ولون وعطر وحرير وتبرج .

ولست أشك أن الجمال في هذا الوجود مظهر مؤنث ، حتى إن

(١) الحبيبة كأداة من أدوات الموسيقى ، ففنها في تركيبها الخاص ولكن فن العازف في
لمساته إيها ورقة وعنفاً وما بينها .

معرفة الأسد^(١) لتظهر كشعر امرأة ... ومن ذلك ما تبدو الأشياء الجميلة في خيال العاشق المتدله كأنما في كل نظرة أنثى ... أنثى جعلت قلبها نحوه^(٢).

إن لم تغلبي على الكون يا حبيبتى فقد غلبت على نظرتي إليه ! فكل جمال في الكون هو رسالة منك إلي ، وبذلك أصبحت للعالم خلقة أخرى في مخيلتي ، عليها أترك الغرامي ، وكأنما نحن عنصران منبثان في كل ما حولنا فما نس شيئاً أو ننظر شيئاً إلا وضعنا فيه روحانية القلب .

ولن يكون الحب عشقاً ما لم يرتفع بالنفس عن ذاتها ، ولا تسمو النفس عن ذاتها ما لم يعمل نظرها إلى الأشياء ، والنظر الإنساني لا يعمل بشيء إلا إذا ألبسه معناه الإلهي .

* * *

أ يكون الحب تنقيحاً في معاني الكون بالنفس وخيالاتها ، أم في معاني النفس بالكون وحقائقه ، أم كليهما ؟

أم إني لأستروح أنفاسك وقد ناستمني كروحة الفجر عذبة باردة فما تريدني إلا ضراماً ، كأنما تهب مني على جرة ذاكية . ولا يكون الشعور بالحب نارياً ما لم يكن الحب نفسه مزجاً للنفس العاشقة بالكهربائية السارية في الكون ، المألثة لنواحيه وأطرافه ، النابضة بكل ما فيه .

(١) شعر رأسه .

(٢) أي مالت إليه بقلبها وأقبلت عليه .

وإذا كان هو الشأن فالوجود مقفل حتى تفتحه للرجل امرأة
ويفتحه للمرأة رجل ، ولا تزال معاني جماله في قناعها ، وزخارف
حلاه في أستارها ، كمتاع القصر من وراء باب القصر المقفل على ما فيه ،
حتى يدور في قفل الكون مفتاح الحب .

النهار يفتح بالشمس ، والليل يفتح بالكواكب ، أما الحب فلم
يفتح إلا بوجهك يا حبيبتى .

والشمس والكواكب نار ؛ ولكنها على الدنيا نور ، أما وجهك
فنور ، ولكنه على قلبي نار !

أتجهلين ... ؟

أتعرفين ... ؟

* * *

المتوحشة ... ١

« وكان يوماً في مجلسها فامتد بينها كلام قالت له في آخره : أنت (متوحش !) وقال لها : وأنت (متوحشة !) ، فلما ندر من مجلسها ذهب فكتب إليها هذه الرسالة » :

ماذا أقول في (متوحشتي) الجميلة : وما ظهرت منها على عيب أعيبها به إلا رأيته عند نفسي شكلاً جديداً من أشكال جمالها ، أو فناً بدعاً فيما حنيت عليه ضلوعي من هواها ، إذ ليس بيني وبينها حدود تجعل منها ألفاظ النقد حدوداً لمعانيها ، بل كل ما فيها من أشياء قلبي ولو قالت لي : « أكرهك » لما وقفت الكلمة عند هذا الحد ، لأنها من أشياء قلبي ، فيكون معناها : أكرهك لأنني مكرهة أن أحبك ، أكرهك لأنك أخضعتني وجعلتني مكرهة أن أحبك ، أكرهك لأن كلمة « أكرهك » هي التي أظن أنها تخفي أمام نفسك تواضعي لك في نفسي !

* * *

ووالله خالقت الجنة والنار ، لو كان في سواء الجحيم^(١) غرفة من الجنة بنعيمها وزينتها ، أو كان في سرارة الجنة^(٢) قاع من جهنم بعذابه

(١) في وسط الجحيم .

(٢) سرارة المكان : وسطه .

وآلامه - لكنا معاً أشبه بما أجد منك ، فإن حبك لذة من لذات الجنة ، ولكنه يتضرم فتوناً على قلبي . وإن الشوق إليك عذاب كالنار ولكنه ينفذ من الأمل على روحي : مثل الطل والندى .

إلا أنه ليس في الحب نصف حب أبداً ، فليس في الحبيب أبداً إلا كل الجمال ، فليس معاني الجميل إلا أنها كلها جميلة .

والوجه الذي نعشقه هو من كل ما خلق الله الوجه الموسيقي الذي لا ينسجم غيره ولا يتطابق مع فن الروح في عاشقه : فإن أطرب أو أشجى^(١) فبلذة أشجى وبلذة أطرب .

وإن لمست يد الحبيب بأناملها لمسة حب، فهي يد الحبيب أفلا تكون هي بعينها يد الحبيب . إن قرصت بأظافرها قرصة حب ...؟

* * *

قلت أيتها الحبيبة إني (متوحش) فإني كذلك : وإني لمتسعر الدم من حبك بفضاعة تجعله كأنه دم وحش فائر تتنزي به نوازيه للوثبة ، ولن يكون الحب القوي إلا متوحشاً لأنه ثورة قذفت في الدم الإنساني فيرتج فيه تاريخ القتال الوحشي الذي ينام في دمننا من إرث أجدادنا ، فإذا معركة مرسومة لامتلاك الحبيب لم يصنع فيها العاشق أكثر مما يصنع القائد إذا نشر خريطة حرب كانت عنده مطوية .

ومن العجب أن هذا الوحش النائم في الدم لا ينبهه إلا أجفى المعاني

(١) الشجى : خاص بالنغم المحزن ، لا كما يستعمله الناس من قولهم : الأنغام المشجية وم يريدون المطربة .

وأغلظها في سورة الغضب وجنون الغيظ ، أو ألطف المعاني وأرقها في جمال الحب وخلاعة الجمال .

فالعاشق الرقيق على فرط رفته ، هو لفرط رفته وحش في عاطفة الحب : ما منه فكر لو فتش إلا فتش عن معنى يفترس إذ يشعر بالحياة في نفسه لا غذاء لها إلا بمعاني حبيبته ، فيأكلها حتى بالنظر ويفترسها حتى بالخاطر !

ولو أننا تمثلنا أسداً غرثان يطوي البر أياماً وهو يهفو على أثر خيال من أخيلة جوفه ولكنه لا يجد الفريسة ، حتى إذا انصفق جنبه على جنبه الآخر من الجوع فتقت له الهواء رائحة ظبية من قريب ثم تمثلنا مع هذه الصورة عاشقاً مجفوأ نالته نسمة من قبل حبيبته أو نفحته رويحة من عطرها ثم ترجنا ما أفز الأسد من معاني الظبية إلى ترجمة إنسانية ، لكانت وحشية الليث في هذه الحالة هي بصورتها لهفة العاشق ولوعته ، إلا أن ذلك معنى في وحش وهذا معنى في إنسان .

ويخيل إليّ أن محباً لو قبل حبيبته بتلك اللهفة، أي بتلك الوحشية، لجاز لها أن تتهمه قانوناً بتهمة الشروع في أكلها^(١) .

وقلت لك : أنت (متوحشة) ، وإنك لعلی ذلك ، فإن جمالك لهو أرق الوحشية وأدقها وأخفاها ، ولا برهان لي عليك إلا أنك دائماً تساوريني في قلبي مساورة ظهرت في قلبي جراحاتها ... وعلى كبدي

(١) في القانون : تهمة الشروع في القتل ، وهي التي ولدت لنا هذه التهمة الظرفية .

منها الصواعد^(١) .

ولك صولة على وحشية وأنت بها غالبة أبداً ، حتى لا أستطيع
في مغالبتك أكثر من أن أجعل خضوعي أحياناً في صورة مقاومة...!
والحياة تدل بالوحش على أنها آكلة هاجمة مصممة غير رحيمة وأنها
الشدة تحت مس لين ، وأنها القوة الغازية معبأة في إهاب ، وأنها أسلحة
قاطعة من اللحم والدم ، فياليت شعري عنك ، هل دلت الحياة بجمالك
الفتان إلا على رقة قاتلة ، ولين مهلك ، ولطف معذب ، ومعان كالأسلحة
في لحمي ودمي ؟

لا أثبت لك حيي إلا لتثبتني لي كبرياءك ، ولا تقوم هذه الكبرياء
ولا تثبت إلا بتعذيبي ، والأساليب التي تخفين وراءها حبك بطبيعة
الاحتراس الغريزية فيك ، هي بعينها التي تعذبني بطبيعة الجراءة التي
فيّ . وما قالت امرأة مثلك عن تهواه : إني أحبه ! إلا وكأنها قالت :
إني أعذبه !

ولقد تركتني وما أظفر منك بساعة رضا إلا رأيت في يدي معجزة
وكأنني أمسكت من الزمن ساعة كانت هاربة في الأبدية !
يا حرة قلبي منك^(٢) ! ويا رحمتاه لكل من عشقوا .

إن الحبيبة على أنها سرور محبها وليس له عنها مذهب إلى متاع أو
لذة في كل ما وسعت الدنيا ، فإن سرورها هي بالحب لا يهنئها إلا أن
تراه بها معذباً ولها صباً وفيها مدلهأ^(٣) وقد أحرقة الوجد وأضناه

(١) أي ما يصدعها ويفطرها من آلام الحب .

(٢) الحرة : العذاب الموجه .

(٣) التدليه : ذهاب العقل من الهوى .

التي^(١) وأهلكه حزن الهوى ، إذ لا تكون عند نفسها معذبتة إلا من أنها حبيبته، ولا تثبت لنفسها القدرة عليه إلا بمحق المقاومة فيه ولا تتم كبرياء أنوثتها إلا بتام الدل عليه ولا يتأله فيها الجمال يعذب ويثيب إلا بتحقيق العبودية فيه تخاف وتطمع ، فتبدع ما تبدع في إيلامه وتعذيبه ولو تتابعت له بالسوء لأن ذلك هو عمل كبريائها وسرورها .

وقد تعذبه في بعض دلالها أشد العذاب وهي تحبه حباً ليس عليه صبر ، كما كانت تفعل لو أنها كانت تبغضه بغضاً ليس فيه مبالاة وبذلك تجمع عليه الشبهة والحقيقة ، وما أمر عذاب من وجد الضروري له مستحيلاً عليه .

فأوجاع الحب وأحزانه كالآلام الفريسة وأوجاعها ، كلاهما باللغة السلبية في الحبيبة والمفترس : وصف كامل لسطوة وحش ...

وإنني لأحسب طبيعة الفرار التي ركبت في المرأة^(٢) قد خلقت فيك أنت على الضعف ، حتى لأراك دائماً كالهاربة عني وإن كنت إلى جانبي ، وحتى إن معاني كلماتك في الحب لتفر من كلماتك ، وكأنك تحترسين بغريزة وحشية باللغة في وحشيتها^(٣) .

(١) نامته وتيمته إذا استعبدته بهواها .

(٢) هذه الطبيعة من كونها أنثى، أي محل المهاجمة ، ولذا فلا أسمع في الدنيا من انعكاس هذه الطبيعة في المرأة وانقلابها هي مهاجمة للرجل .

(٣) من أسلحة الوحش غريزة الاحتراس فيه، وكذلك هي من أسلحة المرأة والتي تعرف كيف ينبغي أن يكون الحب ، تشحذ هذا السلاح وتجعله ذا حدين وتضاعف احتراسها ، أو كما قالت حبيبة هذه الرسائل في بعض رسائلها التي لم ننشرها « تنشي في كل خطواتها بالمقادير والمقاييس » فتأمل ...

وإن حقيقتك لا تزال وراء آلاف وآلاف من ظنوني ، كأنما لها
هي أيضاً معنى اختباء الوحش في ألفاف الغابة وأشجارها فإذا أنت
رضيت فأيسر ما توصفين به أنك جذابة إلى حد فظيع في التأثير ، بل
متوحشة في الجاذبية والسحر والفتنة .

وإذا أنت هجرت فأحق الكلام الذي توصفين به أنك في الهجر
بلا رحمة ولا شفقه ، متوحشة ... متوحشة ...!

* * *

أما قبل

« كتبها إليها بعد أول مجلس كان لهما يصف ذلك المجلس » :

لم يقولوا في لغتنا (أما قبل) كما أقول أنا يا حبيبتى ، ولم تخطر لأحد قط ولا يصححها وجه ولا تعليل ، ولكنني أضعها من أجلك ، وما أشك أنها ستكون عبارة معشوقة من أثرك وأثر الحب عليها : وأقولها لك ولا أرتاب في أن ألسنة المحبين سترمي بها في كل زمن مراميتها عند كل حبيبة ...

إنها كلمة حنانة ، فيها الحب والذكرى ، وفيها من نفسي ومن اللغة ومنك وهي غريبة باللغة الغرابة لأنني صنعتها صنعة قلب لا صنعة لسان ، ففيها الفن أي سر الحسن ، أي حروف التصوير ، أي المجلس الذي كان لنا أمس .

ويد المصور الملهم الحاذق لا تمر على الصورة بمحركات الرسم وخطوطه ، بل بمحركات الفكر والقلب ، ورعشات اللذة والألم ، مستفيضة بالوحي الذي من لغته الخطوط والأبعاد والظلال والألوان . فما الرسم إلا الوجه الممكن لاتصال الإنساني من الفكر بالإلهي في الأشياء لخلقها مرة ثانية . وكذلك ليست (أما قبل) إلا الوجه الممكن عندي

لاتصالي بأمس ، وانتقال قطعة كانت من وجودنا في وقت إلى وجودنا في كل وقت وخلق ما كان من قبل خلقاً تصويرياً في كلمة .

قالوا (أما بعد) وسموها فصل الخطاب^(١) وأنا أقول (أما قبل) وأسميها وصل الماضي ؛ وبها نجعل لما فاتنا مما نجه أو نؤثره لساناً ، ونعيد اليه الصوت ، ونفتح له باب الساعة التي نكون فيها ، ونخترع للمحبين لفظاً سحرياً لم تستطع حواء بجنة خلد أن توحيه لآدم، وأوحيته أنت لي بمجلس حبك في لحظة !

* * *

« وأما قبل » ... فماذا أصف مكاناً للحب كأنما مر به سر الخلود فإذا الوقت فيه لا يشبه تقصاناً من العمر بل زيادة عليه ، وكانت

(١) للعلاء كلام كثير في معنى (أما بعد) ، وإعرابها وتوجيهها يبلغ من التحذلق أحياناً أن يكون مضحكاً . و (أما) عند بعضهم اسم ، وعند بعضهم حرف ، وإذا قيل (وبعد) قالوا و ، عند بعضهم نائبة عن (أما) وهو المشهور ، وعند بعضهم للاستئناف ، وعند آخرين للعطف و (أما) في (أما بعد) حرف تفصيل ولكنها في (أما قبل) حرف توصيل ولا يجوز عندنا أن تستعمل (أما قبل) إلا في الحب أو البغض ، فهي خاصة بالفتات النفس للذة أو ألم كما لا يجوز عندنا أن يقال منها (وقبل) كما قالوا (وبعد) لأنها حينئذ لا تكون كلمة مخترعة ، ولا تدل على أكثر من الظرفية ، وإنما الاختراع وتقام الإشارة وتقام الظرف ، في التركيب الذي وضعناه ، فلنذكر كذلك في اللغة ، وليكن وضعاً جديداً من أوضاعها لخصوص ما يجب ويكره دون غيرها ، ويجوز أن تقول (أما قبلاً) بالنصب والتنوين ، و (أما قبل) بالرفع والتنوين ، قياساً على ما أجازته القراء في : أما بعد ، ولكن ذلك في كلمتنا يكون ظريفاً الى غاية الظرف بين الحبيبين .

وقال سيبويه في (أما بعد) : إن معناها (مها يكن من شيء) ونقول نحن في (أما قبل) إن معناها (لقد كان ما كان ...) .

واختلفوا في أول من قال : أما بعد ، فقيل إنه كعب بن لؤي ، وقيل بل قس بن ساعدة الخطيب ، وهو الأقرب . ولا اختلاف في أول من قال : أما قبل .

يا حبيبتى كل دقيقة وثانيتها في مجلسك الساحر كأنما بعض الفكر والحس
لا بعض الزمان والمكان ؟

بماذا أصف الوقت الغض الذي كان ينبت لساعته رطباً ندياً كأنما
انبتق من قبلتين ، لأنه مر بهواء حجرتك التي أنت فيها ، ثم جعلني
أعرف بعد أن فارقتك ولقيت الناس أن الزمن قد يكون من جذبه في
أنفاس الناس خطباً يابساً وهشيماً ؟

وبماذا أصف ما لا يوصف ولا يوجد بيبانه في اللسان مع انه حي
قائم في العين والضمير : إذا شعر بك في ذلك المجلس وكان أكثر
معانيك الإنسانية تتهارب من حوله لتسبغ عليك من اللطف معاني
ملائكية سامية تتكلم بوجهك كلاماً هو شعر الحب ؟

وإذا شعر من شدة ما وجدت بك ووطأة حبك على قلبي انه
لو حل في كرسيك شخص من معانيك لما كان إلا ملكاً موترأ في إحدى
يديه قوساً منحنية من صاعقة وفي يده الاخرى سنان يمور كالشعلة، وهو
يرمي ويطعن وما يرمي ويطعن إلا لحظاً وابتساماً ؟

بل بماذا أصف ما لا يوصف إذا أردت بلاغتي أن تكون على مقدارك
وأنت تلجين على قلبي من كل جوارحي ، وأراك أمام عيني تحولاً
مستمراً في خواطري ومعاني ، فلا أملك أن أفكر في شيء ثابت، كان
دلالك قد سلبني حتى قوة التحديد ، ويأتي لك أن يخضع لي منك شيء
ولو بالمعنى للفظ في الذاكرة ؟

* * *

« وأما قبل ، ... فلقد كنت وما أحسن منك في جملة ما أرى إلا أن الجمال الرائع في معانيه الإنسانية إنما هو قدرة في بعض النساء على اختراع أمثلة أرضية من الجنة .

وكنت وما أشعر من سحرك إلا أنني بإزاء سر وضعني في ساعة من غير الدنيا وحصرني فيك وحدك ، حتى ليس لك من نظرة ولا كلمة ولا حركة إلا خيل لي أنها لم تكن في امرأة من قبل حتى ولا فيك أنت ، وشقي بعد ذلك فرق بينهما فيك وفي كل امرأة ، إذ لا تواسمك في الحسن امرأة !

وهاجمتني من يقظتي واقتحمت عليّ من حذري وتركت بعض أفكار من بعض كالجروح يمشي على المقتول في معركة ، ورمتني بما لا أجد له اسماً إلا أنه زلزال روحي عنيف كان في قلبي أو كان يداً امتدت الى قلبي فنالته فضغطته !

وخليتني وعينيك ، وخليتني وما كتب علي .

وضاعفتك رهبتك في نفسي فكثرت وكثرت ، وضاعفتني أيضاً فزدت وزدت ، حتى إن مع كل قوة في عادت فكرة حبك قوة أخرى . واتسعت روحي لتشملك ! فما كنت تتكلمين ولا تضحكين ولا تخطررين في غرفتك ولكن في داخل نفسي !

وكان نور الكهرباء وهو يشع في وجهك يغمم أيضاً بكلمات من النور لتلك الشعلة التي اضطربت في قلبي .

* * *

وملات حياتي بك وعرفتني من ذلك اني كنت من قبل حياً من
الأحياء الفارغة ...

وأشعرتني أجمل السعادة ، سعادة نسيان الوقت ، كاني في هنيهة
خلقت لي وحدي تجري بي وبك فوق المقادير .

ثم دفعت بي الى ما وراء السعادة ، الى منطقة الأحلام التي لا يكاد
يصدق الإنسان فيها أن الحقيقي حقيقي !

ثم رفعتني إلى حس خالق ، فإذا أنا أرى كيف تخلقين في خلق
معانيك لتعود معانيك فتخلقك كما أحب وأهوى^(١) وتحقق بجمالك فن
عواطفي وتنشئ بعواطفي غرامي .

* * *

« وأما قبل » فقد كنت موجودة معي ولكنك ضائعة في^٢ ، إذ كنا
من وراء الشكل الإنساني كالعطر والنسمة الطائفة به .

وكنت أمامي ولكنني أحتويك ، وما أدري كيف كنت مملوءاً بك
وأنت أمامي ؟

وكنا نتكلم ولكن ألفاظنا تتعانق أمامنا ويلثم بعضها بعضاً من
حيث لا تراها إلا عيناوي وعيناك .

(١) أي تطابق معانيها صور الفن الكامنة في مزاجه وروحه ، فتنبه فيه هذه الصور ،
فكأنها خلقتها ، ثم تعود الصور فتزبن الحبيبة في خياله بأهوائه في الحقيقة لا يجهلها ، ولذلك
قال شاعرنا (صاحب الرسائل) لحبيبتيه يوماً في رسالة لم تنشرها : ما أذلتني بأنك كما أنت ،
بل بأنك كما أنتهي .

و كنت أقطف الحياة بالتنسم من هواء شفتيك، وكأن هذه الأنفاس
هي فرع ممدود من شعاع الشمس في روعي .
وتراءت النفسان فملأنا المكان بأفراح الفكر ، واستفاض السرور
على جمالك بمعنى كلون الزهرة النضرة ، هو عطرها للنظر .
وقلت لي يجملتك : أنا ... ، وقلت لك يجملتي وأنا ... !

* * *

« وأما قبل » ... فقد رأيت عندك الفجر وأخذت منه نهارة
أحمله في روعي لا يظلم أبداً .
وخالطت عندك الربيع وانتزعت منه حديقة خالدة النضرة في
نفسي لا تدبل أبداً !
وجالست عندك الشباب وترك في قلبي من لحظاته ما لا يهرم أبداً !
 واجتمعت عندك بالحب وكشف لي عن مخلوقات الكون الشعري الذي
تملؤه ذاتي فلا ينقص أبداً !
ورأيتك يا فجري، وربيعي وشبابي، وحيي فلن أنساك أبداً ... !
و « أما قبل ... » .

* * *

جواب غريب

حدثنا الصديق قال : لما بعثت إليها برسالة (أما قبل) لم يكن جوابها غير أن أهدت إليّ كتاباً مطبوعاً ولم تزد على أن كتبت على غلافه هذه الكلمة « أما بعد فأليك يا صديق جواب : أما قبل ، والسلام ! »^(١) .

قال صاحبنا : فقرأت الكتاب سطوره وبين سطوره ... وأعنت نفسي في تاويل كل عبارة وتعرف سببها الذي أتخيله ، وتبين موقعها الذي أتمثله ، وجعلت أتوجه بالكلام مستقيماً تارة وملتوياً ثم لا أجد الكلمة التي هي من جوارحي ، ولا التي يقف عندها قلبي ، ولا التي تقول لي أنا من لغتها ، ولا الأخرى التي عليها أثر عينيها ... وكنت في كل ذلك أرى الكتاب كأنه بين يدي يموت ويحيا من كثرة ما أقول: ليست هذه بل هذه ، ولكن هذه .. وجعلت لا أكاد آنس بكلمة حتى أجد الوحشة في التي إلى جانبها ، وقدرت ان الجواب ربما كان جملة قصيرة أو كلمة مفردة ، فصعدني ذلك تصديعاً ذا فنون وكان مؤلفة الكتب كانت تعلم من علم الغيب انها ستضرب بكتابتها يوماً هذه الضربات على قلب إنسان من الناس ، فكانت في تأليف كلامها تصد وتعرض ،

(١) قلت : هو كتاب (ظلمات وأشعة) ، وفي كتابنا (حياة الرافعي) زيادة بيان .

وفي ترتيب مقالاتها كانها ترتيب ثورة غيظ من سببها إلى احتياجها
نشأتها إلى عنفوانها .

قال الصديق: ثم كاني كنت دائماً في ليل طويل وطلعت على وجهي
الشمس ضاحية ، فإذا أنا كنت أجتهد في غير طائل ، وإذا الجواب في
آخر الكتاب صفحات متلاحقة ، فضلاً عن صفحة ، فضلاً عن جملة ،
فضلاً عن كلمة ؛ فكان هذا من ظرفها ومكرها معاً ، انتهى .
وهذا نص الجواب ^(١) :

لقد التقينا وسط جماعات المتفقيين فيما بينهم للضحك من سوام
حيناً والضحك بعضهم من بعض أحياناً .

أنا منهم وإياك غير أن شبهك بهم يسوؤني ، لأنني إنما أقلدهم لأريك
وجهاً مني جديداً ؛ وأنت ، أتعارهم بمثل قصدي أم الهزؤ والاستخفاف
فيك طوية وسجية ؟

ولكن رغم انقباضي للنكتة منك والظرف ؛ ورغم امتعاضي للتغافل
منك والخبور ، أراني وإياك على تفاهم صامت مستديم يتخلله تفاهم آخر
يظهر في لحظات الكتمان والعبوس والتأثر .

بنظرك النافذ الهادئ تذوقت غبطة من له عين ترقبه وتهتم به ،
فصرت ما ذكرت إلا ارتدت نفسي بثوب فضفاض من الصلاح والنبيل
والكرم ، متمنية أن أنثر الخير والسعادة على جميع الخلائق .

* * *

(١) لا تحسب هذه الرسالة من كتابتنا لأنها اقتباس ، ولولا السبب الظريف الذي
جاءت به لاطرحناها ، على أن معانيها من أحسن ما تكتبه امرأة !

لي بك ثقة موثقة ، وقلبي الفتيّ يفيض دموعاً : سأفزع الى رحمتك
عند إخفاق الأمانى ، وأبشك شكوى أحزاني ، أنا التي تراني طروبة
طيارة وأحصي لك الأثقال التي قوست كتفي وحتت رأسي منذ فجر
أيامي أنا أسير مخوفة بجناحين متوجة بأكاليل !

وسأدعوك أبي وأمي ، متهبية فيك سطوة الكبير وتأثير الأمر
وسأدعوك قومي وعشيرتي ، أنا التي أعلم أن هؤلاء ليسوا دوماً بالمحبين
وسأدعوك أخي وصديقي ، أنا التي لا أخ لي ولا صديق ، وسأطلعك
على ضعفي ، واحتياجي إلى المعونة ، أنا التي تتخيل في قوة الأبطال
ومناعة الصناديد !

وسأبين لك افتقاري إلى العطف والحنان ، ثم أبكي أمامك وأنت
لا تدري وسأطلب منك الرأي والنصيحة عند ارتباك فكري واشتباك
السبل ، وإذ أسيء التصرف وأرتكب ذنباً ، سأسير إليك متواضعة
واجفة في انتظار التعنيف والعقوبة ، وقد أتعمد الخطأ لأفوز بسخطك
علي فأتوب على يدك وأمثل لأمرك !... وسأصلح تحت رقابتك
المعنوية مقدمة لك عن أعمالي حساباً لأحصل التحييد منك أو الاستنكار
فأسعد في الحالين ، سأوقفك على حقيقة ما ينسب إلي من آثام فتكون
لي وحدك الحكم المنصف .

وما يحسبه الناس لي فضلاً وحسنات فسأبسطه أمامك فتنبهني إلى
الغلط فيه والسهو والنقصان .

ستقومني وتسامحني وتشجعني وتحتقر المتحاملين والمتطاولين لأنك
تقرأ الحقيقة منقوشة على لوح جناني : كما أكذب أنا وشاية منافسيك

وهتان حاسديك ، ولا أصدق سوى نظرتي فيك وهي أبر شاهد . كل ذلك وأنت لا تعلم^(١) .

* * *

سأستعيد ذكرك متكلماً في خلوتي ، لأسمع منك حكاية غمومك وأطماعك وآمالك ، حكاية البشر المجمة في فرد واحد ، وسأسمع إلى جميع الأصوات عليّ أعر فيها على لهجة صوتك ، وأشرح جميع الأفكار وأمتدح الصائب من الآراء ليتعاضم تقديري لآرائك وأفكاري وسأبتين في جميع الوجوه صور التعبير والمعنى لأعلم كم هي شاحبة تافهة لأنها ليست صورة تعبيرك ومعناك ، وسأبتسم في المرأة ابتسامتك في حضورك ، وسأتحول عنك إلى نفسي لأفكر فيك، وفي غيابك سأتحول عن الآخرين إليك لأفكر فيك !

سأتصورك عليلاً لأشفيك، مصاباً لأعزيك، مطروداً مرذولاً لأكون لك وطناً وأهل وطن ، سجيناً لأشهدك بأي تهور يجازف الإخلاص ، ثم أبصرك متوقفاً فريداً لأفاخر بك وأركن إليك .

وأتحيل ألف مرة كيف أنت تطرب، وكيف تشناق، وكيف تحزن ، وكيف تتغلب على عادي الانفعال برزانة وشهامة لتستسلم ببسالة وحرارة إلى الانفعال النبيل ؟ وسأتحيل ألف مرة إلى أي درجة تستطيع أنت أن تقسو ، وإلى أي درجة تستطيع أنت أن ترفق ، لأعرف إلى أي درجة تستطيع أنت أن تحب !

(١) في هذا الأسلوب تظهر الروح النسائية الحية الكاملة ، إذ تعتبر الحبيب وجودها كله كما ترى ، ونزبه القارىء إلى أننا لم ننس أنفاظ هذه الرسالة .

وفي أعماق نفسي يتصاعد الشكر لك بخوراً ، لأنك أوحيت إلي ما
عجز دونه الآخرون .

أتعلم ذلك ، أنت الذي لا تعلم ؟ أتعلم ذلك ، أنت الذي لا أريد أن
تعلم ...؟

* * *

هناك في تلك الزاوية الضائقة ، حيث أقام القدر من دواهيهِ على
صدري جدران الحديد ومعازل الرصاص، وهنالك قرب حلول الشفق،
برزت فجأة أمامي ، وأخذت تتكلم عن معانٍ اختفت طي المعاني ؛
وأشياء توارت في الأشياء ، وممكنات حُجبت في المستحيلات .. وكانت
يدك تتحرك مريثة متأنية فبدت الإشارات سحرية ساهية، كأنما هي
انعكاس إشارات خفية على المرايا المتبحرة في مهجور القصور ، وضاء
الجو حولي بلألاء الشرف والأبهة والسؤدد ، ومشى نظرك تَوّاً إليّ
يكشف في جديد العوالم !

نظرت فعلمتني إعزاز الوجود، وأدركت أنني ما تخيلت أجلي عند
حينه إلا لأتشدّد وأتحفز لوثة كبيرة ، كما يتنفس المتسابقون منتعشين
متجددين قبيل خطير الأشواط .

فارتدت الحوائط قليلاً قليلاً، وتنحت الحصون مسفرة عن المروج
والرياض ، واتشحت الكائنات بنقاب وسيم لا تنسجه سوى يد الوجود
على زعيم المتيمين ! ولكن ، أنى جاء الوجد ؟

أنت لم تكن تهتم بي وأنا لم أكن أهتم بك، ولكن علام تشل أوصال
روحي للذنو من مكان حللته ؟

وعلام اضطرارك وارتعاش يديك إذ تلمح خيالي عن بعد ؟

أنت لم تكن تنظر إلي ، وأنا لم أكن أنظر إليك ، ولكن لماذا
كانت تتبلبل خواطري وأهرب عند قدومك ؟

وأنت إن لم تستطع السكوت فلماذا يخرج صوتك متقطعاً متهدجاً
كأنك تجاهد لتقهر تأثراً ما ؟

أنت لم تكن تعباً بوجودي . وأنا لم أكن أعباً بوجودك.. ولكن لماذا
كنت أخاشنك متعملة الإعراض وعدم الانتباه ؟ لماذا وأنت مثال
الوداعة والتهديب، كنت تكفر لحضوري وتنقبض كمن يود أن يتجنى
علي أو كمن يخشى أن يرمى بالبشاشة والمجاملة ، ثم يعود نظرك في المرة
التالية يستصفحي عن زلته ؟ أنا التي كنت أغتفر لك وأتناسى قبل أن
تحدث نفسك بالاستغفار !

أنت لم تكن تفكر فيَّ ، وأنا لم أكن أفكر فيك ، ولكن لماذا كنت
أحيد عن طريقك لئلا ألتقي بك ، وأنا التي أود أن أبحث عنك في كل
مكان ؟ ولماذا كنت تتقن خطواتك إذ تعلم أنني أراقبها ؟ وتنغم نبرات
صوتك وتنوعها إذ تعلم أنها واصله إلي ؟

أنت لم تكن لي شيئاً ، وأنا لم أكن لك شيئاً ، ولكن وجوه القائمين
حولك كنت أراها متألقة بنورك ، وأنت كانت تدهشك كل حركة
مني كأنها لم يأتها قبلي إنسان !

أنت لم تكن لي شيئاً ، وأنا لم أكن لك شيئاً ، ولكن أليس أن
إرادتك حلقت فوق خواطري كيد أمرة ، فتقت لأجلها إلى الطاعة

والخضوع ؟ أو ليس أنك كنت تحاول إرضائي وإثارة إعجابي حتى
ارتفعت بذلك فوق ذاتك المألوفة فتجليت بهياً عظيماً ؟

من أنت ؟.. وماذا كنت ؟. أكنت وحيّاً من فيض شاعريتي المكتظة،
وطيفاً من أطياف شوقي وعذابي ؟. أم أنت حقيقة محسوسة مرت في
أفق حياتي مرور السفن في البحر إلى الشواطئ النائية ؟..

لقد كنت وحيّاً من فيض شاعريتي المكتظة ، وكنت طيفاً من
أطياف شوقي وعذابي، أنت حقيقة محسوسة مرت في أفق حياتي مرور
السفن في البحر إلى الشواطئ النائية .

يا مهذبي !..

* * *

كذب مصور

يا حبيباً إذا حننت إليه حن في رقتي عليه حنيني^(١)
أنت شخصان في الفؤاد. فشخص عند ظني ، وآخر في يقيني
واحد كيف شئت أنت ، وثنان كيفما شئت أنا وظنوني
لا بهذا رحمتي أو بهذا بل بعقلي عذبتني وجنوني !

* * *

أمل فيك كالخيال على المرآة كذب مصور للعيون

* * *

(١) أي لحنينه في الرقة والوجد حنين أيضاً ، كأنه صوت عليه معاني البكاء .

لماذا .. لماذا ؟

وكتب إليها :^(١)

قرأت كتابك وهو أسطر قليلة، ولكنها إما ساحرة أو مسحورة .
فلقد خيل إلي أنها تنتهي ، إذ كنت فيها كاني أطارد معنى فاراً
مدعوراً لا تمسكه الألفاظ فلا يبرح فوق السطور ، إذا بلغ آخرها
وثب إلى أولها فإذا كان في أولها عاد إلى آخرها، دواليك بدءاً وعوداً^(٢)
ويتلجلج مثل ذلك في صدري فلا ينتهي حتى ينتهي عنه .

تقولين يا حبيبتي : أي شيء عندك هو جديد في ؟ ولماذا لا تراني
رؤيتك غيري ؟ وكيف بعدت في نظرك المسافة بين وجه امرأة ووجه
امرأة أخرى ؟ وهل في وجوه النساء طريق متشعبة تذهب برجل يميناً
وتلتوي بغيره شمالاً ، وتتوافى إلى غاية وتتفرق عن غاية ؟ ثم ما الذي
جعلني عندك لغزاً لا تفسير له ، وجعل النساء من دوني واضحات
مفسرات كالألفاظ الحياة الجارية في العادة والواقع ، المبذولة بمعانيها
لداولة الأخذ والعطاء ، على حين ترعم أني كالعبارة العقلية التي يضرب
فيها الظن على وجوه شتى ، وأنني كما تقول : كلمة بسرها ؟

(١) من ظرفها أنه لقيها بعد هذه الرسالة ، فابتدته ضاحكة وقالت : هل أحضرت
معلك لماذا ... !

(٢) دواليك : أي مرة بعد مرة .

« لا أكاد أفهم يا صديقي معنى « كلمة بسرها » ! ولا معنى قولك الذي قلته لي : إن الحب فيك أنت كتعتيق الخمر : يضيف إليها الوقت كل يوم أسراراً وقوى وخيالاً وعملاً وسطوة ورقة وأراه في سواك كتعتيق الماء ..^(١) »

لماذا لماذا ليس عندي جواب كلامك وإنما هو عندك ، إذ تجاوز قدر معرفتي يا صديقي ، فلماذا لماذا ؟

* * *

« وأما قبل ... يا صديقتي فلا أزال أقول لك ما قلته : إن من النساء في مقابلة أشعة النفوس معاني فمعنى كحائط ، ومعنى كمرآة : وواحدة تمسخ ظلاً طامساً أراني فيها تحت الشعاع كأني ظل ممدود على التراب ، والأخرى تبرق وتتلاًلاً وأراني فيها سويًا كاملاً كأننا خلقت في ضوءها .

ومن النساء في مقابلة أهواء القلوب معان فمعنى كالقفر ، ومعنى كالحديقة، وواحدة يكون وجودها حول فراغها... والأخرى وجودها القلب فهو حولها .

« لماذا لماذا » لأن الإنسان غامض وتفسيره ليس فيه ، ولا بد من تفسيره وإلا كان كل شيء عبثاً . إن الوجود كله مفسر للطفل تفسيراً صغيراً مثله في حب أمه وحنانها ، وقد يكون ثدي الأم مثلاً مصغراً من الكون كالئثال المصغر من كرة الأرض في تعليم الجغرافيا ، بل الأم تفسير على قدر العقل لرحمة الألوهية نفسها .

(١) تعتيق الخمر هو إحياؤها وإصلاحها وقوتها، وتعتيق الماء : إمامته وإفساده وضعفه .

وكذلك تبدأ الحياة من أول أنفاسها بالحب ، ولعل أول قبلة على وجه الطفل من أمه ساعة ينفصل منها إنما هي استقبال الحب لهذا الإنسان الجديد ومسه من شفقي أمه بالطابع الذي لو قرىء نقشه لكان هكذا : أنت وحدك .

فإذا كبر الوليد فلا بد من تغيير في أسلوب التفسير حالاً بعد حال ، ولا يزال كذلك تغيره الأشياء والحوادث حتى يبلغ أسلوب الفلسفة العليا إذا انتهى إلى العشق ، وحينئذ تكون قبلة الحبيبة إنما هي استقبال الحب لهذا الإنسان المتجدد ومسه من شفقي حبيبته بالطابع الذي لو قرىء نقشه لكان هكذا « أنا وحدي ... »

لذلك أنت يا حبيبتي الفلسفة العليا ، وأنت « كلمة بسرها » ، أما غيرك من النساء فجماها عندي : جمال الشكل لا جمال السر .

ومن ثم فهي مفسرة واضحة ، إذ لا يرى قلبي فيها ما يعسر فهمه ولا ما يبحث عن تفسيره ولا ما يفسر لي شيئاً من المعاني .

ومن ذلك فليس الجمال المعشوق إلا انطواء الجميل على أسرار مبهمة ، وبذلك فكل نظر في المرأة لا يرجع إلا بزيادة الوضوح فيما يعلو منها وما ينزل ^(١) ، على حين كل ما في الحبيبة يزيد على تكرار النظر غموضاً كأنه شيء جديد ، ودائماً شيء جديد ، ويأبى جماها أن يفسر ، إذا كان تفسير الشيء إنما هو إضافته إلى ما فرغت النفس منه ، وبهذا

(١) أي في محاسنها ومقابحها ، فترداد النظر يزيد ذلك وضوحاً في النساء إلا الحب ، فهو لا يزيده إلا تأويلاً ، كأن هناك معنى لا يستقر .

وذاك فما دام الحب قائماً فكل ما في الحبيبة من تكوينها وأوضاع جسمها
وشمائلها ومعانيها إنما هو (مضاعفات) للمرض بها .

« ولماذا لماذا ؟ » لأن الحب يريد أن يثبت أنه الحب ، وأنه تحقيق
كل إنسان روحانيته في غيره ، ليشعر بما هو أسمى من شعوره الإنساني ،
وأنه امتلاء حياة بحياة لتدرك معنى الكمال ، فلا يكون الحب إلا كمال
الوجود الإنساني لشخص ما في وقت ما بمعنى ما .

ومتى حققت الروح وجودها في روح محبوبة وامتلات حياة بحياة
صار لها عالمها الخاص بها ، وعادت قوانين عالمنا هذا لغواً هناك ،
وارتفع الحب عن أن يكون صلة أو اعتباراً - كما يقع بين الناس في
الوجود الإنساني الذي يسع الخلق جميعاً - إلى أن يصير حقيقة وحياة
يعملان بقوانينهما في الوجود القلبي الذي لا يسع إلا اثنين من الخلق .

* * *

إن جمالك أيتها الحبيبة ليس جمالك كما تظنين ، وإلا فقد شركتك
الحسان فيه : لكنه بكلمة واحدة فن قلبي أنا !

والحياة التي تفيض عليك تملؤك وتملؤني معاً ، ولذلك فكل معنى
منك له معنى آخر في .

وأنا لا أعرف الحب إلا أن أفيض من وراء حدودي فأنفذ بروحي
إلى جمالك ومعانيك ، وأنفذ من معانيك وجمالك إلى كل ما يتلقاني في
هذا العالم بجمال أو معنى ، فكانك أنت السر ، وكان جمال الوجود
ليس شيئاً من ناحيته إلا معرفة أن لكل صورة معناها ، فإذا هو جاء
من ناحيتك فلكل صورة معناها ومعنى زائد فيها كما أراها بنظر الحب ،

وهذا يرجع العالم وإنه في نفسي عالم تعبير فتتسع به ذاتي وتتطور الإنسانية فيها وتدنو من أصلها الإلهي ، وأكون قد أحببت والمعنى أنني استضأت بالقبس الأزلي الذي أضرم الشمس والكواكب ، وأصبح دمي لا يجري بل يشتعل ويتوهج ، وعاد قلبي لا ينبض بل يرتج ارتجاج الأفلاك في مداراتها .

وأكون بالحب قد وجدتك ، والمعنى أنني وجدتني ، إذ كانت نفسي تنقصها المرأة التي أراها بها رؤية قلب . وأكون قد عشقت والمعنى أنك أدخلت على قلبي حاسة تشيع السكون كله في أو تشيعني أنا فيه ، حتى لا أفرح ولا أحزن إلا بمقدار يملا الوجود ، حين بك وحدك أفرح وأحزن !

« لماذا لماذا ؟ » لأن الحياة في هذه الأرض الثقيلة المستوخمة هي مثلها مادة ، مهما تنوع بقي لها أصلها الجاف الثقيل ، كالشجر : مهما يكن عمله من تحويل التراب فيلبس منه الأخضر والأبيض والأحمر وغيرها من الألوان ، ويشمر بالخلو والمر ، فإن جذوره على ذلك لا تعرف الأخضر ولا الأحمر وليس لها إلا شيثان ، ترايبها وعفن الأرض ... فلا بد لهذا المنجم الترايب الإنساني مما يغلي قيمته ويشعره أن فيه ألماساً أو ذهباً أو فلذة من أفلاذ الجمال كائنة ما كانت ، وهنا عمل الحب موضعه سحره فهو يأتي بالمعشوق ويمكن لمعانيه في القلب وبيضع ابتسامات ولحظات وكلمات وحركات يكشف من قلب العاشق عن كنز عظيم من الأحلام الجميلة التي تحقق بها خوافق السماوات والأرض^(١) فإذا

(١) أي تملأ ما بين السموات والأرض .

القطعة البشرية العادية من النساء والرجال قد تحولت بالحب إلى قطعة فنية نادرة لا نظير لها في جمال الكون ، وعلى ما يصف الواصف لا يبلغ ما هي أهله في رأي محبها، إذ هي تخلق في نظره ضوءاً لها خاصة يرفعها فوق المادة وفوق الحقيقة ، فكل ما تبصره العين الإنسانية فإنما تراه للفكر أو للعاطفة وحسب، أما هذه فتراها عين محبها للفكر والعاطفة، ثم للجمال والفن ، ثم للشهوات والآمال، فلو أن جنة الله تحيا على الأرض في امرأة ما عدتها .

بل يرى المحب كأن سر الحياة أخذ يتجلى له ويعمل أعماله على عينه، فكل شيء من الحبيب جديد مع أنه هو هو من قبل ، وكل ما يصدر منه ففيه روح وخلق ينبثق لساعته، إذ كان سر الحياة هو الذي يتحرك في كل هذا ويستعلن به للنظر للعاشق .

ومن هذا تتغير الطبيعة نفسها في أعين المحبين، إذ لا يكونون منها في الحقيقة - بعمل ذلك السر - إلا بإزاء قصة عشق ممثلة في الطبيعة ولها ممثلون وممثلات من الأنهار والأطيار والأشجار والأزهار والألوان والأصوات والنجوم والشمس والقمر وما في السماء وما في الأرض ، على حين ليس في الطبيعة لغير المحبين إلا مناظرها !

ألا إنه بالحب وحده يحيا الإنسان أكثر من حياة إنسان ، وتكون الطبيعة أكثر مما هي ، ويزيد كل شيء في حس العاشق لأنه هو زاد بحبيبه .

تسأليني « لماذا لماذا ، لأنك ، لأنك ... يا حبيبتي !؟ »

* * *

كتاب لم تكتبه ...

« وانقطعت كتبها عنه مدة ، فرأى أن يجري في طريقه بعض الأساليب السياسية التي تخلق الواقع متى شاءت كما تشاء ، فتوهم أنها كتبت إليه كما يجب ... ثم رد على رسالتها » .

* * *

وصل كتابك أسرع ... مما قدرت ، فعلمت أن قلبك أشفق علي وخشي أن أتألم إذا انتظرت ، وتناولته فأحسسته فياضاً بمعانيه إذ كان في يدي كأنه لهفة قلب مجسمة ، حتى ما شككت أن كل كلماته كانت خفقات .

وفضضته فطالعتني منه صحيفة تضطرب بأشواقها كأنها رجفة صدر عاشق أمسكت في زفرائها وطويت وختم عليها وجعلت رسالة ! ونظرته فإذا هو ترجمة شخصك في حسنه وجماله وظرفه ، وابتدرتني منه جملة باسمه أمطرتها لثماً ، إذ خيل إلي أنها ترجمة عن شفتيك .

وقرأته بفكري كما أقرأ نظراتك وابتساماتك ورجفات الدلال على جسمك حين تتناثر أفكاره عليه فإذا في موقع كل فكر على هذا الجسم الفاتن خطرة دلال أو اختلاجة صباية أو انثناء تيه أو هزة نشوة ،

وإذا معاني الجسم تجوب معاني الفكر ، وإذا روح الجمال ترتعش بك
من لمسات الحب .

وفهمته كما أفهم حسنك الذي جعله الحب من أسرار قلبي ، فجعله
القلب من أسرار روحي ، فجعلته روحي من أسرار الكون ، فآظهره
الكون كأنه ومضة من النور القدسي أحبت أن ترى رؤية وله عبادة
فكان سطوعها فيك أنت ، وكان الخشوع لها في قلبي أنا ، وذهبت بي
كل مذهب تقديساً وخضوعاً ومحبة .

ووقف الهوى بي عند قولك ... وهو كلام كما أرهفته لحاظك
تفتحت له جراح قلبي وانصب يكلمها فتجاوبه ألماً ودماً .

وعند قولك ... وهو كلام كما عرفت عليه أنفاسك ، احتر إليه
صدري الهائم فأقبل يتخطفه بتنفسه يقطف منه الحياة .

وعند قولك .. وهو كلام كما رنت فيه ضحكاتك طربت له روحي
فاهتزت له هزة حسبتها تناولت الكون أو تناولها .

وعند قولك ... وهو كلام كما غردت فيه نغماتك انسرقت له
حواسي^(١) فكدت أظن أن فرحة من الخلد لم تجد على الأرض إلا هذه
النغمة من صوتك تحملها دون أن يتغير مدار تأثيرها السماوي .

ثم انتهيت يا حبيبتي إلى قولك ... وهو كلام لم أجذك فيه^(٢) كأنه
كان بدء اليقظة من حلم الكتابة إلى محبك ، وأول تبشير البياض الذي
ينتهي عنده سواد الأسطر .

(١) أي استرخت ذهولاً ، ويقال : انسرقت مفاصله : إذا ضعفت فاستعملناها كما ترى .

(٢) يريد أنه كلام كالكلام المألوف ليس عليه أثر حبيبة ولا محبة ، كأن تذكر حادثة
أو تسأل عن أمر .

وعجبت يا حبيبتى من قولك ... وهو كلام إن كانت ألفاظه وجدت فمعانيه غير موجودة ، وإن كانت في هذه الأرض من له روح تفتح وتغلق^(١) فهو أنت ، ولقد جعلت كلمتك الأخيرة كأنها باب أقفل في وجهي ...

ولكن لما بلغت اسمك يا حبيبتى ارتدت عنه . ألحاظي مكرهة من قوة في نفسي ، وبهذه القوة التي أغمضت عيني قرأت اسمك بشفتي .
ثم لم أملك نفسي أن قبلت الكتاب ألفاً وألفاً ، حتى خيل إلي أنني أكلته وشربته ، ولما نظرت فلم أر في يدي شيئاً تيقنت أنني أكلته وشربته ... وأطيب ما كان فني^(٢) .

* * *

يحاول لي ولخيالك ! إنما أنا معه كالسياسي إذ يقبل سياسياً بعد معاهدة بينها ، فيمسه بشفته مسة ليس لها إلا طعم ورقة مكتوبة ... وآه كم تتمثلين لي وكأنك لا تزالين في ذلك الموقف ... تحاولين بدلالك وألفاظك أن تدخلني إلى نفسي من غير أن تدخلني وأراك وما أراك إلا روحي الخارجة عني ، فأحاول بأساليب الحب الكثيرة أن أردّها إلي وهي لا بد لها أن تبقى خارجاً لأنها جسم آخر ! وأنا لا بد لي أن تكون في لأنها روحي الأخرى .

خلد على قلبي ذلك الموقف منك ، فلا بد لك ولا بد لي ، وبينهما لا بد ثالثة ، لا بد من تألمي وعذابي !

* * *

(١) الظاهر ... أنها اتهمته في آخر كتابها ... بالسوء بعد الحب ثم أظهرت غضبها من ذلك في كلمة مجر .

(٢) أي انتهى عند ألد ما فيه .

قالت وقلت

« هذه رسالة تجمع من كلامها وكلامه مما كان يتساقط به الحديث بينها ، وقد دونها هو في مجالس شتى ، وكل فصل من هذه الفصول كان يصلح أن تبني عليه رسالة طالت أو قصرت . »

* * *

في بعض القصص أن لإحدى الغابات ملكاً يحكمها ، وكان من شريعته أن لا يتبوأ عرشها إلا من يذبح الجالس عليه ... فالملك فيها أبدأ يقظان منتبه عيناه من سلاحه ، ولا يزال السيف في يده مصلتاً ولو أن في كل إصبع من أصابعه سيفاً قاطعاً ثم غفلت عيناه غفلة لما نفعته عشرة أسياف ، ولكانت إغماضته الموت لا محالة ، ومع هذا الشقاء الحي فإنه يأتي إليه من يذبحه ليجلس في موضعه ، أي ليترباً للذبح !

أما والله إن عاشق بعض النساء ... لكالجالس على هذا العرش كل لذته من بلائه أنه لم يذبح بعد ... !

* * *

الموت ينتزع الروح ، والهجر يترك الروح كأنها منتزعة ، فهو موت لا ينتهي !

أَيكون الحب في الحقيقة هو قدرة شخص جميل على تزوير نفسه
وتزوير الكون في نظر شخص آخر ؟

* * *

قالت له : لم أعدك شيئاً !
قال : نعم لم تعديني بلسانك ، ولكن وعدت بما فيك من الشفقة
ما ترين في من الاضرار !

* * *

لو أني سميت النهار ليلاً والليل نهاراً لانتقل السواد والبياض إلى
اللفظ بسهولة ، ثم لا يكون ليل الله ولا نهار الله ، فاجعلي لي منك
دقيقة واحدة واقعة على زمنها وخذي الثلاثمائة والستين يوماً كلامياً ،
دقيقة إنجاز ولا ولا سنة مواعيد !

* * *

أأنت تخطئين ؟ أما إنك لو تكلمت خطأ صرفاً لكان وجهك
وحده برهاناً وحجة !

* * *

ألم أرَ مثل هذا الفم الجميل : إذا افتر افتر عن ابتسامة ، وإذا
انطبق انطبق على هيئة ابتسامة ، هو دائماً إشارة أو تعبير ، هو دائماً
تعبير أو إشارة .

* * *

عندما أراك لا أتمالك أن أطرب وأهتز ، أفهناك ألحان من جمالك
تنطلق في .

* * *

قالت له : كلماتي لا تتم بمعانيها ولكن بفهمك أنت لمعانيها !

* * *

وقالت : إن ساعة كتابتي إليك هي ساعة من الحياة معك وإن كنا على بعد !

* * *

ليست المسكرات ولا المخدرات هي ما يعدونه من كذا وكذا ، بل ومنها النظر إلى بعض الوجوه ، والفكر في بعض الناس !

* * *

إنك تتكلمين ولا تعرفين أن وجهك ينقح في معاني كلامك .

* * *

في الحب درجة من درجات الملائكة يرتفع إليها من قدر أن ينسى من حبيبه المادة الإنسانية وهي مائة عينية وحواسه ، آه ما أشق أن يتحول العاشق في حبه إلى شريعة ، ولكن ما ألد أن يتحول !

* * *

من العجيب ألا يكون الحزن في الحب إلا وسيلة لزيادة جمال الحبيب باحتياج محبه والتباعد ، فهموم الغرام أشبه (بعمليات) جراحية في العواطف لترقيقها وإرهافها ، كما ترى أحسن مما كانت ترى ، وتحس أكثر مما كانت تحس !

* * *

هل الطبيعة الإنسانية بتأليفها بين حبيين تضرب المثل على إمكان هذا الائتلاف بين الجميع؟ أم على استحالة إمكان التآلف الصحيح إلا بين اثنين فقط من الجميع ؟

* * *

العقل يدل على نفسه بالنظر في الكون ويعبر عن ذلك بأفكاره .
والقلب يدل على نفسه بالنظر في الحبيب ويعبر عن ذلك بأشواقه .

* * *

كل كلمة فيها معناها ، وحين تكون الكلمة منك يكون فيها من
معناها ومنك ...!

* * *

قالت : أنا في نفسي كما أنا ، ولكنني في حبك كما أرى ، فأنا أكتشف
نفسي الجميلة فيك ، وبهذا أجد حبك من عظمتي وسروري !

* * *

إن مواعيدك من الكلام الذي يموت دائماً بمرض النسيان !

* * *

قالت : ينصح علماء القوة والرياضة للرجل القوي ألا يغضب
فيذهب على الأقل نصف قوته ، وأنا أنصح لك أن تغضب فتزيد قوتك
على الأقل بقدر نصفها ...!

* * *

أساس الحب شيء خاص لا يعرف إلا بالشخص الذي هو فيه ،
وحيث أنه ليس في الوجود كله مثل الشخص الذي هو فيه .

* * *

كمال لذة الحب حين تتآخى الإرادة مع الإرادة .. لا حين تتنافر
أو تتعادى .

* * *

ليس في الحب مسافات ، فالمتحابان مجتمعان دائماً في فكرة وإن كان
أحدهما في المشرق والآخر في المغرب .

* * *

قالت له : إذا كنت تريدني سماء تستوحىها وتستنزل منها ملائكة
معانيك فلماذا تنكر عليّ أن يكون لي مع أنواري سحاب وظلمة
ورعد وبرق ؟

* * *

من تأله الجمال أن الحبيبة لا تريد الحقائق من الطبيعة إليها بل من
الطبيعة إلى محبها أول ، ثم من الحب إليها بعد ... ، تريد في حقائق
الكون شعور تقديس الله وشعوراً آخر بتقديسها هي أيضاً ... ! دولة
ضعيفة : ولهذا لا يكون معه أبداً إلا كالمستعمرة ...

* * *

الغضبى^(١)

تخير قلبي وهو ممتلىء بها كما يملأ المرأة ناظرها ظلاً
بأي مكان فيه قد حل شخصها وأي مكان شخصها فيه ما حلاً؟
لقد غضبت وكر هجرها على وصلها ، وانشق لزمن زمين ، أحدها
مثلاً غضبان مبتعد وكأنما كان لها خاصة ، فلما ذهبت لحق بها .
إنه الحب يخلق بها خلقاً في^٢ وبزمنها خلقاً في زمني ، ليشعرنا بهذا
التغيير الخالق المتصرف أننا لا نتحاب في ذات نفسينا ، بل في الجلال
الأعظم الذي منه نفسها ونفسي ، فإذا تغاضبنا وقسمتنا أهواؤنا رجعنا
قطعتين من المادة ليس في كليهما إلا قانون الثقل ... وزادت عواطفنا
وزناً جديداً من الغيظ !

أين زمنها ؟ لقد فرغ وقتي منه حتى يخيل إلي أن اليوم الذي هو
أربع وعشرون ساعة لا يكمل لي بعدها عشرين وأربعاً . وأنظر في
ساعتي فإذا كانت الساعة مساءً والتي إليها والتاسعة التي معها^(٢) شبه لي
وغم علي وحسبت أن في هذه الساعة منطقة خارجة عن الزمن تحطها
العقرب ولا يشير إليها .

* * *

(١) لما تغاضبا كتب هذه الرسالة فيما كتب لنفسه ، ولا ندري ماذا كتبت. هي .

(٢) كانت ساعات اللقاء بينهما على ما يظهر ...

وإني لأحمل في غضبها من الهم ما لا أرهق بأوجع منه لو عاداني كل من معي وجفاني كل ما حولي ، ولكانت والله قد هانت لو أنها غضبة عدو ، ولكنها غضبة حبيب هو بحبه فيها .

يا ظلام القمر كيف تكون ظلاماً وقد تعلق بمخلوق النور؟^(١)

* * *

كلا كلا ! لقد غضبت لتزيد في أسرار حبها سر الماضي، ولتمر على أيامها اللينة بمسحة من القسوة تخلق فيها إلى جمال الحقيقة جمال الذكرى. وكانت ... وتريد أن تأتي في الحب من وراء ما كانت فذهبت وهذا في فلسفتها هو المحيي من وراء ما كان . فما غضبت إلا لتعطيني الرضا من بعد .

الفرح بالجمال لذة تقتل نفسها ، ولا يمك على الجمال روح النعمة خالدة في القلب إلا الحزن به أحياناً : كيوم الغيم ، ترى في سمائه قطعاً كأنها الهاربة من الليل ، تحتبئ الشمس فيها ثم تسطع من بعد سطوعاً يخيل إليك أنها ما توارت في خيمة الغائم إلا لتنضو غلائلها الشفافة وتتعرى .

يريد الجمال المعشوق أن يثبت فينا فيغيب عنا ، إذ كان بذله يفني منه على قدر ما يعطي فإذا هو امتنع وعز مناله كان جمالاً في نفسه بمعانيه وجمالاً فينا ، بالمعاني التي هي فينا ، وكان له من اجتماع الحالتين حالة جمال ثالث هي في ألم الرغبة المستمرة أو ألم الغيظ المجنون ، ومتى خلق لنا الجمال من قصر الزمن طول الزمن ، ومن المتاع بالحسن

(١) أي تعلق القمر .

العذاب بتمنيه ، ومن الحبيبة الراضية حبيبة هاجرة ، ومن الحاضرة غائبة ، فقد ارتفع عن إنسانيتنا وجاءنا من ناحية سره الإلهي .

* * *

كلا كلا ! لقد غضبت لأحبها صورة مبهمة ليس فيها إنسانة بل حب إنسانة ، وانتزعت نفسها مني بعد أن انتزعت لنفسي كل معانيها التي جعلتها ما هي ^(١) .

ألا يا ثمرة أفرغت في قلبي عصيرها الحلو ! لئن بقيت ثمرة في لغة نفسك فإنك القشرة في لغتي أنا ...

* * *

إنه ليس معي إلا ظلالها ، ولكنها ظلال حية تروح وتجيء في ذاكرتي ، وكل ما كان ومضى هو في هذه الظلال الحية كائن لا يفنى وكما يرى الشاعر الملهم كلام الطبيعة بأسره مترجماً إلى لغة عينيه أصبحت أراها في هجرها طبيعة حسن فائق مترجمة بجملتها إلى لغة فكري .

كان لها في نفسي الجمال ومعه حماقة الرجاء وجنونه ، ثم خضوعي لها خضوعاً لا ينفعني ... فبدلني الهجر منها مظهر الجلال ومعه وقار اليأس وعقله ، ثم خضوعها لخيالي خضوعاً لا يضرها .

وما أريد من الحب إلا الفن فإن جاء من الهجر فن فهو الحب ...

* * *

كلما ابتعدت في صدها خطوتين رجع إلى صوابي خطوة ...!

* * *

(١) أنه لا يجب إلا إذا انطبعت معانيها فيه وأصبحت كالأجزاء من حياته وفكره فإذا هي تركته بعد ذلك فلن تنزع منه شيئاً مما جعلها عنده هي هي .

كلا كلا ! فلا صواب مع مادة الفتنة، وهل يفتتن الإنسان إلا حين يظهر مجنوناً باسمى ما فيه من العقل ؟

أنا عاشق أضم الطبيعة في مهجتي مصغرة فانا الأكبر ... إن هذا لجنون ولكنه عقل ... وأنا عاشق أفسر الطبيعة في هذه الحبيبة الجميلة فهي الأجل ... إن هذه لعقل ولكنه جنون !

وقد كانت لهذه الحبيبة نظرة معنوية هي مفتاحها في قلبي وها هي ذي غضبي نافرة لا أراها ولا تراني ، ولكن المفتاح لا يزال يدور في قفله ... أجنون هذا أم عقل ؟...

وهي الحبيبة ولكنها كالعدو : صورة من أقسى ما في الطبيعة جاءت تمضي في قانوناً من عقوباتها ؛ أعقل هذا أم جنون ؟
لن يقال في الذي تحمله عاصفة وتطير به : إنه مسافر في طيارة...
ولا في الذي رأى صورة دينار في مرآة فحطم المرآة ليأخذ الدينار : إنه وجد شيئاً ...

ولكن يقال في الذي دله الجمال وشفه الحب^(١) : إنه في نعيم الهوى .
وفي الحب الذي يحطم قلبه على امرأة إنه وجد الحب ... !

* * *

كلا كلا يا قلبي ! إن الغضب يجمع جنون الحب من شخصين في شخص واحد : هانذا يحوطني الآن هدوء الأشياء ، وابتسام الجمال الأزلي المفتر عن نور الدنيا : أنا في كل ذلك ولست في هدأة ولا ابتسامة غريق في البحر ولا يبتل ... !

(١) التذلي : ذهاب العقل من الهوى ، وشفه الحب : إذا لذع قلبه .

لعمري لو غضب قاع الأقيانوس غضبة حب لانتفخ به الغيظ حتى
يعلو فوق الماء جزيرة جافة فلا يتندى ولا يرق ولا يعود إلا خلقة
غيظ ! ^(١)

فليكن ما طاع مني هو الذي يابى ، وما أحب هو الذي يبغض
ولتأت على الحب غابرة الدهر وآخرة الليالي ^(٢) ولو ترامى بها غضبها
إلى قتلي لوعة وكمداً !

لقد أصبحت أرى ألين العطف في أقسى الهجر ، ولن أرضى بالأمر
الذي ليس بالرضى ، ولن يحسن عندي ما لا يحسن ، ولن أطلب إلا في
عصيان الحب !.. أريدها غضبي ، فهذا جمال يلائم طبيعتي الشديدة ،
وحب يناسب كبريائي ، ودع جرحي يترشش دماً ، فهذه لعمري قوة
الجسم الذي ينبت ثمر العضل وشوك الخلب ، وما هي بقوة فيك إن
لم تقو أول شيء على الألم ...

أريدها لا تعرفني ولا أعرفها ، لا من شيء إلا لأنها تعرفني
وأعرفها .. تتكلم ساكنة وأرد عليها بسكوتي . صمت ضائع كالعبث
ولكن له في القلبين عمل كلام طويل ...

أما والله ما أدري أحاجتي في حبها كانت إلى عزيمة أم إلى صبر أم
نسيان أم خضوع ؟

يا رواجف صدري ! كل ذلك ليست منه فائدة ترجى ، فإن حاجتي
ألا أكون عرفتها من قبل !

(١) أي ينقلب قفراً متحجراً كأنه خلقة غيظ وهيئة عناد .

(٢) كناية عن انتهائه وذهابه في الزمن .

ويا قلبي ، ما هي المعجزة التي يمكن أن تمنع الأمر الذي وقع
بعد ما وقع ...

* * *

كلا كلا ! ما ذهب الحب ، وإن الذي يكذب حبه بإظهار غيظه
من الحبيب ليكذبه الغيظ ، وإذا انتهى أمر من الأمر وبقي في نفسك
حيّاً فما انتهى .

كلا كلا ! ما استوفيتك يا رسالة الغضب ، فما أكثرك عندي فنوناً
وما أوسعك معاني في نفسي .

كلا كلا ! فلو أني كتبتك ملء ليل مظلم طال على محوم . ثم اطلعت
هي عليك فاغضبتها ثم جاءت ... جاءت تسألني ... تسألني . أنت
كتبت هذه ؟

آه ، تالله إن أجبتها إلا ؛ كلا كلا ...

ولست أطيل في زينتك يا رسالة الغضب ، فإنك كالنعش : لا يزينه
قوم إلا ولهم ميت ! ... كلا كلا !

* * *

هدية شتم ...

نشرت مرة في بعض المجلات الفرنسية مقالاً فهم منه القراء كلمات نبيلة ، وفهم هو منه كلمات شتم فكتب هذه الرسالة^(١) :

في الحب يتكلم قلب المرأة العاشقة بمنطق فصيح من أعمالها ، فأعمالها عندها على طريق اللغة والتعبير قبل أن تكون لعلة أخرى من العلل ، فإذا أنت حملتها على ظاهرها وكنت المقصود بها فقد جزت بها عن طريقها وأخطأت سحرها وجمالها ، بل تكون قد أهنتها وابتذلت المعنى السامي الخبوء لك فيها ليكون لك وحدك .

قد تشتمك من تحبها لأنها تحبك وتعزك ، ويأبى لها شعورها بكبرياء الحب إلا أن تنبذ لك بلفظة متكبرة وهي قد وثقت أنها تخصك منها بمعنى ما... وقد تعرض عنك من دون الباقي لأنك وحدك الأمر النهائي المتسلط عليها ، فهي تخصك من إعراضها بهدية ... وقد تعالنتك بأشد البغض وتدع قلبك يشبهها لك مراغة جافية متعسرة غليظة الكبد ، لا من بغضة ولا جفاء ولا معاصرة ولا غلظة ، بل من أنك أذللتها بهواك ، فكل ما تشتمك به إنما تتأوه فيه ... والكلمة التي

(١) قلت : انظر ما أومأنا إليه من قبل عن وسائلها في المراسلة .

تفصل عن المرأة في مثل هذه الحالة من سرها المجروح : لا تراد لتكشف عن معنى يكون فيها ، بل لتغطي على معنى يكون في غيرها ...

وهي كلمة وتاريخ وشعور في وقت معاً ، وهي كاللوجة : تحتها التيار وفوقها الريح ، وشرحها وأسبابها في هذين لا فيها ، تشتمك لتقول لك إنني أعلم أنني أحبك أحبك ، فأياك أن تظن أنني أحبك ...

* * *

وما أشبهها بالشمس وهذه المسبة منها كالغيم أثقله الماء فإذا الشعاع على قطراته رأيت فن الشمس لا فن الغيم ، وإذا قوس قزح في سبعة ألوان جميلة زاهية يذوب بعضها في بعض تبرأ ولجيناً وجواهر شتى . وكلمة الشتم من العدو تنزل من القلب منزلة الدملى يأكل موضعه ويتسع ليأكل مواضع أخرى ، ولكنها من الحبيبة تضاف إلى دواعيها في القلب ، فإذا هي كالورقة الجافة في شجرة خضراء ذوت هي ومنبتها حي ، فما أسرع ما ترف في مكانها ورقة أخرى أزهى وأنضر .

* * *

الآن أذكر قولها إذ سألتني مرة : هل ترى قيمة الدينار في يد ملك أو أمير أكثر منها في يد مفلوك^(١) أو صعلوك ؟ وأذكر جوابي إذ أجبتها : إن الدينار في نفسه ملك يحكم الملوك والفقراء ، فهذا من رعيته ، وهذا من رعيته ، وهو فوقها فلا يعلو به من يعلو ولا ينزل به من ينزل وكذلك دينار شتمها : هو على كل حال في يدي كما هو في يدها

(١) المفلوك : الفقير المدقع ، والفلاكة : الفقير ، ومن الكتب كتاب (الفلاكة والمفلوكون) وقد طبع في مصر : والكلمة أصل في الاستعمال لا محل لذكره هنا .

ولو أنها جعلت قيمته في يوم غضبها مئة لعنة لما منعني ذلك أن أصرفه
منها هي في يوم رضاها مئة قبلة !

* * *

أصحيح أن شتمها كلمة حب محترقة ، وأنها عبارة ذات تأويل
قبل أن تكون عملاً ذا صراحة ، وأنها من باب قول المرأة لمن تحبه :
ابعد عني ! إياك أن تصدقني وتبتعد ...؟!

ذلك صحيح لا ريب فيه ، ولقد قالت لي مرة في أمر سبق إلى
قلبي منه شيء فعاتبته : إنها مسألة لا تهم .

فقلت لها : نعم لا تهم ، ولكنها تدل ...!

فقلت : نعم تدل ، ولكن معها الحب فلا تهم ولا تدل ...!

عندها أن الحب يغير كل شيء ، وقد فهمنا من قبل أنه يغير المرأة
المحبوبة في نظر محبها لأنها زائدة على النساء رغباته وأوهامه ويغير
الرجل العاشق في نظر حبيبته إذ هو زائد على الناس إما برغباتها وإما
بمحمقه وجنونه وغفلته ويغير الطبيعة في نظر العاشق لأنها مع الحب
لا ترى إلا زائدة لون النفس ، والآن فهمنا أنه يغير الكلام أيضاً
إذا صار الكلام زائداً تفسير الحبيبة المتكلمة وانضاف إلى ظاهره
مكتمها .

ذلك صحيح، لأن هذه الشاعرة الفيلسوفة تشعرني في كلماتها الجافية
بأثر من الرقة والظرف يدل على أن قلبها مرّ في بعض مواضع من
مقاتلتها وخفق على موضع وأن في موضع .

ذلك صحيح بلا ريب ، والحب كالحرية : هذه تأتي أهلها بالثورة
الدمرة وفيها أسباب من الحياة لها ما بعدها ، وذاك يهدي الشتم وفيه
أسباب من الدلال ولها ما بعدها !
يا صباحاً أهدي الضباة دكنا . فغطى الضياء منك^(١) ظلالك
أنت أهديتها ، وأنت أذبت الطل منها ، فتم منها جمالك ...!

* * *

(١) استعمل ضمير الخطاب بعد ضمير الغائب في (أهدي) لقوة الالتفات وبلاغته
في هذا الموضع ، والمعنى أن شتم الحبيبة كضباب الصبح ، يسوقه ظلالاً سوداء ليقطره بعد
قليل ندى يتم به جماله .

متى يا حبيب القلب

ألا يا نسيم الفجر سلم على فجرى
تضيء الليالي بالنجوم وبدرها
وقفت وماذا أستطيع بوقفتي
أدور بعيني نحو كل شعاعة
فيا ويح قلبي ! ما له حن كلما
متى يا حبيب القلب هجرك ينتهي
فقد غاب في الليل الطويل من الهجر
وليل الجفا من غير نجم ولا بدر
حسيراً، وأقدار الغرام بنا تجري ؟
على الأفق في نجم، أو الأرض في زهر
ترأى له شبه انتسام على ثغر ؟
ومن أول الأيام فيه انتهى (صبري) ^(١) ؟

* * *

ألا يا نسيم الفجر إن جزت في الربى
وقامت عذارها للقياك تنثني
وفتح نوار الغصون جفونه
وأصبحت كالسلوى ترفرف نازلاً
... فجثني بسر الزهر والماء والندى
لعلي بها أطفئ جوى الحب في صدري
خفياً كتسليم الحبيبة في سر ...
دلالاً وتيهاً في غلائلها الخضر ...
وفيها البقايا الناعسات من السحر ...
سلاماً على قلب الغدير أو النهر ...

* * *

(١) قلت وكان من أصدقائها المرحوم إسماعيل صبري باشا ...

صلاة في المحراب الأخضر

شجراتي

« ولما غضبت وييس ما بينهما ، ضاق بهجرها ، فأنصرف إلى شجرات كان يخلو إلى نفسه في ظلها ونضرتها ونسيمها وما فيها وما حولها وظن أنها تنبت شيئاً في جذب الهوى أو ترمي بظل على رمضاء القلب فكان في وهمه كالذي يحاول أن يجد نساء من الشجر ... وهناك كتب هذه الرسالة في الربيع ، ثم التي بعدها في الشتاء » .

لي صديقات من الشجر أعرفهن ويعرفنني منذ سنوات ، وهن ينزلن مني بعض الأحيان منزلة الحب ، لأن فيها شيئاً من دلال النساء الحفريات أجد أثره في قلبي ولا أجد برهانه في لساني ، فإذا هممت أن أبين عنه وأبتغيه بالعبارة أخفته العبارة حتى لا يزيده البيان إلا غموضاً وسوء معرض ، ولكن إذا مضيت أفكر فيه تبينته أشد تبين فأحسست في ظلهن المستحي ونسيمهن المتهد وغصونهن المنثنية - شمائل حبيبة إلى نفسي ، ورأيت لها معاني لا تقع إلا في القلب ، ثم لا تقع منه إلا في الموضع الذي مسته يوماً نفحة أو قبلة أو تنهد .

وإنما قيمة الأشياء بما فيها من أثر القلب أو بما لها في القلب من الأثر ولرب شيء تأفه لا خطر له ولا غناء فيه ، ثم يكون في يد محب من

حبيبه النائي أو المتنع الهاجر فإذا هو قد تحول بموقعه من القلب إلى غير حقيقته ، فأطلعه الهوى من مطلع آخر ليس في الطبيعة ، فيرتفع ثم يرتفع، حتى كأنه عند صاحبه ليس شيئاً في الدنيا بل الدنيا شيء فيه، ويكون ما هو كائن ومع ذلك تنبعث منه روح ذات جلال أقل ما فيه أنه فوق الجلال الإنساني .

هذه صفات الحياة متى خالطها أثر القلب أصبحت في الحياة أكبر كباثرها ، كأن قلب كل إنسان هو النقطة المحدودة له من الكون ، والكون كله مبعثر من حوله، فلا بداية لشيء ولا نهاية لشيء ، ولا قرب ولا بعد ، ولا صغر ولا كبر ، ما يكن له قياس إلى القلب . والحب قدرة إنسان على قلب إنسان فهو من ثم قدرة على الكون المتصل بالعاشق، وهو بهذه القدرة أشبه بالوهية لو ساغ في الظن أن توجد ألوهية عاجزة عن كل شيء ، إلا عن التصرف في مخلوق واحد ، وهو بكل ذلك إما حقيقة كبرى وإما سخرية كبرى .

* * *

تقوم شجراتي على مسيل من الماء في قاصية بعيدة عن المدينة، وتراهن فوق الماء صفا إحداهن إلى إحداهن كأن هناك بقعة من الجنة قامت فيها قصور الزمرد على طريق أرضها من الفضة البيضاء المجلوة .

وأراهن كل سنة يتجردن من الأوراق ليكتسين أوراقاً مثلها لا تخلفها في شيء من الهيئة ولا تباينها في معنى الطبيعة ، ولكن بين ما يخلعن وما يلبسن تزيد فيهن الحياة وتشب الروح وتتجدد القوة فتلقي الشجرة أوراقها وتستقبل الشتاء مقشعرة جرداء ، لتظهر في

الربيع كاسية : جميلة جديدة في حسنها ، تتبرج بروحها قبل ثيابها ،
كالحناء الفاتنة أو ما يتحرك في دمها الحب ...

كذلك لا تتبرج الروح إلا خارجة من شقاء أو مقبلة على شقاء ،
وما أشبه الحب في الناس بهذا الربيع في الشجر : هو الطريق الأخضر
يمتد إما إلى الجذب واليبس والألم ، وإما إلى غاية منسية مهمة في الجفاء
أو السلوة !

وذهبت في ضحوة النهار إلى صديقتي أحييهن كعهدي بين حين
وحين ، وما أكرمه عهداً لمن لا يختلفن من ملل ، ولا يتغيرن من كذب ،
ولا يتبدلن من خيانة ، فلما جئتهن تحفين بي وتناولن قلبي يمسنه
ويتحبن إليه ، وأقبلن يغازلنه ويأخذن فيه مأخذ من تحب فيمن
يحبها ، حتى لم أشعر منه إلا ما أشعر من زهرة فيها أرجها العاطر ،
أو ثمرة فيها ماؤها الحلو ، أو نبتة فيها لونها الأخضر ...

... ونبهن فيه برفقهن هذه القوة المتواضعة المظلومة التي تتوجه
بالإنسان إلى ربه فتكون عبادة ، وإلى الناس فتكون رحمة ، وإلى
« بعض الناس » فتكون الحب ، فإني لتحت ظلالهن الوارفة وكأنني
من السمو تحت أجنحة الملائكة ، وإني لمع أغصانهن النضرة وكأنني من
السرور أداعب أطفالاً صغاراً تبسم لي ، وإني لبين أنفاسهن وكأنني
من النشوة مع الخيال الذي أتحيل ...

تجلت عليّ القوة التي تحول الشعاع إلى ظل ، والهواء إلى نسيم ، والزمن
إلى ربيع ، والنظر إلى حب ، فكنت في الشجر الصامت شجرة
متكلمة ، وانسللت من طبيعة إلى طبيعة غيرها ، ووقفت بين عفو الله

وعافيته في هذا المحراب الأخضر ؛ ومن قلبي المتألم أرسلت إلى السماء
هذه التساييح ذاهبة مع تغريد الطير .

* * *

يا من غرسني في الحياة كهذا الغراس بين الماء والنور ، ولكنه
جعل جذوري كلها مستقرة مثله في الطين !

يا من لا يؤتيني معنى شريفاً سامياً على هذه الأرض إلا إذا عرفت
بإزائه معنى وضيعاً سافلاً ، ولا ينضج ثماري ويحليها إلا بعد أن تنبت
فجّة مرّة لا تذاق !

يا من خلقتني انساناً ولكنه قضى علي أن أقطع الحياة كلها أتعلم
كيف أكون انساناً ، كالبذرة : تقضي عمرها في إخراج شجرتها ونموها
حتى إذا اكتملت الشجرة قطعت لأغراض أخرى غير التي من
أجلها نبتت .

يا من وهب عبادة العقل بين هذه النواميس التي لا تعقل ، حتى
لا يتم أبداً عقل إنسان ، ولا تكمل أبداً حكمة حكيم ، فيظل باب الخطأ
مفتوحاً لأكبر العقول وأصغرها ، وتكون الحيرة قاعدة من قواعد
العقل ، ليخرج من ذلك أن يكون التسليم قاعدة من قواعد القلب !

يا من جعل في شفاتنا بالعلم داء آخر من العلم ، حتى لا يرتفع الضرر
من الأرض ولو صار أهل الأرض كلهم علماء !

يا من جعل الناس في الحياة كأوراق الشجر ، من اليابسة التي
تقصف إلى جانب الخضراء التي ترف ، ثم إذا الناس جميعاً كالأوراق

جميعاً . ييست فارقت ^(١) فطارت بها الريح تذروها فلا يعلم مستقرها
ومستودعها إلا هو !

ويا من خصني بهذا القلب العاشق الذي يتالم ويضطرب حتى عندما
ألمس كتاباً أعرف أن فيه قصة حب، وهو مع ذلك يتكبر على كل آلامه
ولا يخضع أبداً إلا جواباً على خضوع آخر، فكانه لا يدنيني ممن أحبهم
إلا لأعرف ما أكرهه فيهم ، وكأنه من فرط رفته آلة إحساس جامدة
لا قلب حي .

ويا من جعل هذا القلب في كجناح الطائر : لا يطير ولا يرتفع
ولا يسمو ولا يتقاذف إلا إذا نشر هو وجناحه الآخر ، فلا أبحث عن
الحب لأجد الحبيبة وجالها وحبها ، بل قوتي وسموي وكبريائي .

يا إلهي ! تقدست وتباركت ! إني لا أنكر حكمة آلامي ، فإنا
إلا كالنجم: إن يسخط فليسخط ما شاء إلا ظلمة ليله التي تشب لونه ^(٢)
وتجلوه ، ولولاها لما رأت الأعين شعاعة تلمع فيه .

لم تعطني يا رب ما أشتهي كما أشتهيه ولا بمقدار مني ، وجعلت
حظي من آمالي الواسعة كالمصباح في مطلعته من النجوم التي لا عدد لها
ولكن سبحانك اللهم، لك الحمد بقدر ما لم تعط وما أعطيت، لك الحمد
أن هديتني إلى الحكمة وجعلتني أرى أن المصباح الضئيل الذي يضيء
جوانب بيتي هو أكثر نوراً في داخل البيت من كل النجوم التي ترى على
السطح وإن ملأت الفضاء !

(١) أي تفتتت، ومتى يبس النبات وارفَتْ سمي ذراوة (بضم الذال) لأن الريح تذرو

(٢) يقال في الحسناء التي تلبس السواد : إنه يشب لونها ، أي يجعله يتوهج ويتألق .

سبحانك اللهم ! إن هذا الشجر ليتجرد وينوي ثم لا يمنع ذلك أن يكون حياً يتأسك ويشب ، وإنه ليخضر ويورق ثم لا يعصمه ذلك أن يعود إلى تجرده وييبسه ، فما السعادة أن نجد الزينة الطارئة ، ولا الشقاء أن نفقدها ، وما الشجرة إلا حكمة منك لعبادك تعلمهم أن الحياة والسعادة والقوة ليست على الأرض إلا في شيء واحد ، هو نضرة القلب !

سبحانك ! إن الساخط على الحياة والحياة منك ، ليس إلا كورقة في شجرة قد بدا لها فسخطت شجرتها وعملها ونظامها ولونها فانتزعت نفسها وهوت في التراب لتخلق أوهامها وتخرج من نفسها على ما تحب شجرة جمال ولون وثمر ، فإذا هي أهون على الأرض والسماء من أن تكون إلا ورقة يابسة قد هلكت حقاً وارفتت رغماً وهواناً وضاعت فيما يضيع !

سبحانك سبحانك ! اللهم لا تجعل ما يرفعني يقذفني ، ولا ما يمسكني يرميني ، ولا ما ينضرنني يحفوني !

* * *

ولما فرغت من ابتهالي ، اتكأت إلى حبيبة منهن وجعلت أفكر وأنا أحس كأن كل شجرة تضع قبلة ندية على قلبي ، أو كأن غصناً مطولاً يتنفذ ظل الصباح قطرات في دمي .

وسألت نفسي : لم لا يكتسي الشجر كل عام جنساً من الورق ، فإذا اخضر هذا العام احمر من قابل ، ثم يصفر في الذي بعده ، ثم يكتسي

من الوشي الأزرق في الذي يتلوه، ثم يطلع في الديباج الأسود، وهلم إلى
عدد الألوان خالصة أو متمازجة ؟

أذلك لأن الطبيعة عاجزة عن التفنن ، أم لأنها شحيحة مقتصدة ؟
أم لأن تركيب العالم قائم على أن تبقى الحقيقة كما هي لا تتغير ؟ أم لأن
كل شيء يستمر على وتيرة واحدة ليظهر جانباً معيناً من حكمة الله ؟
فينشئ جانباً معيناً من ذوق الإنسان وفكره ، أم العالم كله كلمات
صريحة تقول لهذا الإنسان : إنك أنت وحدك المتقلب المتلون ... ؟

* * *

ثم مدت يدي فهصرت غصناً من تلك الأماليد الناعمة اللينة ، فإذا
هو ريان تجد مس الماء في قلبه ، ولكنه أقبل في يدي بعد قليل على
الموت وأنشأ يذوي مضمحلاً ، فجعلت أتأمله فلم أر جزءاً ولا خوراً
ولا إشفاقاً من أمر يأتي ولا حنيناً إلى شيء مضى ، فعلمت أن القوة كل
القوة ألا يجزع الحي فإذا هو لم يجزع يجبن ، وإذا أمن الجبن لم يستذله
شيء ولم يكن الشقاء في رأيه شقاء بل مصادمة بالحياة لبعض نواميس
الحياة ، ومضى كما هو جزءاً على وضعه من الكل الذي هو فيه، فتساق
مع الكل وبقوة هذا الكل ، فأمن المنافرة واتقى على نفسه آلامها فإن
لم ينعم بشيء فقد نعم بأنه راض مطمئن ، وما في المهنا أكثر
من الرضا !

قال لي ذلك الغصن الأملد وهو يموت في يدي ويعالج سكراته :
أيها الإنسان الضعيف ! هانت ذا تراني رؤية عين ، وتعرف بي سرعة

انقطاع الحياة ، وتستيقن مني أن ما يجيء بطيئاً يذهب حين يذهب سريعاً ، وأن طرفة عين من ساعة الموت تمسح السنين الطويلة والعمر المتقادم وتقف الباب على هذا العالم كله ، فكن غصناً في شجرة الحياة ، ولكن اعلم مثلي أن الشجرة لا تعرفك مثبتاً فيها بالمسامير ولا مشدوداً إليها بقوة أزرية : فلك منها المنبت على أن تكون قابلاً للكسر ، ولك منها الزينة على أن تكون قابلاً للتجرد ، وإنما أنت فيها كما أنت لتظهر فيك حقيقتها كما هي ، فليس لك أنت حقيقة .

أيها الإنسان ! إن للشجرة تماثيل يرفعها الله في كل مكان يوجد الإنسان فيه ، لتقول له : كن دائماً ذا فروع لتظلل بأبنائك موضعك من التاريخ ، كريماً في حياتك تعطي مما تأخذ ، كن طاهراً تعرف كيف تستمد من كل شيء شيئاً واحداً يعيش عليك ، كن مع جنسك مختلف الظاهر على جرثومتك وموضعك ؛ فذو ثمر أو زهر أو شوكـ ولكن ابق في داخلك وعنصرك مع غيرك من الناس على قانون واحد .

* * *

يا شجراتي ! ما أنتن إلا من بعض صور الحب ، ولكن حبكن من النعمة والعافية ، إذ لا تنتهي في النفس معاني شهواتها ، بل معاني لذاتها فقط ..

أنتن المثل الهنيء الذي لا يؤس فيه ولا حظ ، كالمعبد الذي تحمل إليه الآلام والأوجاع لتنسى فيه هنيئة من الزمن ، ولهذا يقبل عليكن الحكماء وأهل النفوس الحاسة والطباع الرقيقة ، يأتون بالأنفس الذابلة

والقلوب المتوهجة في ضعفه وسام ، ليرجعوا في هذه وهذه باللون
الأخضر وبروح النسيم في قوة وعزيمة .

* * *

لا بؤس ولا حظ في القاعدة المطردة التي تجري على وتيرة واحدة ،
ولكن حين تختار الحكمة الإلهية شخصاً بعينه لتجري عليه حكم الشاذ
من القاعدة وتهيء له الأحوال الشاذة ، فهناك إما حقيقة البؤس وإما
حقيقة الحظ . وما أصل الهم والشقاء في الناس إلا أن كل انسان يتمنى
لنفسه أن يشذ من قاعدة ما ... !

* * *

شجرات الشتاء

يمتحن اليوم فإذا هن ذابلات عليهن الضحى عريانا وكن من ورقهن
في حلل الظل ، وفيهن انكسار ذي العارية وكان يتجمل بعاريته ثم
ردها فما يتوارى إلا من الأعين التي كان يتعرض لها من قبل ...
ويحس كأنه أصبح لحنا من خطأ فاحش في لغة النعمة واليسار، لا يكاد
يظهر نفسه إلا قيل له : يا غلطة تحتاج إلى من يصححها ...

ورأيتهن واقفات في مثل ذلك الحزن النسائي الغرامي الذي يخلط
المرارة في حلاوة المرأة الجميلة فتبدي عن عاطفة مسكينة لا يصورها لك
إلا أن ... أن تتخيل جزع لؤلؤة تخشى أن تتحول إلى حصاة .
ذليلات ذليلات كأنهن مطلقات الربيع ...!

* * *

وقالت لي صديقة منهن : لقد كنت في جانب منا ، أفنحرف أنت
إلى الجانب الآخر؟ وكان لك فينا من رأي الحب ما يكسونا مع كسوتنا،
أفيكون لك من رأي البغض ما يجردنا مع كسوتنا ، أفيكون لك من
رأي البغض ما يجردنا مع تجريدنا ؟ أم ستقول : طاووس انسل ريشه
الجميل فردة القبح دجاجة، وشجرة سلبت زينتها فعادت كأن لم يخلقها
الله ولكن أقامها النجار ... أم أنت رادنا إلى المسخ فمجر علينا حكم

الرجل على المرأة : متى قبحت في عينه قبحت في قلبه إذ لا يطلب
إلا معنى فيها تحت الرنق لمعنى فيه هو تحت الدم ، فإذا هي لم تعد
من إيمانه ... كفى ذلك وحده أن يجعلها من كفره ...

أظلمني أنت فتعرف لي ذلاً بعد عزة ، وتصف لي خضوعاً بعد
كبرياء ، ولا تضع بإزائي في ميزان قلبك إلا المعاني الثقيلة التي تلقى
ترن بها ما تكره لكي تملأ نفسك منه بغضاً وكراهة ؟

* * *

كلا يا صديقتي ! إنما تتحولين لأجد منك معنى جديداً في نفسي .
فكانك تخرجين مني رجلاً في الربيع ورجلاً في الشتاء ، وكأني
أعرف بك كيف أتحول في بعض معاني الحياة من نسيم إلى عاصفة .
أنت كالحيبة المخلصة حين تبالغ في إصفاء الود ، فتمتنع وتهجر لتهب
محبها الفكر في جمالها كما وهبته النعمة بجمالها ، فيصيب اللذة ومعناها ،
ثم يجد الشوق الذي يضاعف معناها . فإني رأيت الذي لا يفكر في
معاني الجمال حين يمتنع ويبعد ، لا يدرك كل معانيه حين يمكن ويدنو .

ومن امتلاً من فقد السرور ، كان حقيقاً أن يكون هو الذي يمتلئ
من وجوده ، فاللذة لذة واحدة بنفسها ، ولكنها تتعدد بموقعها وبجالاتها
وبمقدار فهمها وبقوة الشوق إليها . وما أشبه النفس في هذا المعنى
بقصر العروس . إن لم تتقدم العروس معانيها فتزين القصر وترخفه
وتكسوه وتجعل في كل مكان منه جمالاً يومية إليها وزينة تشاكلها
وحسناً يتمها أو يفسر منها - لم تكن العروس على القصر إلا أرملة ...
كلا يا شجراتي ، فلست ظالماً فأجري عليك حكم المرأة في شتاء

حبها ، فإن المرأة متى بردت ... ظهرت كالسحب الثقيلة المطبقة
بأرجائها السوداء : لها في سمائها لون الوحل قبل أن تستوحل بها
الأرض، وبها من الظلمة ملء ليل طويل يموت فيه النهار الطالع
وشمسها معاً ، ويكلح بها وجه الحب ويبرد ويظلم لتكون في بلائها مادة
إنسانية تقع منها صاعقة ...!

آه لو أن شجرة لم تحمل كل أغصانها إلا من قشور الثمر المطروحة
في الطريق ، لكانت هذه المرأة أسخف منها ، ولو أن شجرة حين
أورقت لم تورق من جذعها إلى بواسقها وأعاليها إلا بأجنحة الذباب ...
ليتقذرها صاحبها ، لأشبهتها هذه المرأة !

كلا يا شجراتي ، فقد ذهب ربيعي مثلكن ، ولم يكن ربيعاً في
قلبي ، فساقضي شتائي وأنتظر أنا وجذوري . إنه عهد ليس أشقى منه
لوعة ولا أسعد منه ذكرى إذا جعلنا نحن إلى حياة ليست في حياتنا ،
بل ذهبت عنا بحبيب نأى أو حبيب هجر .

* * *

عجباً ! ماذا يحدث في الحياة من هنات وهنات ؟ تمرض الشجرة
فضلاً من سنتها وتشرف على الموت فضلاً آخر^(١) ، ثم يطير فيها لهب
الشمس فإذا هي تغلي بالشعاع وعليها ضبابة خضراء من غليان ألوان
الشمس في جوفها^(٢) ، فليس من جمال إلا وبعض مادته في أصلها من

(١) أي تمرض في الحريف ، وتشرف على الموت في الشتاء .

(٢) يسمى البخار المجتمع فوق القدر من غليانها : ضبابة القدر . وكأننا ورق الشجرة
ضبابة خضراء فوقها .

القبح كما ترى ، يظهر لك في الطبيعة الجميلة ، لأنها عدوة التصنع ،
ويخفى في النساء الجميلات ، لأنهن عدوات الطبع ، حتى أجل ما في
المرأة الجميلة ، لا تراه بعيداً من أقبح ما فيها حتى دلال المرأة التي
تحبها ، فهو بعينه لو حققت ، هو معنى ظريف رقيق من .. من ..
من وقاحتها ...

* * *

أين الجزء المسكر في الكأس إلا مع غير المسكر فيها ؟ وأين المرأة
الجميلة إلا مع مكروهااتها يغرك منها ما يغرك ؟

لهفي لأشجار المحبة مر فصل ربيعها
جد الهوى في عرسها ليجد في تقطيعها !...

* * *

كل الفتوق لها الرقاع ترم من تصديعها
وإذا تمزقت المحبة حرت في ترقيعها !...

* * *

رسالة الطيف^(١)

ألم بي طيفها بالأمس، فاقترح بناء النسيان الذي رفعته بيني وبينها
وألقيت كبريائي في أساسه حتى لا يرجف ولا يتصدع، وأعليته بهمومي
منها، وشددته بعزائي وثقتي، وجعلته بإزائها كالمعبد من الزنديق :
إن يكن لا يسخر من ذلك إلا هذا فما يلعن هذا إلا في ذاك ... !

ولم ينكشف الليل حتى رأيت معبدي أطلالاً دارسة قد خلعتها
روح السماء فلبستها روح الأرض، فتحول كما يتحول الزاهد في سمته
ووقاره وتعففه إلى الشحاذ في تبذله وحرصه وإلحافه، وتصدع فنونا
وتبدل أشكالاً وسرى طيفها في نيتي مسرى الزلزلة الراجفة في بقعتها
من أرضها: تشق في الأرض والصخر والجبل ما يشق المقراض في سرقة
من الحرير^(٢) بل أسرع وأقطع وأمضى . ولو حدث بعد الذي فعل
طيفها أن مدفعاً من المدافع ألقى ظله على الأرض فانفجرت من ظله

(١) ألم به طيفها بعد الهجر، فاعتذرت إليه وصالحته وأعطته الرضا، فكتب هذه الرسالة .

(٢) الشقة من الحرير الرقيق، وجمعها سرق (بفتح السين والراء) .

القنابل تخرب وتدمر وتأتي على ما تناله والمدفع ذاته قار ساكت -لقلت
عسى ولعله ، وأمر قريب ، ولعل المدفع كان امرأة .

* * *

ولكن تحت أطلال نسياني وما تخرب من عزمي.. انكشف لي كنز
من الخيال دخلته وملكته ، ولم أر فيه الدر والجوهر والماس والياقوت
في جسم الأرض ، بل رأيت فيه الحبيبة تسطع من جسمها البديع ،
حقائق كل هذه الجواهر الكريمة، حتى لكانها والله في غرابة الحلم حسناء
من درّ وماس وجوهر وأشعة تتلألأ ، وما شئت أن أرى صفاء ولا
جمالاً ولا حسناً ولا فتنة إلا رأيت فيها .

ولكم كنت أتخيل إذ أجلس معها وأقلب عيني في محاسنها ومفاتها -
أن أظافرها المصقولة الملتزمة إن هي إلا لؤلؤ من جوهر جسمها ، وأن
الحلي على هذا الجسم الجميل إن هو إلا شعل تتوهج من ضوء لحمها ،
وتورد دمها لا من ذهبها وجوهرها .

غير أنني في كنز الخيال رأيت ذلك هو الحقيقة بعينها ، وعلمت أنه
لمعنى جميل تنجذب الحسان إلى الحلي والجوهر ، إذ كانت من طبيعة
أجسامهن .

طيف جاء الروح المهجورة بالحبيبة ، فاستنشتها كأنما هي نسمة
طائفة على روضة من الورود ؛ ومر بروحي التي جفتها هي وجرحتها
مروراً أنعم من لمس الشفة للشفة ، وغمرها بمحاسن تملؤها ذوقاً وطيباً،

وتحول هو معها روح قبله مشتبهة على انتظار طويل ، ففيه مسها ولذتها وحلاوتها .

وفي الحلم يتجلى الحبيب لمحبه كما هو داخل في نظام عقله وكما هو مستقر في أمانيه، فيكون على ذلك كأنه من خلق النفس وتصويرها، فتفتن به أشد الفتنة وكأنها لم تر معانيه في أحد قط ولا فيه هو نفسه، ومن هذا قلما ناجى الحبيب حبيبه في رؤياه أو طارحه الهوى أو الحديث أو نوله مما يشتهي إلا انتبه الحب وكأنه لم يلم به من هذا كله شيء ، بل ذاب هذا كله في دمه حلاوة روح لها طعم ومذاق !

* * *

يا للرحمة من طيف يعذب العاشق بالرحمة ... إذ ينقل الحبيب كله إلا الحبيب نفسه ... ويحقق للمحب أمانيه إلا بهذه الأمانى ... ويخيم على ظلمة الصد بالوان من نهار يموت قبل النهار ... وفي عالم معذب من الهواجس والخيالات العاشقة المستلبة لإرادتها ، ينصب عالم نعيم من الهواجس والخيالات المعشوقة مستلب الإرادة أيضاً ، فكأنها سخرية النفس من جنون صاحبها ... يا للرحمة ... !

* * *

وتحت أطلال نسياني وما تحرب من عزمي ... ظفرت بمقصورة كأنها من مقاصير الجنة لها جو عبق نافج مليء من الإحساس الخالد والشعور الطروب ، كما مليء بالأسرار والألغاز ، ترف عليه معاني

الضحكات والنظرات والابتسامات : تمازجه تعاير الصوت والموسيقى
والثياب الحريرية والروائح العطرة ، يسبح في كل ذلك جلال الحب
وجمال المحبوب وروحي العاشقة !

وارتفعت حقيقتنا كلينا إلى عالم من الكنايات والمجازات
والاستعارات ، فكان الحب ثمة يتخذ شكله السماوي فيتسع بالإدراك في
كل شيء ، إذ يجعل الحاسية كأنها من حواس الخلود ، فلا نهاية لمسرة
تتصل بها ، ولا نهاية للذة تخالطها ، ومن ذلك لا نهاية لأفراح قلبي
في الحلم ...

وكانت هي كل تقاسيمها تعبيرات معنوية ، حتى لكانها صورة
متجسمة من أوصاف بارعة في الحب والجمال خصصت بعلمها أنا وحدي
إذ لا يمكن أن يهتدي إليها إلا فيها وحدي ، وكنت مع طيفها كاني
ملقى في حالة من حالات الوحي لا في ساعة من ساعات الكرى .

ورأيت حبا رائعا معبوداً أشعرنى إذ ملكته في تلك الخطرات أن
الإنسان قد يملك من الجنة نفسها ملكاً وهو على الأرض في دار الشقاء
إذا هو احتوى بين ذراعيه من يهواه !

* * *

وقالت نفسها لنفسي : هلمي يا حبيبتي في غفلة هذين العقلين
العدوين نهدم عليهما المنطق الذي يعذبنا بأقيسته وقضاياه وإنما نحن
روحان فوق الأقيسة والقضاياء .

هلمي إلى حكم الحب في رقدة الفلسفة العنيدة القائلة بصاحبينا قيام
محكمة بقاضين جاهلين معاً مكابرين معاً، فلا يرى كلاهما إلا أن صاحبه
هو الجاهل ، وبذلك تتضاعف البلية منها متى حكما !

هلمي، من وراء هذين المتغاضبين إلى شريعة الرضا، فليست إحدانا
من الأخرى إلاّ كالصدى يجيب على الكلمة بالكلمة نفسها ، إذ ليست
إحدانا إلاّ الأخرى .

هلمي ، فما منا إلاّ من ضاقت وأعيت بحمق هذين الأحمقين ،
أحدهما من أحدهما كالصخرة التي تريد أن تبتلع الجبل وهي
قطعة منه !

هلمي نتكاشف بالابتسامتين المخبوءتين تحت عبوسهما : الكاذب
المنافق ، فإن كذب العبوس متى لبس وجه الممثل والمثلة ... لم يعد
نهاية فيها بل في الرواية ، ورواية هذين هي رواية العناد والتعنت التي
تمتد من نفسها ، لأن كل كلمة فيها إنما هي بين متقاذفين ، فلا ترمى
إلا ارتدت ، ثم لا ترتد إلا لتعود فترمى ...

هلمي يا حبيبتي ، فإننا تحت هذا الليل نهار مع نهار في عالم بعيد
عن الأشياء وبعيد حتى عنها ...

هلمي ، فإننا الآن في جسدين روحيين لا تحدنا الحدود ، وهذان
الجسدان النائمان هما هم التراب الذي كنا فيه ، وهما قذى المادة ، وهما
الخصمان ، لا نحن ، فهلمي يا حبيبتي ..

* * *

وقالت نفسي لنفسها : وهلمي يا حبيبتى فاجعليني في روح شبابك
الذي ألبسني الضنى على أنه لو نقل إلى الأجسام لأحيا الموتى .

هلمي فضعيني في أشعة الخلود من نظرات الرضا التي في عينيك ،
لأقوى على هذا الفناء الماحق من هجرك ، فإن قربك ليس قرباً بل هو
إعطاء وبعدهك ليس بعداً بل هو سلب !

هلمي فارفعيني بقوة منك على قوتك الأخرى التي تهلكني بالخضوع
والصبر .

هلمي فلنصالح بين الكلمة ومعناها ، فإن هجرك هذا فرق بين
ألفاظ الحب وأرواحها ، فمسخها كما هي في كلام ، وأنا أريدها كما هي
في الحياة ، وهل تحيا كلمة القبلة في القاموس أم في شفتيك ؟

هلمي يا حبيبتى نرتفع فوق دنيا الحزن والألم ولو ساعة ليست في
ليل ولا في نهار بل في وفيك : ساعة ليس فيها ستون دقيقة في كل
دقيقة. ستون ثانية ، بل فيها ستون عناقاً في كل عناق ستون قبلة ،
فهلمي يا حبيبتى ...

* * *

عاد الحب أكبر من كلمة ، ورجع الرضا أكثر من ابتسام الشفتين ،
وصارت الأذرع حدوداً ^(١) بعد أن كانت على فضاء وفراغ وحيّاً
طيفها وسلّم .

(١) كناية عن العناق ، لأن الأذرع تكون حدوداً على الجسمين المعتقدين .

حيا وسلم ثم صافح تاركاً يده على الكبد التي أدمها
وأتى ليعتذر الغزال، وجلجت كلمات فيه "، ففي أخيها
ودنا ليغترف الهوى، فتهالكت أسرارها، فرمت به فرماها...
قلب الحبيب متى تكلم لم تجد كلاً، ولكن أذرعاً وشفاهاً...

* * *

وانتهى حلم الصلح لتوه لحظة شعرت أنه ابتداء... فلم يكن هذا
الحلم إلا «عملية» حب جراحية مؤلمة في القلب الذي كاد يبرأ وينسى...
كأنما طفئت من الهجر مكواة كانت محماة على كبدي فجاء طيفها
بما معه ليضع مكواة غيرها...!

وأصبحت - والله - أعتقد أن الشيطان لي خلق مضاعفاً لما خلق
إلا امرأة معشوقة...!

* * *

(١) البجلجة : التردد في الكلام وتكرير بعض ألفاظه ومقاطعها، قال الطيف: أنا أنا أنا
لم لم لم وهذا التلجلج يكون من حدة العاطفة وإدخالها الفكر .

في العتاب

« وكتب إليها مرة كتاب هوى ، فتفترت في الرد عليه تريد أن يطول به الانتظار فيؤله ، أو تريد أن تزيد به الشوق فيؤله ، أو كأنها تطمعه بالألا تطمعه ليتالم ! »

فلما انتهى فيه دلالها إلى الضجر ، كتب إليها هذه الرسالة يؤلمها بها وجعلها على طريقة السجع التي كان يتراسل بها فحول الكتاب في القرن الرابع للهجرة وما بعده ، لأنها هي تكره هذه الطريقة وتجد لها ألماً في نفسها ، ولذلك مضى بها مسجوعة إلى آخرها ، ليبالغ في إيلاهامها والتهكم بها وبفلسفتها ، وردت في الرسائل بكل ذلك إرادته على إرادتها ، وهذه هي الرسالة^(١) :

كتبت إليك من أيام يشفع لها قربك من نفسي فلا أقول إنها بعيدة وتغر قديمة ولكن ما في هذه النفس منها ومن آلامها يجعلها دائماً جديدة

(١) هذا النوع من العتاب كلذي يقول فيه العباس بن الأحنف :

إن بعض العتاب يدعو العت ب ، ويؤذي به الحب الحبيبا !

فهو عتاب لحض التهم وأذى الحب ، لا للاستعطاف ، ولا للاسترضاء ، فإن هذا نوع آخر له أسلوب غير هذا ، وكبرياء صاحب الرسائل أبت عليه أن يكتب في هذا النوع الاخير !

وكانها تجري بي إلى الفناء فهي تطول إلى غير حد ، وتأخذ معنى
اليأس الذي يمضي به الأمل فتلقي به في معنى الأمل الذي يأتي به الغد،
والأيام تعد بالأرقام ولكنك أنت جعلت هذه الأيام تعد بأنها لا تعد ...

وانتظرت رد كتابي، أو ورقة من شجرة عتاي ، فما زالت تتقطع
الساعة من الساعة ويلتقي اليوم باليوم، ويذهب اللوم إلى العتاب ويحيى
العتاب إلى اللوم ، وكتابك على ذلك كأنه مغمى عليه لا هو في يقظة
ولا هو في نوم ...

فسبحان من علم آدم الأسماء كلها لينطق بها وعلمك أنت من دون
أبنائه وبناته السكوت ... ، والسلام عليك في أزلية جفائك التي
لا تنتهي . أما أنا فالسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت !

ما هذا يا سيدتي وليس خيط عمري في إبرتك ، ولا ما يتمزق من
أيامي تصلحه « ما كينة الخياطة » بقدرتك ، وإن كنت أنا أقل من (أنا)
فلست أنت بأكثر من (أنت) ، وما علمنا أنك مع القدر تحركت ولا
مع القدر سكنت !

أتحسينك لما خفت (المحاكم) ، في قتلي جعلت تقتلين بهجر
أيامي ، ولما عرفت أنك من أشد سروري أردت أن أعرف كذلك أنك
من أشد آلامي ؟ أم أنت في نورك وظلامك تريدين أن تنقصي من
الأعمار ، كما ينقص منها الليل والنهار ؟ أم تحسبيننا خلقنا بهذه الرقة
لنعرف بها كيف يتحجر قلبك ويحمد وأنبتنا الله في مزرعة العمر
ليجيئنا منك صاحب المزرعة فيحصد ؟ أم أنت خلقت في يد الله إرادة

ماضية وخلقنا عليك اتكالا ، وجئنا على الطاعة شكلا واحداً وجئت
أنت من يد الله في الكبرياء أشكالا ...؟

فإن كان قلبك يا سيدتي شيئاً غير القلوب فما نحن شيئاً غير الناس،
وإن كنت هندسة وحدها في بناء الحب فما خلقت أعمارنا في هندستك
للقياس ، وهي قلبك خلق «مربعاً» أفلا يسعنا «ضلع» من أضلاعه،
أو «مدوراً» أفلا يسكننا «محيطه» في «نقطة» من انخفاضه أو
ارتفاعه ، وهيبه «مثلثاً» فاجعلينا منه بقية في «الزاوية» أو «مستطيلاً»
فدعينا نتمد معه ولو إلى ناحية ...!

ما بال كتابنا يمضي «سؤالاً» من القلب فيبقى عندك بلا «جواب»
و «نبيه» نحن على «حركة» قلوبنا فتجعلينه أنت «مبنياً على
السكون» ثم «لا محل له من الإعراب» ... وما بالنا نقطع في انتظار
الرد مسافة من هجرنا لو طار فيها البريد لانتهى بكتب الحسنات
والسيئات إلى السماء ، ولو طاف الأرض لتقدم حتى لا يبقى في الأرض
أمام ، وتأخر حتى لا يبقى من الأرض وراء ، فإن كنت تضنين أن
توجهي إلينا من عرشك خطاباً ، أو تنزلي علينا من سمائك كتاباً ،
فقد أقفل باب النبوة من قبلنا فها هذا الباب ، واحتجب الوحي من
زمن بعيد ، فيا سيدتي ما هذا الحجاب ؟

لعلك تخشين إذا جاءني كتابك الكريم أن يزعم الناس أن «جبريل»
أصبح في الأرض من سعاة البريد ، وأن السماء عادت تشرع لأهل
الأرض فجاءت فلاناً من فلانة بكتاب جديد ، .. أم لعلك تخافين إن

تحرك في يدك القلم الأعلى أن يتحرك به القدر العاجل فلا يحتمل التأجيل، ثم يحييني كتابك فتقوم قيامة العالم المسيحي، لأن هذا الكتاب صفحة ناقصة من الأناجيل...^(١).

* * *

لقد هممت أن أعاقب القلم الذي كتبت به إليك فاحطم سنه ، وأجعله من ناحيتي في خبر (كان) حتى لا يبقى من ناحيتك في خبر (إنه) ، وقلت : كيف - ويحك - سودت وجه صحيفتي بما هو في سواده مداد مع المداد ، وفي نفسه سواد أقبح من السواد ؟ فقال : وهل أنا في (نغمات) حبك إلا « عود » ، وهل صورت إلا حركات وجدك من قيام وقعود ، وسل الدواة من أمدها ، والصحيفة من أعدها ، وسل أناملك كيف كانت تضغط علي كأنها تسلم على الحبيبة سلاماً ، ولا تخط إليها كلاماً ، وسل نفسك كيف كانت في حركتي تضطرب ، وقلبك كيف كان من كلمة يبتعد وفي كلمة يقترب ؟

فما ندرى يا سيدتي وقد أحبيناك أنعدك في ذنوب الزمان أم في أعذاره ، وهل نأخذك في الحب من وقائعه أم في الجفاء من أخباره ؟ فإن أبيت أن تكوني منا إلا كالسما من أرضها ، وأن نكون منك إلا كالسنة من فرضها ، وأبيت وأنت « مفرد » الحسن إلا أن نعدك أنت وكبرياءك « مثني » بالف ونون ، وإلا أن تكوني على غير ما نريده ثم لا نكون إلا كما أردت أن نكون ، فإذا خاطبناك قلنا يا فلان...
.....

(١) هي سورة مسيحية كما يعرف الذين قرءوا (رسائل الاحزان) و (السحاب الاحمر) وهما الكتابان الموضوعان في فلسفة جمالها وحبها وبغضها ...

ويا أيتها الحبيبتان ويا غضباوان وراضيتان وأنشدنا في هواك :
 « ولو كان هما واحداً ... ولكنه هم وثن ... » ^(١) وإن أبيت إلا ما
 نابى ولم ترضي مع صدقنا في حبك إلا كذباً، قلنا لك بلغة اليأس منك:
 لشد ما أصاب الزمان فينا وأخطأ فليصب بك أو فليخطيء ، وكثيراً
 ما أعطانا الدهر وأخذ ، فلتكوني فيما يأخذ أو يعطي ، ونقول : مع
 الذكر نسيان ، وما عسى أن ينقص العالم بإنسانة أو إنسان ، ومن ظن
 «بصرفنا» عن نفسه أنه كبير، جعلناه من «نحوثا» في باب «التصغير» ،
 ومثلنا لا يتكلم إلا بفائدة . ولا يسكت إلا بفائدة . فإن أخطأنا معك
 في واحدة أصلحناها واحدة . وما أكثر ما يجد الكاتب إذا عز عليه
 أن يعاتب ، وفي ذكائك لا محالة ، بقية الرسالة .

ولعلنا ولعلك ... والسلام !

* * *

(١) جملة من بيت شعر ، وأصله :

ولو كان هما واحداً لاحتملته ولكنه هم ، وثن ، وثالث

في الأحلام

نصبت لي في الكرى حباله اصطاد صيداً من الصور
رأيت جسمي انتهى لحاله تضيء كالشمس والقمر

* * *

فطرت في النور أجتليه محاسناً تملأ السما
ولا ضوء بلا شبيهه إلا حيي تبسما
فقلت : هل بي يا قلب فيه لعلي أطفئ الظما

* * *

ناجيت قلبي بذى مقاله فدمدم الأفق بالشرر
صرخت : ما للفضاء ما له فقال : في قلبك الخطر

* * *

يا أفق هل خفت من شراره تحت الضلوع اسمها الفؤاد
أم سعر الهجر فيك ناره توقد من يابس الوداد ...
أم يوم حب قضى نهاره وحل من بعد السواد ...؟

* * *

فقال : وجه نرى خياله في قلبك الحامل الضرر
ارجع فلو أن ذي «الغزاله» تغازل النجم لانفجر

* * *

في معاني التهنيدات^(١)

تسكن قلبي رغبة ما أراها تتحقق له فيتخلى عنها .
ولا هو يتخلى عنها إذ لا تتحقق له .
هي بعض الممكنات الخيالية التي لا تخرج أبداً من القلب ، وكيف
تخرج منه ولا مكان لها في الواقع ؟
القلب وحده مكان المستحيل !

* * *

رغبتي كأنها حكم من أحكام الشوق النافذة على قلبي .
حكم عليه بأن يظل أبداً يريد ويشتهي .
أي حكم عليه بأن يطلب ولا ينال ...
يبحث في الموجود عن غير الموجود .
يراك ولكنه فيك أنت يبحث عنك أنت .

(١) لهذه الرسالة خبر بعد من الغايات في ظرف المداعبة . وذلك أنه قال لها يوماً : إني لأتمنى أن أراك حين تفضين رسالة حي وتقرئينها فإن الحب إن يكذب على إنسان لا يكذب على ورقة ... فقالت : بل هذا ما أريد أنا لأرى كيف تكذب حق على ورقة ؟ ثم سألته أنت يضع هذه المعاني في هذا الموضوع الطريف لتنظمها قصيدة باللغة الفرنسية ، فأتعب نفسه فيها وكتبها وبعث بها إليها ، ولبت أياماً ينتظر كتاباً منها حتى جاءه ، فلما قض غلافه رأى كلامه بحروفه ولكن ... ولكن بخطها ! أترأها تخاطبه بها أم كأنها نسخت له صورة من مقالاته التي عندها بخطه فلا رسالة ولا خطاب أم تقول له : أنا كالذاهلة من الهوى .

وأنت كسيكة الذهب : ليس فيها موضع أحسن من موضع .
ولكن قلبي مع ذلك يظل يبحث عن الأحسن .
قلبي المسكين محكوم عليه ، لا بالأشغال الشاقة ، ولكن بالأماني
الشاقة ...

* * *

رغبتي ستبقى دائماً بين معاني التهنيدات .
في مكان من القلب لا تتحرك فيه كلمات الأمل إلا تحركت معها
كلمة آه ... !

أتدري أيها الحبيب ما هي رغبتي ؟
هي أن أراك حين تتلقى رسالتي وتتلوها .
لأرى حقيقتك كيف تكون وليس أمامك إلا حقيقتي .
ولأرى بنفسي كيف ترى نفسي مكتوبة .
ولأعرف برأي العين : أنا أرسل إليك كلماتي أم خفقات قلبي .
ولأنظر كيف تخرج لك أسرار الكلمات من الكلمات ؟ لأرى ،
وأعرف ، وأنظر ...

* * *

ولكن يا صديقي ، لو رأيتك حينئذ لكنت أنت رسالة إليّ ،
فلا تكون ورقتي إلا ورقة ،
ويشغلني عن رؤيتها أني أراك ،
ويصرفني عنها أني منصرفة إليك ،
ويكون عقلك قد استولى على عقلي ،

وتذهلني أسرار عن أسرار ،
فلا أرى ، ولا أعرف ، ولا أنظر ...

* * *

ومع ذلك أتمنى أن أراك حين تتلقى رسالتي وتتلوها ،
لأرى كيف تتلقاني من خيالك حين ليس معك إلا خيالي ؟
ولأعرف رأي العين أن هو أي جزء منك ،
وأن كلماتي هي لمسات من قلبي لقلبك ،
ولأنظر كيف أكون لديك في صورة رسالة ؟
وأضحك من رؤيتك الورقة وجهاً له فم تقبله ...
لأرى ، وأعرف ، وأنظر ...

* * *

ولكن يا صديقي ، لو رأيتك حينئذ لكنت أنت رسالة إليّ ،
فلا تكون ورقتي إلا ورقة ،
وينسيني إياها أنك حاضر معي ،
وتموت الكلمات المكتوبة كلها في كلمة واحدة تنطق أنت بها ،
وتحول معرفة دون معرفة ،
فلا أرى ، ولا أعرف ، ولا أنظر ...

* * *

إذن فرغبتني ستبقى دائماً بين معاني التهنيدات ،
وقد تحركت الآن بكلمات الأمل ،
ولكنه الأمل الخائب الذي تأتي دائماً في آخر كلماته : آه . آه ... !

* * *

أليس كذلك

نظرة حب إلى الكون

إن شيئين هما أروع ما نعرف وما نجعل ، أحدهما : ذلك المجهول الأعظم المنبسط وراء العقل يترامى قفراً في قفر إلى ما لا نعقل من أسرار اللانهاية ، والثاني ذلك المعروف الأعظم المختبئ وراء القلب يعتمد صفة في صفة إلى ما لا ندرك من أسرار النفس .

وفي ذلك التعقيد السماوي تلمس الروح وضوح الألوهية ونعيم الجنة الخالد ، وفي هذا التعقيد النفسي يلتمسون وضوح الحب ونعيم الحبيب المعشوق .

أليس كذلك يا حبيبتي ؟!

كل ما في الكون هو من الضرورات لوجود الكون لأنه ممتلئ لا ينقص ، وما كان ضرورياً فهو مذهب واحد ليس فيه ما هو أكبر ضرورة ولا ما هو أصغر ، الكبير الكبير : كالصغيرة الصغيرة ، ولو أن مكاناً ليس فيه نفس واحد من الهواء لقتل الحي كما يقتله انتزاع كرة الجو كلها من مخارق هذا الفضاء ^(١) .

(١) أي من حيث ينخرق الفضاء ، أي منه كله .

وكل ما في الحبيب هو من ضرورات عشقه إن صح العشق، فكأنما هو يتجه أيضاً مع الكون إلى اللانهاية ، بل كأن كل حبيب في خيال محبه إنما هو الوسيلة التي استطاع الكون أن يعبر بها عن جماله لإنسان في إنسان ببلاغة تختلف مع الأذواق كما تختلف البلاغة الإنسانية ، هذه يقولون في تعريفها إنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وتلك يقول الكون نفسه في تعريفها إنها مطابقة الشكل الجميل لمقتضى الإحساس .

يضيق هذا الكون ثم يضيق حتى كأنما يجتمع عند العاشق في المعشوق وحده ، وبهذا لا تجد حبیباً إلا بلغ عند محبه ما تنهى إليه الحسن في أرضه وسمائه ، حتى هو الشمس والقمر وكل ما جرت فيه أشعتها من ذهب الجمال وفضته ، وبذلك جمعت اللغات أحسن ما في الكون وأجرتة في تشبيهات الحبيب وألفت من ألفاظه لغة الحب .

فهل يكون في العقل من هذا ومن ذاك إلا أن الكون قد تناول النفس العاشقة حين ضاق ثم ضاق ، فوسعها ثم وسعها حتى أفاضها من معاني الحبيب على المعاني الأزلية ، وجعل عهدها بالحب أياماً في لذتها ، أو نكدها كأنها ليست من أيام هذه الدنيا ؟

لعمري لو أمكن أن تأتي إلى الأرض رسالة من إحدى الحور العين في السماء لما أمكن أن يتلقاها إلا عاشق على شفطي حبيبته أو خدها ، ولو بعثت الجحيم برسالة من زفيرها وشهيقها ، لما وقعت إلا في صدر عاشق يتلهف من هجران حبيبته أو صدها !

أليس كذلك يا حبيبتي ؟

* * *

في السكون حياة أبدية فياضة لا تفتأ تعمل بالسلب والإيجاب ،
كان هذا الكون العظيم يتحول في كل لحظة ليخلق ، فهو في كل لحظة
صورة جديدة ، وما كان فيه سلباً فهو الذي يجذب في مذهبته وتصاريقه ،
وهو مبعث القوة المبدعة ، وهو الذي يحقق أشكال الحكمة في جلالها .

وفي العشوق حياة فياضة تخيل لمحبه أبدية وهي إلى وقت ،
ولا تزال كذلك تعمل في خيال محبه ، بالسلب والإيجاب ، وهي السر
في بقاء الحبيب طريفاً جديداً ما بقي حبه ، كأنما يتحول في كل يوم
ليخلق ، فهو في كل يوم صورة غير صورة أمس ، وهو دائماً معشوق
الساعة وقد خلدت عليه النظرة الأولى ، وكل ما تكرر منه من ضحكة
أو كلمة أو نظرة أو ما إليها جاء لوقته كان فيه حياة .

وكانه مولود لا مصنوع ، ولدته رغبتك ولم يصنعه هو ، فانت
تتلقاه كما يتلقى الأب أو الأم أولاده وقطع كبده ؛ لا يزال عليهم كل
يوم طابع قلبه .

وما كان في الحبيب سلباً فهو الذي يفتن في دلاله وامتناعه وهو
مبعث سحر الجاذبية ، وهو الذي يحقق من جماله الخيالي أشكالاً تتلف
عليها الروح لهفة الظمان الضائع في القفر على تموج السراب وصبغة
الرمل الجاف الملتهب بلون الماء البارد الصافي .

يمنعك الحبيب ما تشتهي منه ، فإذا هو قد منحك الخيال ولذته
وسحره ، وإذا هو قد جعلك بالسلب كالمرآة لا تتلقى إلا لتعكس -
فأنت للحب والشوق ، ولكنك أيضاً للتفسير والتعبير ، وتجذب في قلبك
من أثر ذلك النقص تكامل الحياة ، ويصبح عندك فهم الجمال جزءاً من

الخلق والفكر ، كما هو فيك جزء من الحاسة والعاطفة ، فإذا نار قلبك
تحرق المعاني ، وإذا كل شيء يتفجر لك عن ضوء أو شعلة ، ويحقق
لك الحب : أن الله نور السموات والأرض ..
يا حبيبتي أليس كذلك ؟

* * *

إذا لم يكن ما نعهه بغيضاً شيئاً مفصلاً عن الكون فهو
- ولا ريب - من ضروراته ، وهو بهذا من أجمل جماله في معنى
التكوين والإبداع ، غير أننا لا ننظر منه إلى هذا المعنى ، ولا نعتبر
صلته بالوجود ، بل ننظر إليه بمعنى التكوين الذي فينا ونعتبر صلته
بنا ، فلا يكون من هذا إلا أنه قبح وسميح من قبحنا لا من قبحه .

فالكون بما فيه من أثر الخالق هو اتساق واحد منسجم لا شذوذ
فيه ولا تنافر ولا قبح ولا بغض، ولكننا نحن بما فينا من قوة الخلق^(١) ،
نتمرد على الانسجام والاتساق ، إذ لا نملك من ضعفنا إلا خلق هذا
التمرد ، وتتطلع شهواتنا ورغباتنا إلى شيء ما فيكون جيلاً وحبیباً ،
وتتصرف عن شيء ما فيكون قبيحاً وبغيضاً .

ومن هذا فليس في الكون إلا الحب والجمال والخير إذ سقطت
الشهوات، إذ كل شيء حينئذ يكون مقصوراً على حقيقته التي لم نفسها
بتغييرها ، ولأن قبح شيء من الأشياء إنما هو صورة انحرافنا عن

(١) لا تستعمل كلمة الخلق للإنسان إلا في إيجاد الأوهام والخيالات والصور الكاذبة ،
ومنه قوله تعالى « وتخلقون إفكا » ، أو في التحويل ، ومنه قوله تعالى « وإذا تخلق من
الطين كهيئة الطير » ، ولا تجوز غير ذلك بما يستعمله ضعفاء الكتّاب في هذا العصر .

إدراك لا حقيقة وجهلنا بناحية اندماجه في قانون الاتساق الإلهي .

أفليس بذلك يكون المشوق الجميل كأنه تهذيب علمي لروح من
يهواه ، وتدريب له على الاندماج بفكره وعاطفته في جمال الخليقة ؟

أليس بذلك يكون المعشوق الجميل هو الوسيلة التي يتعلم بها العاشق
علم قلبه . أي فن الارتفاع بالأشياء الجميلة عن سذاجتها الفطرية
ولمكسابها في روحه الإشراف الإلهي ؟

أليس بذلك يعمل العاشق في جمال العالم ، ويكون الجزء الإلهي
فيه هو الذي تحرك للحب لينكشف حبيبه بمعانيه السامية ، ويشهد
جمال ذاته في الصورة الجميلة التي يهواها ، حتى ليستطيع أن يقول
لحبيبه: يا نفسي ويا روحي! وهو يحس أنه على الحقيقة نفسه وروحه،
إذ يرى أنه متعلق به تعلق الطفل بروحه الكبيرة في أمه وأبيه ؟

وهل غير الحب علم الإنسان كيف ينادي روحه ونفسه في غيره؟

أليس كذلك يا نفسي ويا روحي...؟

* * *

النجوى

وبي زهرة في جانب النيل قد نمت فرف عليها إذ يروح وإذ يغدو
لطاقته في طبعها الحب والرضا وتياره في طبعها الهجر والصد
ويحكي وفاء النيل فيض وعودها ويا شد ما ينحط من بعدها الوعد
وفي زمن تصفو علي كما صفا وفي زمن ما من « تكدرها » بد
ووالله ثم الله ، إن حلاوة من النيل للعينين في فها تبدو
وإني وإياها على ظمأ الهوى أنا الفم هذا الهوى وهي الخد

* * *

آه ! وأنا حين أقول : آه ، أحسبها شعلة تتلوى ذاهبة ممتدة في قلبي !
آه ! وأنا حين أقول : آه ، أشعر أن قلبي يدها طويلاً طويلاً
لتصل إلى قلب آخر !
آه ! وأنا حين أقول : آه ، أراني كأن روعي طارت إلى آخر
مدها ووقعت !

* * *

وكنّا في يوم من أيام الربيع وكل شيء حولنا يتكلم بلغة الشمس في
لمعة وضوء وجمال ، وفي الأزهار معانيها الغزلية التي بها وحدها تظهر
الطبيعة في رقة امرأة عاشقة .

وفي الهواء نسمات بليلة متعطرة قد خيمت فيها روح قبلة
متعرضة^(١) كان الرياض في نشرها الزكي^(٢) مصانع يقلد فيها الربيع
صنعة أنفاس الحبيبات .

وفي الزمن ذاتية واضحة أشعرتني أن كل ما حولي هو تعبير بهم
أن يتكلم .

وكانما سقط قوس قزح من السماء وماجت ألوانه بعضها في بعض
فغطى الأرض ألواناً شتى بأزهارها وأعشابها .

وكان السماء مازجت قلبي في تلك الساعة فاضاءته بنور الفجر
الندي العبق بالنسيم ، الملون بالشفق ، المتحرك بالسحاب .

وكنّا في صباح جميل يشعرونا بكل ما فيه أن شمسهُ طلعت لنا وحدنا .
وكان كل شيء يرف ويزهو كأنه طبع بقبلة من شفيتها .

وبدا الصباح عليها بمعاني الرياض ، وعلى الرياض بمعانيها هي ،
فاجتمع نشاط الكون ونشاط قلبي ، وتقتلت كما تقتتل^(٣) ... وقالت
ضاحكة : لا أحبك !

قلت : إن فيها « أحبك » وهذا يكفي !

قالت ، وزادت في ضحكها : أعني أبغضك !

(١) خيمت الرائحة في الثوب أو المكان : إذا أقامت .

(٢) النشر : الفوح الطيب .

(٣) يقال : تقتلت له المرأة ، أي تعرضت له ، هكذا فسروه ، والتعبير من أدق ما في
لغات البشر قاطبة ، ولا نظن أن في غير اللغة العربية ما يقاربه ومعناه : أن المرأة الجميلة
حين تتعرض لحب الرجل تبرز مقاتل أنوثتها واحداً واحداً ، فكأنها تقتتل له ... وهذا
تعبير دقيق جداً الى الغاية .

قلت : ولكنه بغض من تضحك كما أرى ...!

قالت ، وزوت من وجهها وتكلفت العبوس قليلاً : أعني ...

فابتدريتها أقول : إن تكلف وجهك ينطق بأنه لا يعني ...!

فذهب بها الضحك مذهباً ظريفاً وقالت : الآن قطع بك^(١) ، فلقد

كنت أريد أن أقول « أعني أحبك » فنفيته أنت فانتفت !

قلت : بل الآن وصل بي ... ما دمت قد قلت « أعني أحبك »

وأثبتها أنت فثبتت ...

قالت واستطلق وجهها : إني والله أجد من سروري أن أعجزك ،

ولكنك داهية لا تعجز ، ولا يزال في لسانك جواب ما أقوله

وما لم أقله !

فقلت : وأنا والله أجد من سروري أن أقدر ، ولكن هل أقدر

على ما هو مقدر ؟ إن بعض كلماتك هي الآن كلمات ، ولقد تكون

غداً حوادث !

فاعترضني قائلة : أنت تنظر في نور من خيالك مع نور الطبيعة ،

فترى أشياء كثيرة غير الأشياء .

قلت : ولكنه هو النور الذي يقيد الطبيعة كلها بمنظر واحد ...

قالت : أهو منظر جميل ؟

قلت : بل الجمال بعضه ..

قالت : وما عسى أن يكون باقيه إذا لم يكن الجمال إلا بعضه ؟

(١) انظر الرسالة السابعة من (رسائل الأحزان) ، ففيها ما يشبه هذه المحاوراة الطريفة على طريقة أخرى ، وهناك وصف مجلس كهذا المجلس .

قلت : إن في قلبي كلاماً يسمع من غير أن أتكلم به . وفيه
جواب سؤالك !

فاستضحكت وقالت : وعلى هذا فهمت من غير أن أفهم ...
ألا قل لي ، لماذا تكون لغتك هكذا ؟

فقلت : لأن الحب يجعل كل سهل واضح في الأشياء غامضاً معقداً
في النفس ، وهذا هو سره ، وبهذا يرتفع عن الإنسانية ويجنح إلى
التأله ، وبسره وتأله يخلق كل ما يمسه في صورة ثانية مع صورته التي
تقوم به ، فيجعله بصورتيه من الكون ، ومن النفس العاشقة أيضاً ،
وليس من شيء خلق مرتين ، ولكن أشياء الحب كلها كذلك
خلق ثم خلق .

ليت شعري ، أيعذب العاشق المسكين بهذا التأله الخيالي فيكون
عقاباً شديداً بطريقة غير أرضية ؟ أم ينعم به فهو ثواب عظيم بطريقة
غير أرضية كذلك ؟

انه لسر عجيب رائع في قلب من تيممه الحب، يدل عليه انه ما من
عاشق إلا وهو يرى أن رضاه عن جمال حبيبته ، وتكوين أوضاعها
وتناسقها ومشاكلتها بعضها بعضاً ، كرضا الصانع عن صنعته وافتنانه بما
أبدع واخترع وبما أتقن وأحكم، كأنه هو قدر وسوى، وسوى وخلق،
ولو جاز أن يهبه الله القوة على أن يذراً ويبرأ، ثم أمره أن يخلق لنفسه
امراً ، لما صنع إلا هذه التي أحبها بكل ما يحبه فيها ، وإن لم يستطع
الحب أن يخلق إنساناً فهو يخلق إنسانية .

بذلك لا يفهم هذا الحب إلا في أسلوب ملتو ، لأن له طرفاً غائباً

وراء النفس ، كالعود من الأعواد غمس أسفله في الماء فلا يترأى للعين في صفحة الماء إلا ملتوياً متشياً ، لا يعمل من ذات نفسه ، بل بموضعه وبتأثير أحكام الضوء في موضعه .

والحب يشبه ألوهية دون حدها ، فهو بهذا مفهوم غير مفهوم ، ويشبه إنسانية فوق حدها . وهو بهذا أيضاً مفهوم غير مفهوم، ولا نراه أبداً إلا مصرحاً غامضاً . إن صرح من جهة الحاسة غمض من ناحية الفكرة وكل دونه هو في النفس يأتي من بعده في الموضع والقيمة والاعتبار، لأن في الحب وحده المعنى الأكبر للحياة في وهم الحب ، على حين كل ما في الحياة هو في الواقع أكبر منه ، ولن يعيش من لا يأكل ولا يشرب ، على أن من لا يحب نراه يعيش^(١) .

قال وضحكت : بذلك لا يفهم الحب ، وبذلك استطعت أن تجعل لغتك هكذا ...

قلت : وبذلك أيضاً استطعت أنت أن تجدي مخابىء لغوية كثيرة تخبئين فيها الكلمة التي تريدين النطق بها ولا تنطقينها ، فصارت لغتك عندي تفسر من معجمات كثيرة : من نظرة والتفاتة وخطرة وحركة ، ومن شيء ومن لا شيء ، وتقولين الكلمة بما شاء دلالة من أساليبه الكثيرة ، إلا بأسلوب النطق كأنها تراغمك على أن تظهر وتراغمينها على أن تختفي . أتعلمين أنك كالدولة من الدول العظمى ، حاشدة كل

(١) قالوا : اجتمعت أدبية بمحبها ، وشغلها الحديث ومر وقت الطعام فقال : ما لي لا أرى ذكراً للطعام ؟ فقالت له : أما في وجهي ما يشغلك عنه ؟ قال : بأني أنت وأمي لو أن جيلاً وبشينة اجتمعاً يوماً لا يأكلان ولا يشربان لبصق كل منهما في وجه صاحبه وانصرفا .

وسائل الحرب ، معدة لها في كل وقت ، فهي بذلك ظافرة غالبية من غير حرب ، كأن وسائل الحرب تقاتل من غير أن تقاتل^(١) ؟

قالت : يا ويحك ! فإذا قبلت منك أني دولة عظمى ، فكيف أقبل أني « أكاديمية » عظمى ... حتى تجعل لي معجمات كثيرة ؟ وترى ما الذي يمكنك أن تفسره من معجماتي ؟

قلت : يا ويح غيرك !^(٢) أمكنني يا جبارة المستحيلات ما أمكن الغزال من جبار المكنات ...

قالت : أسألك عن مستحيلاتي ، ولكن ما هي ممكنات غزالك ؟

قلت : إن غزالي هذا كان فيلسوفاً لا يصدق إلا ما يقره ، ولا يقر ما لا يمتحنه ، على طريقة الفيلسوف (كانت)^(٣) .. ولم يكن رأى سبعا قط ، وهولوا عليه في أوصافه ورهبته وسطوته ، فلم يصدق شيئاً من ذلك إلا أن يراه ويدرسه درساً تحليلياً ، كما تسمين أنت كلامك وفلسفتك. قالوا : فاطال الغزال الفكرة في ذلك ، ودبر أن يلقي الأسد ويدرسه. ثم إنه قسم الدرس إلى أعمال خمسة على هذا النسق: فالأول أن يتجسس مخالب السبع ثم يعجمها ويدق عليها بججر ليعرف مبلغ صلابتها ويقف على سر تركيبها .. والثاني ألا يكتبني بمثل هذا الصنيع

(١) تمنع الاعتداء فكأنها تقاتله وترده الدولة المستعدة ، إذ يقبها غيرها .

(٢) يقول العرب: ويحك ! واستعملها عدي بن الرقاع في شعره : ويح غيرك ، اضطراباً لإقامة الوزن ، ولكنها بذلك تكون في غاية الظرف اذا وقعت في مثل موضعها هنا .

(٣) هو الفيلسوف الألماني الشهير المتوفى سنة ١٨٠٤ ، وكتب على قبره (التاموس الأخلاقي في ، وسماء النجوم فوق) وكان في دروسه يحمل الأخلاق والدين فوق كل شيء ، ومنهجه في البحث والامتحان أساس التفكير المستقل .

في الأنياب ، بل قرر أن يحطم واحداً منها ... ليعلم ما سر قوتها ومضائها، والثالث أن يتناول عضلات الأسد في زوره ورقبته وأعضاده فيغمزها غمزا شديداً لعلها من ورم أو شحم وما يدري الناس، والرابع أن يجيء بالموسى فيخلق لبدة الأسد فيكشف عما تحتها ويرى منظره وقد عري منها ، فلعلها من شعوذته في القوة واحتياله على مظهرها ورهبتها ، والخامس أنه متى فرغ من كل ذلك حلق في عيني الأسد ودرس ذلك الملح الخفيف من شعاعها ، فإن لم يبلغ من ذلك ما أراد علمه وفلسفته اقتلع إحداها وأسألهما وبحث فيها ما شاء !

قالوا : ولما جاء العرين وأصبح من الأسد برصد وهبت رائحة لحمان أجداده ... قال : النجاة النجاة ! ما هذا بالذي خلقت له فلسفة رأسي ولكنه الذي خلق له عدو ساقى .. ووثب يشتد مع الريح ^(١) .
ولكن آه من تعقيد الحب ، إن الفيلسوف المتهزم الآن هو الأسد بلبدته وأنيابه ومخالبه وبكل ما هو به أسد ، والمنتصر هو الغزال بلبينه ونعومته وبعينه الكحيلة وبكل ما هو به غزال !
قالت : آه ! ولم تزد .

* * *

قلت : آه ! أنت يا حبيبتى فيَّ ، وأشعر بك دائمة الاندفاق والانصباب في نفسي ، كأنك جمال لا ينتهي ، وكأنني عشق لا يمتلىء

(١) ترى أمثالا من هذا النحو في كتابنا (تحت راية القرآن) وفي النية إن شاء الله وضع كتاب منها في معارضة كتاب كلية ودمنة ، فإن العربية خالية من كتاب في ذلك تسميه كتابها وتقابل به ما في اللغات الأخرى ، كما كانت خالية من رسائل الحب .
قلت : وأنظر ما كتبنا عن ذلك في ص ١٦٥ من كتابنا (حياة الرافعي) .

وأنت خارجة عني وبى شوق دائم النزوع إليك ، يخيل إليّ والله أنه
ملء الكون لا ملء صدري : وأنه لا يزال شاردًا متسحبًا على الوجود
كله لا يجد ما يستقر عليه ، مع أنه واجدك ، ومع أنه حائم عليك ،
وما ذلك إلا لأنك دائمة الدلال ، أي دائمة الانحراف عن لمسات قلبي ،
أي دائمة الاهتزاز بمعانيك الجميلة ، كيلا تثبت صفة منك على صفة مني ،
كيلا نتعانق حتى ولا في المعاني .

أنت اثنتان عندي وليس في يدي من واحدة شيء ، وإذا كثرت
الآمال لتكثر حسرات الإخفاق عليها ، فلماذا لا تقول إن الأمل هو
الاسم الصحيح للخيبة ؟

إنك لي كالرؤيا من الرؤى السماوية ، فالتى هي أنت ليست في التى
هي أنت ، وبذلك فالتى أحبها فيك لا يمكن أن أجدها فيك^(١) ، كأننا
نتلاقى في عالم بعيد من وراء ظواهرنا .

كأننا قامت منا في الحب حدود دولتين ، فلن يتقدم حد منها إلى
حد ويكون بينهما سلم ، ولا سلم إلا في هذه الوقفة الثابتة ، ولا إخلاص
ولا محبة ولا ثقة إلا أن يدق مسمار الزمن في كليهما فإذا هو من الآخر
بعيد على قرب قريب على بعد^(٢) !

كأننا نعيش في أمس ، يجيء يلبس كل يوم من أيامنا لا قوة تناله

(١) أي هو هوى التى هوأها ليجد فيها مسرات الحب ، وهذه ليس فيها إلا عذاب
الفلسفة .. كما يعرف من وصفها في (رسائل الأحران) .

(٢) إذا كان السلم بين دولتين متجاورتين ، فأبعد الأشياء منالاً عن كل منهما حد جارها
الذي هو أقرب الأشياء إليها .

فتزعه ، ولا قوة تناله فتبليه ، فما تزال تتجدد من تحته أيام الحب في سر منا ، ونعطى كل يوم عالمنا ولا نأخذه ولا نتلقاه !

كأننا في يوم هجر خالد علينا، فكل ما يأتي بعده من الأيام ميت فيه لا محالة ، إذ أيام الحب إنما هي بنسبتها إلى الحبيب لا إلى الزمن .

كان هذا الحب قد ضرب بيننا وبين الحقائق بسور ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب ، فكل ما رأيناه رأي العين من فرح الأشياء ولذاتها ، علمناه في علم أنفسنا أوجاع مكابدة وآلام حرمان...!

* * *

فاضجرت فلسفتها هذه الفلسفة فقالت وإبتسامتها ظاهرة على قولها:
وأما قبل^(١) ؟

قلت : وأما قبل فكأنما أنا المكان الحي الذي تن في الأشياء أنينها الباكي ، وتبتغي فيه موسيقى الحب من أوتار متقطعة متبعثرة إن جاءت بشيء فبانغام موتى أو مرضى ، وإني لأحسب الدنيا كلها تصدح من حولك تلقين فيها النغم ثم لا تحبس الصمت إلا لي أنا وحدي.

قالت : أف للشاعر من الشاعر نفسه ! أنت كما تريد من الحياة مسرة لا ابتسامك تريد منا آلاماً لعبوسك الشعري ، وإذا لم تجد الألم أوجدته واخترعته ، كانه لا بد لمن يصنع شعراً أن يصنع مقادير يفرح بها ويحزن !

ما أراني أفهم عنك حين تقول : السماء والطبيعة وهي ، والشمس

(١) مرت رسالة (أما قبل) فانظر فيها وفي سبب هذه الكلمة ومعناها .

والقمر وهي ، والخير والشر وهي : فأنت وحدك تفهم هذا ، لأن
للشعراء شياطينهم، فلك مثلهم شيطان يحدثك وتحديثه، وترى ما اسمه .

قلت : اسمه « هي » ...

وكأنما كان الشيطان غائباً في سفر طويل ورجع عند ذكر اسمه ،
فلما رآها هي اسمه ألقى فيها سحراً من سحره فإذا على ثغرها برهان
ثغرها ... وقالت : اسكت !

قلت : لقد عرفنا الشيطان باسمه ...

قالت : اسكت !

قلت : ما يسكتني ولا الشيطان نفسه .

فمدت إلي نظرة طويلة كلها براهين على قوة هذا الشيطان الفاتن ،
وقالت : اسكت اسكت !

ثم لا أدري ما الذي أسكتني حينئذ .. أحسب أن الشيطان سد
فمي بفمه !..

* * *

آه ! وأنا حين أقول آه ! أحسبها شعلة تتلوى ذاهبة ممتدة في قلبي !
آه ! وأنا حين أقول آه ، أشعر أن قلبي يمدّها طويلاً طويلاً لتصل
إلى قلب آخر !

آه ! وأنا حين أقول آه، أراني بعدها كأن روحي طارت إلى آخر
مدّها ووقعت ، آه !

* * *

هل أخطأت ..؟

قالت له يوماً في أمر من الأمور : « قد أخطأت ! » وغضبت أو تغضبت .. فكتب إليها هذه الرسالة :

لقد قلت يا حبيبتي إني أخطأت ، ورميتني بها كلمة مقفلة لا منفذ منها ولا مخرج ، ولا أدري والله كيف أخطأت ، ولكنك لما قلتها وتغضبت فيها وتعتبت لها أثبت في الكلمة معناها ...

ولو أني راجعتك في ذلك مئة مرة ، ولكل مرة برهان ومع كل برهان اقتناع ، لما استطعت أن أنتزع دلائك أو نعتك من هذه الكلمة . فانا بدلالك أخطأت لا بعمل ، وبرغبتك في الإساءة إليّ قد صرت مخطئاً لا بإسأاتي ، والتهمة ثابتة عندك لا بواقعة ولا دليل ، ولكن بثبوت حيي لك !..

ولقد نظرت إليك حين قلتها ونظرت إليّ ، فكانت شفتاك تتهان وعيناك تعتذران ، وكان لساني يعتذر وعيني تتهم ، وكانت الكلمة نفسها تكاد تقول : ما جئتك لأدل على معنى وقع منك أنت ؛ بل على معنى وقع فيها هي ..

وقد اعتدت منك في بعض حالات قلبك أن لا تضعي المعنى في

اللفظ الذي هو تعبيره ؛ بل في الذي هو تعبير ما بيني وبينك ، فعنى قولك إني أخطأت ، يجيء في تعبير آخر كأنك تقولين : تذلل لي .

* * *

لا تزال الكلمة كلمة من اللغة حتى تقولها أنت ، فإذا هي كلمة من الفن؛ وإذا فيها ذاتية وحياة ولها تاريخ؛ ولو بمرورها من شفيتك ! أنا أخطأت لأني لم أخطيء ... فهي كلمة حب من معنك أنت لا من معنى الخطأ اللغوي ، ولذلك أقرها ، فإذا قلت لك ، نعم تجيء هكذا : هل ترضيني ؟ نعم أرضيك ! أأست تطيعني ؟ بلى أطيع ! هل تتذلل ؟ نعم أتذلل ! هل أخطأت .. نعم أخطأت !

وأرضيك ، وأطيع ، وأتذلل : كلها بمعنى أحبك أحبك أحبك ! فما رميتني بخطأ ولا أجبت بإقرار ولا بقيت للكلمة عقدة تمسكها في معناها ، ولو رأينا لرأينا الحب يضحك في هذه اللفظة بمقدار ما تعبس فيها اللغة !

* * *

وكلمات الحب كلمات يتغير عليها الحس فتفهم على أوجه مختلفة وتشاكلها معان كثيرة ؛ وكان طريقة قولها تخلق فهمها ، فما هي من عام اللغة بل هي من خاصها ، إذ اللغة بين أهلها جميعاً وهذه بين اثنين خاصة ، واللغة ألفاظ مفسرة بما تلبسه ، وهذه تفسر بما يلبسها ، واللغة تشير إلى الموجود إذ لا يراد بها إلا التعبير للفهم ، وهذه تشير إلى غير الموجود أيضاً إذ تريد مع الفهم العاطفة ولا بد أن يعطى فيها القلب إرادة .

ورب كلمة ينبذها إنسان لإنسان فإذا هي على قلبه كالريح السافية
تعقد في الظهيرة ضباباً خائفاً من تراب الأرض ... فإذا ما لفظها
حبيب لحييه نسمت على قلبه كرويحة الفجر في ضباب من الطل
والندى ، على حديقة ملتفة ، إذ كانت هناك في منطقة اللسان وكانت
هنا في منطقة القلب ، وكانت ثمة في جو من عداوة قائلها وكانت هنا
في جو من حب قائلها !

* * *

أنت علمتني بحبك أن هذا الكون على اتساعه موضع خاص بقلبي
وحده ، ففهما اتسعت اللغة في مذهب تعبيرها ففي قولك إني أخطأت
معنى خاص بي وحدي يا حبيبتى ...
وأنت أريتني أن الجمال هو تصوير الحياة بك ، فكلامك لي هو
تصوير اللغة بك وحدك أيضاً يا حبيبتى ...
وإذا ابتسمت وقلت إني أخطأت ، فتلك ألفاظ متبسمة من دلالها ،
وإذا عبست وقلت إني أخطأت ، فتلك ألفاظ متعنتة من دلالها ، إذن
فاعلمي أن في كلمات غضبك معنى كذلك أراه لي وحدي يا حبيبتى ...
وكلام الكبير مع الطفل يكون بلغة واحدة وهو في الحقيقة
بلغتين لمعنى عاجز في الطفل^(١) ، وكلام الحبيب مع الحب بلغة واحدة

(١) الكبير قوي في الإدراك محيط بصور كثيرة من المعاني ، والطفل قليل الصور
الذهنية في إدراكه فيفهم من كلام الأول إذا فات قدرته عجائب وغرائب في لغة ليس فيها
عجيب ولا غريب ، وكذلك الحب ، يتأول الكلمة من حبيبه فيخرج منها تهاويل وتهاويل ،
وربما قضى ليلة الى صباحها في تفسير لفظة واحدة صحبتها إشارة أو لابستها قرينة ، وقد
لا يكون فيها غير معناها ولكن العاشق يريد فيها رغبة لا معنى ، فكأنه من همه بها
مكلف أن يخلق منها خلقاً . وهكذا .

هو كذلك بلغتني معنى قادر في الحب . فالعنى المفهوم من إحدى اللغتين في قولك إني أخطأت ، هو يا حبيبتي لي وحدي وكما أفهمه أنا وحدي ..

وإدلالك عليّ برهان خاصيتك مني ، فلم لا يكون اتهامك إياي برهان خاصيتي منك ؟

سأثذل لك يا حبيبتي وسأرضيك وسأطيعك و .. وسأخطيء ...!

* * *

قلت وقالت^(١)

قطرات الماء القليلة جداً إذا أصابها الظمان الذي بلغ به الظماً
جفاف الروح ، تحولت في تسعير خياله والتضرم على كبده قطرات من
اللهب الأبيض... وكذلك في ظماً الحب ، فإن القليل جداً مما يداوى به
الحبيب ، هو الكثير جداً مما يمرض به المحب ...!

* * *

قالت له : اغضب ما وسعك من الغضب وما وسعت منه ، فإن
غضبك هو نفسه من مقاييس الرضا ! ألم تر إلى الحريق في البرق وإلى
الصواعق في الرعد، أذاك من امتلاء السحاب بالنار أم من امتلائه بالماء ؟

* * *

الحب أن يخيم جو موسيقي على بعض أيام العمر ليم فيه الانسجام
بين نفس عاشقة وصورة جميلة ، إذ لا بد لانسجام الجمال في الحب من
أن يكون المعشوق عند محبه في مثل تناسق اللحن الفني لا يخرج منه
شيء عن الوزن والطرب ، فإذا كانت العمر صفحات مكتوبة فأيام

(١) انظر فصل (قالت وقلت) صفحة ١٤٤ ، فهذا تكملة لما هناك .

الحب الصفحة المكتوبة بعلامات النغم ، لا يقرأ شيء فيها إلا لحن ورن ورجع وصلصل^(١).

* * *

وتعاتبنا مرة فغضبت ، فقال لها: فلنفترق ، فما في الغضب من شيء إلا أنه عناد الموقف ، إن الموقف بين متكلمين أو متساجلين هو موقف حي ، فما أسرع ما يثب القلب إلى القلب في لفظة غاضبة ، فإذا اللفظة من ذلك كأنما ملأها الدم ومثلتها الحياة فأصبحت شخصاً غير الاثنين لا يبالي بهما نفعاً ولا ضرراً !

فاستضحكت لهذه الفلسفة وفككت لكلامه - وما يعجبها شيء ما تعجبها المعاني - ثم قالت : إذن يمكن الاتفاق وتقرير الأمر مع الكلمة . أي مع الشخص اللفظي الغضبان لا معك أنت ... !

* * *

وقالت له في أمر : أنا راضية بحكمك فاحكم .
قال : قد عرفت الحكم ولم أنطق به ...
قالت : فهل الحكم عطر في منديلك أعرفه من الهواء ؟
قال : بل عرفته بنفسك الرقيقة الملهمة : وأما والله يا حبيبتي لو كنت محامية لسرقت من أدمغة القضاة أحكامهم ...
قالت : منزلة رفيعة ولكنها على سرقة وتلصص .
قال: يا عزيزتي يلذ لي أنها سرقة، لأتخيل لها قانوناً ومحكمة وقضاة.

(١) الصلصلة : الصوت الرنان . والترجيع : أن يرجع بعض النغم على بعضه للتطريب .

قالت : ثم ماذا بعد قانونها ومحكمتها وقضاتهم ؟
قال : أرافعك إلى تلك المحكمة وأتهمك بتهمة سرقة قلب ... !

* * *

الحب طفولتنا الكبيرة كل ما تملكه أن تبكي وتضحك وتمكر
وتتافق ، ومعنى ذلك كله أريد أريد ! ولو أمكن أن يكبر الطفل
ويبقى طفلاً لكان هو العاشق بذاته ، ولكن حبه لأمه وأبيه مضاعفاً
عند السنين التي كبر فيها - هو العشق بعينه !

* * *

الدموع أوهى من أن تهدم شيئاً ، ولكنها تهدم صاحبها !

* * *

الدموع هي روح المحيط السماوي ، ألا ترى أنها لا تسيل إلا مع
الأقدار ؟ متى نزل القدر نزل الدمع .

* * *

المعنى الذي يكون في النفس أكبر من الكلام في الحزن ، والفرح
هو وحده تعبر عنه النفس بدموعها .

* * *

سأها مرة : ماذا يقول البحر لو سقطت فيه دمة من مهجور ؟
فقلت إنه يقول : إنسان أحق أو مخبول يحاول أن يجعل له بجزاً
من قطرتين ...

قال : أراك يا فيلسوفتي لا تفهمين لغة الوجود !

قالت : فما ترى أنت ؟

قال : إنه يقول عندئذ : تباركت يا رب ! أنا الجبار المالىء ثلاثة أرباع الأرض ، قد آلمتني دمة حب متآلم ؛ فهل هو يحمل ثلاثة أرباع الهم في الأرض !

* * *

في نوح اللحن الشجي صورة الدموع التي في أعيننا ، وإذا حن كانت فيه شهوة نفس ، وإذا جنح إلى الطرب كانت فيه رغبة واقعة . وليس في الكون ما يجمع هذه الألحان الثلاثة المتباينة في صوت واحد إلا زفرة الحب يأسى العاشق ويحن ويطرب فيقول : آه ..

* * *

لو سألتني : من أعظم أهل الفنون على وجه الأرض ؟ لقلت لك : كل حبيب جميل هو في عين محبه أعظم أهل الفنون ؛ لأنه في نظر هذه العين هو وحده الذي يخلق الجمال الحي الرائع ويضع معناه في كل ما يتصل به ، حتى لكان جماله تفرق على أجزاء العالم ، أو كان أجزاء العالم التفت على جماله .

* * *

وقالت له : أنا لا أشفق على آلامك ! وهل تراني أكره لك النبوغ والعبقرية ؟ إن الألم في رجل الفن العبقري إنما هو (عملية) التصوير والطبع في مخيلته ؛ فمواهبه الحساسة تخزن الوجود في ، وكلما رأى جمالاً أو قبحاً أو سروراً أو حزناً غمرته ليتآلم بمعنى ما رأى وحكمة ما أبصر ، لأن جهة الفن في كل شيء هي معناه وحكمته ، فيتآلم ،

فينطبع المعنى ، فيكون في الخيلة مادة من مواد العمل الفني حين يعمل ، فذلك ليس ألماً في إنسان كما ترى ، بل هو أداء طبيعي في أداة حية متخذة لهذا العمل خاصة ، ميسرة له بكل حوادثها ؛ ومن هنا فلا رحمة ولا مهاونة فيما يؤلم رجال الفن ، إذ لا تعرف منهم الحكمة التي خلقتهم إلا آلات ، آلات يجب أن تعمل حتى تتلف أو تتحطم ..

تزداد الجميلة إشراقاً وجمالاً بالحب ، لأن أثر نظرات محبها يلزمها ، حتى إنها لتحس في غيبته كأن نظره واقع عليها من عينه لا من فكرها ، وبذلك تتجرد معانيها النسائية لعملها الفني وتدأب عليه ، فلا تزال تجعل وتحسن ما دامت محبوبة معشوقة .

* * *

الحب إيمان النفس بكائن طاهر ، والدين إيمانها بكائن خفي ألا يكون ذلك أسلوباً في الطبيعة لحفظ الإيمان في الإنسانية ؟ ^(١) .

* * *

أشعر أحياناً كأنه ما من رجل في العالم يحب امرأة إلا ألم بحسي شيء من لذة هواه ، فإن لم أكن أنا العالم كله فلقد جعلت حيي هو الحب كله !

* * *

أنت في ، وأنا أنظر بك إليك ، هذه هي المشكلة التي جعلتك لغزاً لا حل له ، فما أقرب الحب من العبادة ، ما دام هذا الحب هو

(١) تقدم وجه آخر من هذا المعنى فيما نقلناه من كتابنا (الساكنين) في صفحة ٩٦ من الشرح .

تجلى نفس في نفس ، وما أشبهه بدين يعبد فيه الجسم الجسم ، فالمعشوق
حالة نفسية متألهة معبودة ، والعاشق حالة أخرى متولهة عابدة !

* * *

لو عشق أعظم علماء الدنيا لأيقن أن حيرة عقله في أسرار الكون
لها شكل أدق وأغمض مع أسرار الحب ، ولعرف أن في أعماق النفس
الإنسانية مثل ما في أعماق الوجود : مسائل لا حل لها ، ألا يخرج من
ذلك أن كل محب يقابل في الطبيعة بقلبه أو إحساسه أعظم العلماء
بعقله وآلاته ؟

* * *

قد عرفنا أن لنا أعماراً محدودة، يجوز أن ساعات الهناء والسعادة
إنما كانت محدودة لأنها أعمار لأعمارنا ؟ فبضعة أشهر من الجفاء أو البعد
يكون عمرها هو ساعة اللقاء التي تنفق بعدها ، وسنة كاملة من عمل
يكون عمرها يوم سرور ؟

إن كان هذا صحيحاً فما أقصر عمرك يا عمري ... ؟

* * *

كل الأمانى التي لا تتحقق ، هي وجود منخوق في القلب !

* * *

من تأله الحب أن أوقاته هي الأوقات التي تتغير فيها الأشياء فتلبس
في أفكارنا غير حقائقها ، وبذلك يثبت الحب أنه أقوى من الحقيقة ،

إذ كان يخلق فيها خلقة ويغيرها في الفكر ، وأنه أقوى من الزمن : إذ كان يطول به على العاشقين ويقصر مع أن الزمن لم يقصر ولم يطل ، وأنه أقوى من الوجود ، لأنه دائماً إما ينقص منه في نظر العاشق وإما يزيد عليه .

* * *

إن الحب يشعر أحياناً من شدة القلق والاضطراب أن فكره يعدو بين الأشياء والحوادث وراء الاطمئنان الذي فر من قلبه !

* * *

حين يجد العشق بصاحبه يحبس عليه الزمن كله في نقطة هم ثابتة لا تتحرك ، فتشتبه عليه الأيام حتى لا يشعر أنه يقضي يومين أحدهما يختلف عن الآخر .

* * *

العيون التي وراءها ضروب الأفكار المختلفة ، هي وحدها التي فيها ضروب التعبير المختلفة .

* * *

في الحب لا فصل بين الصغائر والكبائر ؛ إذ كانت قيمة الصغيرة والكبيرة في اعتبارها لا في ذاتها ، والحادثة في الحب تكون بالحالة التي تقع فيها أكثر مما تكون بنفسها ، فالهجر وهو أشق وأعنت ما في الحب ، قد يكون لوعة مطمئنة إذا كان عن دلال أو سلوان من الحبيب ولكنه أشد الفظائع كلها وأكبر من القتل إذا كان سببه الميل إلى محب

آخر ، فهو في سببه أكثر مما هو في نفسه ، لأنه خرج من المكان
إلى الشعور .

* * *

الليل والفجر والشفق والأصيل ، هي أوقات الجمال في النفس ؛
ولن يجعل لها سحرها الساحر إلا أن يكون ذات مرة قد وقعت دقائق
ملونة ... في ساعة حب !

* * *

ما وقفت أمامك مزة يا حبيبتى أنظر إليك إلا قلت في نفسي :
من هنا يبدأ ما لا يدرك ... !

* * *

أصل الحب العاشق اتساع الرغبات المنجذبة وخروجها عن حدها ،
وأصل الجمال المعشوق اتساع الأسباب الجاذبة وخروجها عن حدها
كذلك ، فمن ثمة لا أناة في الحب ولا عقل ولا استقرار ، إذ هو اجتماع
فوضيين بائرتين على نفس ضعيفة !

* * *

هل تأملت مرة في اسم حبيبك ؟ وهل تعرف في الأسماء الكثيرة
التي تماثله ما يماثله ؟

إن كل الأسماء من اللغة وهو وحده من النفس . والأسماء كالأرقام
الحسابية وهو وحده كالواقع المدلول عليه ، تقول : مئة ألف ، فتذهب
كلمة في الهواء ليس لها ولا حقيقة واحدة ، ثم تعد الذهب وتقول :

مئة ألف دينار ، ففي هذه وحدها مئة ألف حقيقة ... ؟

* * *

أنا يا حبيبتى قد تجاوزت المنطقة الإنسانية ، التي يقع في حدودها المدح والذم ، فلا تأبهي لمن يذمني عندك أو يمدحني .

أنا فوق هذه الطبقة التي يتنفسون منها كلامهم ، فإن ارتفع يريدني أحد منهم فوصل إليّ خنقه وصوله إلي ... !

* * *

فلان وفلانة ، هو بدونها ناقص لأنه وحده ، وبها ناقص أيضاً لأنه معها .. هي كالفصل له عن الكمال ، وهذا أكثر عمل المرأة وعمل أكثر من النساء .. !

أنت لا تحفلين أحبتك أم أبغضتك ؟ ولا تدافعين عن شيء منك في نفسي ولكن كل شيء منك يدافع في نفسي عن نفسه وينتصر ويتغلب ...

هل تلبس الزهرة أوراقها ولونها إلا لتظهر عارية الجمال ؟
هل تلبس الحبيبة كبرياءها ودلالها إلا لتظهر عارية الحب ؟
... ومع ذلك فروح الشجر المر هو الماء العذب !

يا قلبي !

كان لي قلب ، فيا عجيبي ليس في جنبي سوى أثره
ضاع مني فابحثوا تجدوا في ابتسام الحسن أو نظره
ويحبه قلباً أعيش على صفوة عيشي على كدره
يرتقي كالنسر ثم ترى مرتقاه عين منحدره

* * *

هنا قلب وحامله ميت الأمن على حذرهِ^(١)
ذاب ذوب العطر مذوقدت للهوى نار على زهره
ضره ما كان منفعة نفعه ما كان من ضره
عابس كالليل . ليس به أمل إلا سنا (قره)

* * *

وهنا قلبه وصاحبه قد بنى الدنيا على حجره ...
تقرص الآلام مهجته مثل قرص الوحش من ظفـره^(٢)

(١) من كان حذراً مستمراً في حذرهِ كان ميت الأمن ، إذ لو أمن لما حذر .
(٢) الإنسان لا يشمر إذا هو قرص في ظفـره الرقيق ، فكيف بالوحش وظفـره كمنخرز
الإسكان ؟

والحديد الصلب تحسبه صورة عمياء من صورته ...
... لم يلن لا بمطربة من قضاء الله أو قدره

* * *

وسؤال لا جواب له : أي ذين الحلو في ثمره ؟
لو يبين الحلو خالقه كيف يسقى المر من مطره ؟

* * *

البحر

« وكتب إليها من شاطئ البحر وكان قد ذهب إلى هناك مستشفياً من علة أصابته »^(١).

لقد كنت والله من وثاق المرض كالسجين المغفل : يحمل على أعضائه أعضاء من قيود وسلاسل ، فلا يجد كل الأمكنة أوسعها وأضيئها إلا جسمه والجسد الحديدي الذي فيه جسمه ، وكأنه من الكرب لم يقيد وإنما أقفل على روحه من ذلك الحديد بقفل يكف هذه النفس ويحول بينها وبين الدنيا .

فلما احتواني البحر جعلت سلاسل تذب فيه شيئاً من شيء في يوم من يوم ، ثم كأنها لم تكن إلا آثار لون أسود ففلسها البحر ومحاه ، أو كانت جمرات ألم أحمر فاطقأها وسال عليها .

ألا ما أعجب رحمة الله ! فبينما هموم الإنسان في موضع هي أشد اندماجاً من الحديد ، إذا هي في موضع غيره متخلخلة أسرع ذوباناً من الملح المبتل : كان مكاناً يلبس أنفسنا ومكاناً يخلع عنها ، أو كان

(١) كان صاحب الرسائل قد مرض مرضة طويلة بالنزلة الشعبية . فعجزت لمرضه ، وكانت تعالجه بأسطر من بلاغتها كاللدواء ، وذهب إلى البحر متنقلاً فلما وجد خفا من نسيمه وروحه كتب إليها هذه الرسالة ، ولم ننشر رسائلها إليه في مرضه لأنها خاصة .

الأرض بتباين أمكنتها وبقاعها تقابل الأقدار في اختلاف عليها
وتصاريفها ، حتى يكون السفر من بلد إلى بلد أحياناً كأنه تحول من
قدر إلى قدر .

كان المرض يخيل لي أن هواء ناحيتي مستنقع معلق ... فجئت إلى
هواء البحر فإذا هو بحر ذائب^(١) يحس المتنفس منه أن في صدره مثل
الموج على ما ركذ فيه مما تركته الأيام والليالي من أحداثها وهمومها ،
فإذا صدره جياش مصطخب بالحياة يفور بها ويتضرب ، وإذا موجة
من العافية قد اندفقت في هذا الصدر فثلج وابترد وتنقى كأنما غسل ثم
غسل إلى ملء بحر .

وأرى السماء هنا والبحر متدل منها ، فكانها مخطط أزلي وهذا
البحر كله موجة واحدة وثبت من هناك عن ثبجها الأزرق^(٢) ووقعت
إلى الأرض ، أو هذا بحر سائل موار إذ هو يدفع أنفاس الحياة الأرضية
الفانية فلا بد أن يجري ويتحرك ، وذاك بحر مستقر لثباته على الأزلية
الخالدة ، ويقع من أحد البحرين ثبات اليقين في روعي ومن الآخر
حركة الأمل في قلبي ، وتندمج بهما في حياتي روح أيام زاهية مضيئة
كانوار السماء ، وروح آمال بلية منعشة كأنفاس البحر .

وأرى البحر مائجاً يترشش ويتناثر وهو بارد ، ولكنه يبدو كما
يغلي الماء في وعاء على النار ، يتقاذف من شدة ما يغلي ، يضطرب

(١) جو البحر : ظهره يكون مشبعاً من بخار مائه ، فكان تلك البلة بحر ذائب في
الهواء .

(٢) ثبج البحر : ظهره ؛ ومن ينظر إلى البحر في آخر الأفق يتخيله كذلك .

ويدوي كما يرجف الرعد ترددت هدهدته ^(١) يجاوب بعضها بعضاً ،
فكأنما البحر سحاب عظيم قد حبسه الله في الأرض فهو أبداً ثائر يضج
ويرعد ولا ييرح ينازع الأرض أن يفر منها !

وأعرف للبحر في نفسي كلاماً؛ فهو يوحى إليّ : أنْ تجددْ تجد في
آمال قلبك كامواجي لكيلا تمل فتياس ؛ وتحرك .. تحرك في نزعات
نفسك كتياري لئلا تركد فتفسد ، وتوسع توسع في معاني حياتك
كأعماقي لئلا تمتلىء فتتعكر ، وتبحر تبحر في جوك الحر كرياحي ^(٢)
لئلا تسكن فتهمد .

كن مثلي جبار الحياة مجتمعاً من ألين اللين وأعنف القوة ، كن
مثلي قديس الحياة واسع الروح نظيف المادة مستعيناً لواحدة بواحدة ^(٣) ..
كن مثلي جميل الحياة ثابتاً على الرقة والصفاء وإن من وراء شاطئيك
الرمال والحجارة وطين الأرض وناس الأرض ... كن مثلي حر الحياة
محتفظاً بالسعة والحركة والعمق ، كن مثلي إلهي الحياة ليس بينك وبين
السماء شيء يحجبك أو يحجبها وعلى وجهك دائماً أنوار الشمس والقمر
والكواكب ، كن مثلي شاب الحياة فلن تهزم أبداً إذا ثلجت روحك
بالرضا فتبلل شبابك بأندائها ، فعمرك كله عمر الفجر !

* * *

ولكن أيها البحر ! ما هذا البريق الذي تسطع به حتى لكانك تحت
الشمس أرض من الزمرد والفيروز والماس ؟

(١) المدهدة : رجفان الرعد على السحاب .

(٢) التبخر : التشقق والتوسع .

(٣) كل واحدة من هذه المعدادات تعين على اكتساب الأخرى .

وما هذه الرقة في هذا الأديم الذي تتعرى به حتى لكان كل موضع
فيك عليه بضاضة وإشراق من جسم فاتنة عارية ؟

بل ما هذا التوحش في هذا الموج الذي تزار به زئيراً يتردد في كل
نواحيك حتى لتلوح كل موجة من كل موجة كأنما هي لبد أسود بيض
غاطسة في الماء يحمل بعضها على بعض للقتال ؟

وما هذا الهدوء ساعة تستقر في جو خافت كهمس التسبيح فتبدو
كقلب المؤمن رسب في أعماقه اضطراب الظن بالحياة وطفا على اطمئنان
التوكل على الله ؟

وما هذه الثورة ساعة تستقر في جو صاحب كعمعة المعركة ،
فتظهر كالخجول ثارت خواطره فهن كأمواجك مبعثرة طائرة وكانت
زوبعة سكنت فيها ؟

* * *

ولكن أيها البحر ! هل يقال لك : ما هذا ؟ وما هذه ؟

كلا ، فما أنت إلا كذلك الجمال المعشوق : يسطع ويرق ويتوحش
ويهدأ ويثور ، وله الأشعة الزاهية البراقة ، والعري الحريري الخمل ،
والزئير والهمس ، والأعاصير والزوابع ، ثم لا يسأل في كل هذا ولا
مرة واحدة : ما هذا ؟ وفي كل هذه ولا مرة واحدة : ما هذه ؟

* * *

ورأيت يا حبيبتي هذا البحر مضيئاً ممتداً كأنه نهار أبدي أمسكته
الدنيا لينير النور في قلوب أهلها فإن النور يظلم فيها .

ورأيتك كالمعاني الندية بشها الله من رحمته في جفاف الحياة ومعانيها .
ورأيتك استواء واحداً في وضع الجمال ، ليس فيه موضع أعلى
من موضع .

ورأيتك دائم التراجع كأنه متهيئ أبداً ليسكب معانيه في فكر
الناظر إليه .

ورأيتك لا يحمل أن يوضع لإرادته حد فهو دائماً يصدم الشاطئ
كأنه يقول له : اذهب من هنا ... !

* * *

رأيت فيه كل هذا ، لأن مثل هذا كله في جمالك أنت وفي معانيك .
فأنت يجمالك المشرق لمعة من نهاري .
وأنت بعواطفك رحمة من الله لقلب لولاك لجف .
وأنت بحسنك لؤلؤة كلها وضع واحد في الحسن .
وأنت دائمة التراجع في خواطري دائمة الانسكاب في قلبي .
وأنت لا تتحلمين أن أضع شاطئاً لإرادتك .
وأنت ، أنت ، أنت ..

فلسفة المرض

« ولما برىء من مرضه كتبت إليه تساله فلسفته في المعاني التي ينشأ المرض لإيجادها في النفس ، فكتب هذه الرسالة وتجاوى عن ذكر الحب فيها ، إذ كان الشأن حينئذ شأن الحياة ، وقد كتبها وهو في أعقاب العلة ، ولولا أنها هي طلبت منه هذه الرسالة وأنها أعجبت بها وعدتها من آثارها فيه لما نشرناها هنا » :

خلقت نفس هذا الإنسان وكأنها ثلاثة أنفس ، إذا كان دأباً لها أن تكون طامعة متلفطة وثابتة ، فهي لا تكون على رزق ترزقه ، ولا تثبت على حال تحول إليها ، ولا تقرر في منزلة تسفل بها أو تعلو .

وهي كذلك لا تبرح تنزع مما وجدته إلى ما لم تجده ، لأن الشوق أحد عناصرها : ولا تنفك متقلبة تجعل ما ترضاه يوماً هو ما تسامه يوماً ، لأن الرغبة إحدى طبائعها : ولا تزال تتخطى حدود الأشياء ، لأنها من الأزل بنبت على الخلود الذي لا يقف على حد ، فالشوق الثائر في حاجة إلى فترة تكسر من حدته والرغبة المجنونة في حاجة إلى ضعفة تهدىء من ثورتها ، وخطوة الخلد التي لا تزال دائبة تتقدم ، في حاجة إلى عثرة بمعنى من معاني الفناء المعترضة في طريق الحياة .

وبذلك يكون الإنسان دائماً في حاجة إلى بعض الأمراض ، لا ليمرض ولكن ليصح ، إلا أنواعاً من أساليب الموت تسمى أمراضاً لا حيلة فيها ولا يكن المريض معها إلا كالوعاء يشق ليحطم وينتهي ، لا كالوعاء الذي يصب ما فيه لينظف ويملاً ويتبدى .

فالمرض الرحيم وضع النفس في وثاق يمسكها حيناً ليحبسها على تأمل حقائق الحياة المغطاة ، ويكرهها على أن ترى الدنيا أهون من أن تصغر لها نفس ، وأحسن من أن يسقط بها قلب وأحقر من أن تتهالك عليها الأحياء ، ثم ليربها رأي العين أن العالم مصبوغ بأخيلتها الوهمية التي نفقت عليه ألوان الجنة فأفسدته بهذا التمويه وتركت أهله يتكذبون في أوصافه فيخطون في حقائقه وجعلته كالقمر : هو في ذاته حجر مظلم ولكن ذهب الشمس يجعله كله فضة بيضاء .

إنه لا يفسد الإنسان إلا الغرور ، ولا يكون الغرور إلا من الطيش ولا يطيش بالرأي إلا سوء التقدير ، ولا يكون هذا السوء أكثر ما يكون إلا من بلاء العافية على الإنسان .. وإن من بلاء العافية ثلاثاً : عافية الجسم وعافية الهوى ، وعافية المال ، فأما الجسم فأقرب ما وجدته إلى الحيوان الضاري الخبيث أشد ما وجدته قوة وعافية ، وأما الهوى فلم يخلق الله شيئاً كل هلاكه في قوته غيره ، وأما المال فعافيته في رجل واحد مرض في ألف رجل إلى ألوف كثيرة ، فهو حصر الدنيا كلها في بعض أجزائها .

فكأنما تطوف الأمراض في هذا العالم لتصلح نواحي الإنسانية فيه ، فتضعف الحيوانية ، وتكسر شرّة الهوى ، وتكف طغيان المال عن

النفس حتى لا شهوة فيه ولا قوة له ولو جمعوا ما أصلحته الأديان والقوانين من أحوال النفس وطباعها ، ثم ما أصلحته الأمراض منها ، لرأيت أن الله أنبياء من هذه الأمراض يرسلها إلى الدم الإنساني ، وأن « الميكروبات » السابجة في الهواء كالأملاح الذائبة في البحار : لولا هذه لتعفت الأرض ، ولولا تلك لتعفت الإنسانية .

* * *

تأمل هذا المريض وهو حائر النفس ، متخاذل الأعضاء ، كاسف الوجه ميت الهوى ، لا يتماسك مما به من الضعف ، ولا ينبعث لما به من الخود ؛ ولا يتشهى لما به من الفتور ، ولا يتذوق بما في روحه من المرارة ، ولا يجروء لما في حسه من الإشفاق ، ولا ينظر إلى الدنيا إلا بملء عينيه زهداً فيها كأنما بث المرض في عينيه شعاعاً ينفذ الأمور إلى حقائقها ثم يخترق الحقائق إلى صميمها ... أفلا ترى هذا الإنسان قد عمل فيه مرض أيام قليلة ما لا تعمل العبادة مثله في أزهد الناس إلا في السنين المتطاولة ؟

إنما هي ثلاث وسائل للجمع بين الإنسان وحقيقته العليا : العبادة القوية ، وقد عجزت إلا في أفراد قلائل ، والحكمة الصحيحة العالية ، وهي أشد عجزاً إلا في الأقل . ثم لم تكن الوسيلة العامة التي تتناول الناس جميعاً ولا يستعصي عليها أحد من أطاع أو عصى ، إلا المرض !..

يوجد الإنسان ليمحى ويزول ، ولم تتمكن الفضيلة الإنسانية من نفس إلا إذا تمكنت هذه الفكرة منها فإن الزائل يرى ليومه ما بعد يومه ، ويعلم أن حقه على الناس ليس شيئاً أكثر من حقوق الناس

عليه ، ويحتاج إلى العمل لروحه كما يعمل لجسمه ، وما يكون زاد الروح إلا من آثارها في الأرواح الأخرى ومن آثار هذه الأرواح فيها ، فإذا كانت حقوق الأجسام تدفع الناس إلى التنازع على البقاء ، فإن حقوق الأرواح تقابل هذا الناموس بما يصلحه ، فتزيد في الناس إلى القوة الرحمة ، وإلى الغنى الإحسان ، وإلى العزة المروءة ، وإلى كل طغيان ما يمازجه فيكف من جماعه ويجعله إلى الخير أو من الخير .

وإن أعجب ما في الإنسان أنه يرى الموت والموتى بين الساعة والساعة ، ثم لا يستشعر من كل ذلك معنى زواله . كان عادة الحياة أخذت هذا الحس فيه أو خملت منه ، وما هو إلا أساس التعاطف الإنساني ، ثم لا يكون إلا أن يمرض هذا الإنساني يوم ، فإذا هو قد تلقى الدرس على أحكم أساتذته ، ورأى نفسه كان يمشي فقعد ، ويستطيل فتقاصر ، ويشمخ فانهد ، ويسر فحزن ، وإذا هو قد بدل من الصوت خفض الصوت ، ومن الإعجاب مقت الإعجاب ، ومن الخلاف ترك الخلاف ، ومن جفوة الناس حاجته إلى رحمة الناس .. ثم إذا هو قد أمسك عن كل ما كان فيه من العمل ، وأقبل على الصحراء الخيفة التي بين الدنيا والآخرة ، وأحس من غمرة يد الله في مواضع آلامه أن الإنسان مهما يكن من قوة الأسر وشدة البأس فما هو بعد إلا حبة صغيرة واهنة بين شقي هذه الرحى العظمى الدوارة التي حجرها الشمس والقمر !

* * *

سبحانك اللهم ! إنما هذه الأمراض أخلاق أنت تنشئ بها الرحمة في قلوبنا المتحجرة ، وتصرفنا فيها إلى نفوسنا بعد أن نكون قد

جهلنا هذه النفوس في أعمال الحياة أو جهلنا ، وتعلمنا جميل صنعك في تواتر حلمك علينا مع قبيح صنعنا في ترادف عصياننا لك ، وتنقلنا بها في خطوة سريعة من خطى الأزلية لندى الدنيا من آخرها فلا نجد نعيمها إلا معاني الهلاك ، ولا ملذاتها إلا أضراراً من الندم ولا غناها إلا فنونا من الحسرة . ثم لا ننظر في أجسامنا إلا أشكالاً قائمة من التراب ولا نعرف من أعمارنا إلا أنفاساً كانت تصعد من فم القبر ، وإذا أذنت بعد في شفائنا ومسحت بيد العافية علينا ، كانت الأمراض وسيلة من وسائل تجديد العمر ، وخرج المريض وكأنه مقبل على الدنيا من ناحية لم تكن فيها ؛ فينسم من كل شيء رائحة الحياة ، ويرى على كل جمال أثراً كآثر الحب ولذته وحنينه ، ويستقبل نفسه الراجعة إليه في موكب الحواس القوية فلا يكون له إلا ما قد يكون مثله في الملك المخلوع أعادوه إلى العرش فجاءوا بالتاج وأقاموا له الزينة وحشدوا له الحفل وقالوا : سمعنا وأطعنا !

سبحانك ! إنما هذه الأمراض مواظب منك تعلمنا كيف نضع شهواتنا في موضعها من الضرورة ، ونحصرها في حدودها من الازدراء والمقت ، فلا تعدو بطبائعنا علينا ولا تعدو بنا على سوانا ، وإنه ما يخطيء امرؤ في الحياة إلا من إقرار شهواته في غير أمكنتها حتى تأخذ من عقله وتنال من رأيه وتجور على حواسه ، فيقلبها ذلك من أن تكون حركة في الحياة إلى أن تصير الحياة كلها حركة من حركاتها : وحينئذ لا تكون الشهوات إلا أكثر مما هي ، فتقتضي أكثر مما تستحق من الجهد والعمل الإنساني ؛ ولا تكون الحياة إلا أحقر مما هي ، فلا

تخرج إلا أقل ما يمكن أن تخرجه من القيمة الإنسانية .

سبحانك اللهم ! إنما هذه الأمراض في الدنيا بعض مواد البحث
الفلسفي العميق لدرس أساليب الطبيعة البشرية ، فكم من « عملية
جراحية » في طب الناس هي الحقيقة « عملية حسائية » في وزن هذه
الطبيعة وتقديرها ، وكم من أنة وجع في المرض وهي نفسها كلمة عتاب
بين الطبيعة والنفس .. وكم من ضجعة للداء هي في الواقع نهضة للأخلاق
من ضجعتها .

سبحانك ولك الحمد إن ساعة النجاح وتحقيق الآمال وانتعاش
الحظ وتبديل صورة من الحياة بحياة غيرها تكون أسمى وأكمل .. وساعة
الغنى وإقبال الدنيا ومسالمة الأيام ، وتزيين الحياة بحياة أجمل منها
وأبدع ، وساعة الحب وفيضان الجمال على النفس ، ونسيان الحياة بالحياة
التي هي أمتع منها وألذ - كل هذه الساعات لا تعد إلا دقائق وثواني من
السعادة إذا اتفقت بعد المرض ساعة الحياة ساعة رجوع الصحة !

* * *

يوم النوى

يا ظلة الموج يطغى البحر منتفضاً بها ، كان جبل في البحر يقتلع
تظن زلزلة في الماء قد جلست أولاً ، فزوبعة في الماء تضطجع
تقلقت ، فاستطارت فانشئت ، فهوت فأطبقت ، فارتمت كالرعب تندفع
على غريق بجبل الماء معتصم والجبل في لمسات الكف ينقطع
له بقية روح في أصابعه ينازع الموت فيها وهي تنتزع
بين الحياة وبين الموت مرتكس^(١) يقيئه البحر أطواراً ويبتلع
أذاك أعظم هؤلاء في فجيعة أم المحبون في أحبابهم فجعوا ؟

* * *

يا لطف نفسي للعشاق ! تحسبهم يوم النوى نزع من قلبهم قطع
الحب قاتلهم بالصبر إن صبروا والحب قاتلهم بالهم إن جزعوا
إن ودعوا ذاهباً لم تلق حزنهمو من أنه سار ، بل من أنهم رجعوا
ربي ، متى تهب الأحزان مخترعاً في هذه الأرض للنسيان مخترع ؟

* * *

(١) الارتكاس : أن يرجع آخر الأمر على أوله .

الهجر

« ولما تهاجرا كتب هذه الرسالة ^(١) فيما كتب لنفسه » :

رسم الماضي من الحب صورته في نفسي وأتى الهجر يحوها ويرسم غيرها ، ففيما يثبته ، ألم الأيام المكروهة تأتي ؛ وفيما يحوه ، ألم الأيام المحبوبة تذهب . ومضى الزمن الذي يومه ساعة ، وجاء العهد الذي ساعته يوم وأيام . وانقضى عمر الحقيقة وبقيت من الحادثات كأنها قبر من اللغة قد أنزل فيه تاريخ حب مات !

وكما ينزع المرض عافية لبسها الدم ، نزع الهجر أيام قلبي ، وتركني في أيام كأنها من غير زمني ، ووضعني منها في حياة كأنني لا أحيها ، وانتهى بي إلى حالة كأنما وقفت الحياة عندها وقالت لي : سر وحدك وعش في آلامك لا في !

هي حالة النار التي كانت مشبوبة ، وتهتم أن تحمد فتقول ، للآثر الذي تخلفه : عش وحدك يا رمادي ... !

(١) انظر « رسائل الأحرار » لتستتم معاني رسالة الهجر هذه .

أما إني مثلك يا رماد الجمر : قطعت حياة اللهب والشعاع إلى
آخرها المنطفئ ...

* * *

أية عاصفة احتملتي من أيام الشمس وليالي القمر ، وألقت بي في
هجر منقطع كليالي القطب المضيئة بجبال قائمة من الثلج كأنها شموع تنير
في ذلك الهول المحيط بها إذ لا تظهر فيه النجوم على سماءها إلا كحصى
من الجليد ولا تمر الشمس هناك في أفقها إلا وهي ترتعد من البرد ؟

كان الجو العاصف كلمة غضب صغيرة ، ولكن أرادها قلبي بمعنى
وأرادها قلبها بمعنى غيره ، فلم يبق للكلمة على ما أردت وأرادت
لا معنى في نفسها ولا معنى في نفسينا ، وبطل منها عمل اللغة فإذا
هي قدر عاتٍ لا زمام لنا من الفهم على جمحاته .

كلمة كانت من المادة النفسية المشتعلة بالعناد ، المنفجرة بالغضب ،
المصوبة بعد ذلك كالرصاصة المنطلقة ! لا تراها بدأت إلا قلت انتهت ،
وربما قالوا رميت والمعنى قتلت ، وإذا قيل في الرصاصة المنطلقة قد
ذهبت ، فاعلم أنه قد مات من اللغة إلى الأبد لفظ رجعت أو ترجع .. !

وعلى ظهر كلمة الغضب وضع الماضي رحاله المملوءة جمالاً وفكراً
وعاطفة ولذات ، وانحدر على طريق النسيان فذهب حيث لا يلحق ،
ورمى إلى حيث لا يعود !

ألا ما أشأم الساعة التي تعارض فيها كلمة قلب كلمة قلب آخر
يحبه ، وتقف لها كبرياء معشوقة بإزاء كبرياء تعشقها ، وتضيق نفس

على نفس تحاول كلتها أن تحبس الأخرى في سجن كلمتها !

تلك ساعة تكون والله بين العدوين أخف وأرحم مما هي بين الحبيبين. ولعمري وعمرك ما التقاء العدو بعدوة في مناجزة إلا صورة هم وروع مصغرة من صورة ابتعاد حبيب عن حبيبه في هجر .. إن معركة الدم لأصغر من معركة الدمع !

* * *

كبرياؤها الآتية من أنها هي المعشوقة ، وكبريائي التي أستشعرها من أني أنا محبها ، كلتها كانت العزيمة الهائجة المحتدمة التي أدت شدة المبالاة فيها إلى عدم المبالاة ، وجمعت منا جهلتين غير مبصرتين ، واستكبر لها الواقع الحدود ، فانتهى من غضبه إلى سورة معركة ، واندفع بها التيار الذي جعل يزحزحنا واحداً عن واحد حتى فصلنا انفصال شاطئين ، وفقدنا ما يسمى في اللغة السياسية « إدراك حقيقة الحالة » فانتثرت بيننا ما تسميه تلك اللغة « بالمسائل الشائكة » وأصبحنا من حيرة وعجز وسوء بصيرة في مثل الحالة التي يطرح فيها اللغز لحله فإذا منه لغز آخر ، وكان عقدة ناعمة كملس الحية فانتهى إلى مس السم الناقع ، ثم ضلت في ضلالنا الكلمة التي كانت تصلح للصالح ، وضاق عنا الحب بأخلاقه فلم يبق مني ومنها غير « لا » قائمة في وجه « لا » .

* * *

إنه الموقف العقلي المصبوب على قالب فلسفتها حين تقول إنك لن تحمكني ولو أنك في الواقع تحمكني ... وعلى قالب فلسفتي حين أقول

إنني لن أغلب في شيء ولو أنني في كل شيء مغلوب ! ...

كلمة بيننا ليس لها ناهية ولا أمرة من العقل ، فلا تنزل في خاص معناها ولا تقر في معنى يسكها على وجه مفهوم ، وكأنها في موضع مسحور لا يستقيم فيه برهان ولا يحق حق ولا يبطل باطل ، وفيها ملء القفر من الإصرار الجافي الموحش ، فإذا تقدمت لها شفاعة الحب لم تقع من كلينا إلا بأبعد البعد : كالذي يضل في صحراء فيظماً ويلتاح ثم يذهب يحفر عن بلة أو جرة ، حتى إذا أوشك أن يذبحه الظما بنصل من خيال الماء عثر على إناء مختوم فيفضه فإذا فيه جرة تاريخ قديم ... تنبئ عن مدن وأطلال ودولة وشعب كانت هنا ... هنا في موضع قبره هو ... !

وليس التعب أشد شدة ولا أثقل ثقلًا من موقف عقلي تقفه مغالب نفسك على حقيقتها، فتبغض أنت وهي عاشقة، أو تماري وهي مقتنعة، أو تجحد وهي تقر ، أو تعزم العزيمة وهي تنقض عليك ، فأنت في تزوير فكرك على نفسك ، وفي رد نفسك على الفكر ، ثم في التواء حقيقتك التي جعلتها محركا واحداً يعمل في حركتين متناقضتين ، ثم تهلك بعناد باطل تزعمه ضرورياً لنفسك على أن يكون كفكرة فقط وأما كعمل فلا ، على حين هو واقع عملاً فقط وأما كفكرة فلا ...

ويحك يا من يزعم لأحد الشاطئين رجلاً يشي عليها ليتخلص من مقابلته الشاطيء الآخر ومن تقييده بمضادته وممادته على مداه ! أرايت

ذلك يكون قبل أن يكون للبحر الذي بينها جناحان فيطير من بين
شاطئيه ... ؟

ويحك ! فما معنى الهجر والمراغمة عليه ولم يطر من بينكما الحب؟

* * *

أتجنبها وهي في وجودي ، وأحطم بعقلي هذا الفؤاد الشعري
الريق الذي بين جنبي واتخذ لها في نفسي من الهجر اسماً جافاً يابساً
كاسم الحطب وهي باقية زهرة هذه النفس !

إن هنا وهناك وهنالك ثلاثة مواضع للغيظ وللكد ، ولكنها
أيضاً ثلاثة مواضع لعظمتي وسموي . إنه لا صلح لقلبين لم يصطلح
فكراهما ... !

فآه من ألم السمو الذي يجعلني أفرق حياتي على الأشياء والمعاني
لتتغير في نفسي ، وأعيش أنا في مثل هذا الهجر على المعنى الذي لا
يتغير كمعنى البلى ، ولا يتسامح كمعنى الضغينة ولا يترخص كمعنى
العقيدة !

وآه من كبر النفس على صفائر الحياة ، ومن صفائر الحياة على
كبر النفس ! ولقد يكون الملك العظيم في حشده وجنده وحوله وطوله
ثم لا تبعاً ذبابة من الذباب أن تقع على وجهه ، ولو نطقت ل قالت صادقة :
وإن كان ملكاً فإني ذبابة ...

وآه من عين الحكمة التي تبصر كرة الأرض هباءة طائفة في

اللانهاية ، وترى الكون العظيم ذرة مكبرة ، وتضاعف الأشياء على
النفس مرة والنفس على الأشياء مرة أخرى ، ولا تبرح تخلق خلقها
على ما تحب وتكره لأن فيها ألوهية الفكر !
آه من هجر هو سمو ولكنه من الصغائر ، هو حكمة ولكنه من
الآلم .. هو هجرها لكنه هو حبها !

* * *

من قلمها

« وهذه فصول منتزعة من بعض رسائلها نشرناها مقتضبة تلمح بمعانيها لحآ ، ليكون في هذا الاقتضاب شيء من الإبهام ، فتكون مع الإبهام كأنها لم تنشر ... ما دامت هي لم تكتبها لتنشر كما تزعم (*) » .

فلسفة تأخير الرد :

أخرت جواب رسالتك لتجيب عني بظنك ، وستجيب بأنواع متناقضة مما يسوؤك ويسرك . وتضع في اجوبتك مائة « نعم » ومائة « لا » ... ثم يأتيك بعد كلامي فينزل من نفسك منازل لا منزلة واحدة ، إذ تقابله بكل ما قدرت في نفسك من قبل ، فيسرك على قدر ما أحزنت هذه النفس ، ثم يعطيك من اليقين ما يسرك من ناحية بإثبات الحقيقة ومن ناحية أخرى بمحو الظن !

هذه سياسة بعض ما يحتاج إلى الشرح في بعض علاقات النفوس يكون السكوت الطويل فيها هو أطول شرح للكلام الذي يأتي بعده ..

(*) قلت : أكثر هذه الفصول هو من رسائل صاحبه (حديث القمر) وقد أثرت في بعض ما كتبت من الفصول عن حب الراقعي - إلى ما كان من أمره وأمرها .

يفسره تفسيراً غير مكتوب ... !

* * *

طفولة فلسفية :

أظن هذه الفترة التي انقضت في سكون ظاهر كانت كلها أحاديث،
أحاديث طويلة لو تعلم .

إذا أنا سألتك مرة : أين البرهان ؟ لم يعجزك أن تأتي به من
بلاغتك ، وقد لا تكون ثمة قضية يقوم برهانها ، ولكنك تجعل البلاغة
الساحرة نفسها قضية على ما ترسم ، كأنك مهندس منطق ... وبذلك
تطمئن دائماً لتأثيرك قوة براهينك ، أي لإقناعي أنا راضية أو غير
راضية ...

أما أنا فأقدم برهاني بسذاجة الأطفال الذين لا يعرفون ولا
يستطيعون إلا أن يكونوا أطفالاً ... وأقوى برهان الطفل أن يكون
الطفل نفسه برهاناً عليه ، فما عساك تقول ؟ أترى الطفل هو عندك
أيضاً قضية بلاغة ؟

لله من الكناية إليك ! ما أشدها طرباً وأشدها صعوبة في وقت
معاً ! فانا أخافك لأنك تستشف من الأحرف ما لا يتبينه سواك من
الصفحات ، وغريب أنني - مع شدة هذا الخوف - لا أكاد أمسك القلم
حتى أسير به أو يسير بي أو نسير معاً : ليس في أحدنا تروية ولا حذر ،
كانني أخطب نفسي ، أو هو يكتب مذكراتي ، أي من قلبي لقلبي .
أتعجبك هذه الطفولة في الحديث ؟

نعم هي ألفاظ كالتي في السنة الأطفال ، لا كتلك التي في الكتب
أو في صناعة البيان ، ولكن إذا أنت لم تغض عن ظاهرها فأين إذا
الحفاوة بالمكنونات التي لا يراها إلا من خبت له ؟

* * *

قياس الأشياء في الحب :

كم أراك تحتاط بطريقة ناعمة لا تصدم كبرياء النفس إلا قليلاً !
ولكن أيزهد عنك أنها حين تصدمها قليلاً تكون صدمتها وكفى .. ؟
ليس كل قليل هو قليلاً^(١) ولا كل كثير هو الكثير ، فقياس
الأشياء بين الأصدقاء لا يكون في الأشياء ذاتها ، بل في صلة الإحساس
التي تكون في أنفسهم : لأنها إنما تقدر بمقادير الشعور لا بمقادير المادة ..
أما رأيت هذه الصلة الوثيقة أيام كنت مريضاً قد جعلتك مريضتين ...
إذا كنت على ثقة من هذه القضية ، فانا الآن راضية عن هذه
الابتسامة الطويلة التي أثق أنك تبتسم بها ، وإن كنت لا أراها !

* * *

البربرية :

باركت الوخزة التي فجرت منك هذه الآيات الساحرة ، وكدت

(١) هذا الضمير في مثل الموضع يسمى ... ضمير فصل ، وهو حرف لا اسم فلا يعمل
في الأفصح ، ومع أن الصديقة لا تعرف من النحو إلا قليلاً ، فهي لا تكاد تلحن في كتابتها
ولم تمس إلا قليلاً من ألفاظها بتعوير أو تنقيح .

أدعو لك بالآلام والأوجاع ما دمت لا تكتب إلا من جرح ... أتعجبك
تنيات هذه الصديقة البربرية ؟

ألا فليهنأ بك هذا القلم الذي أوتيته ، فإن ما كتبت به سيبقى
دائماً على آفاق هذه اللغة سحابة وحي تحمل تنزيلها .

وثأله من يتذوق طعم هذه الحلاوة التي تقطر بها براعتك ، ليظل
من بعدها في جوع دائم إليها كجوع الأغنياء للذهب .

أراك تبتسم الآن بسمه الرضا : أفيعجبك ثناء هذه الصديقة
البربرية ؟ .

* * *

السيد :

تقول إن حبك مسرف وعداوتك مقتصدة ، وإن هذا الحب
كخضوع المستبد ، والاستبداد في نفسه قوة ، فهو إذا خضع كان
واثقاً أن خضوعه قوة أيضاً وإن هان وإن ذل .

يا صديقي السيد .. نعم ثم نعم ، ولكن كلمتك تجعلني أرى في
صلتنا هذه نوعاً من تطفل الفتاة على سيادة الرجل ، إذ تقتحم بها
الفتاة وإذا تجرؤ على ألا تضع هذه الصلة فوق موضعها الطبيعي ؟ إن
هي إلا خضوع وطاعة وعبودية للسيد ...

أليس كذلك أيها السيد ؟ !

أما والله إن الرجل مهما يغلب نفسه ويحملها على الرقة ليصلها

بنعومة الأنوثة من جانبها المصقول الناعم ، فلا بد أن تغلبه نفسه
مراراً حتى تظهر حقيقته الجافية الخشنة التي خلق منها ولها ..

ولو أن حجراً أحـد جوانبه ماس ثمين وسائر جوانبه الأخرى
حجر ، ثم مسته الحياة فتمثل بشراً سوياً ، لكان رجلاً متحيباً متظرفاً
مثلك يا سيدي ، وهو من جانب واحد يعتبر الحب ، أي الماس ومن
ثلاثة جوانب يعتبر السيد أي ... أي الحجر ... !

* * *

السيد أيضاً :

لا يسؤك أيها الصديق ! فوالله ما أنا بالتي ترغب الإساءة إلى عدو ،
فكيف بها إلى صديق وإلى صديق عزيز ؟ أيغضب السيد من وصفه
بالسيد ؟

ولكن ما كانت الصداقة لتحمل في يدها ميزان العدل لكل كلمة
وكل معنى وكل إشارة ، بل إنها لتصفح كثيراً عن كثير لتجعل الحق
الذي لها أن تستوفيه كاملاً كأنه حق عليها تؤديه كاملاً فتكبر بتسامحها
وتتمو .

كن أنت الحاكم على نفسك انتصافاً لما ظلمت به نفساً أخرى ...

وإني أهز يدك بقوة تؤكد لك أن حرارة الإخلاص هي أبداً قوية
من أنها إخلاص ، متجددة من أنها قوية ، باقية ، ما من أنها متجددة ،
وبكل هذا هي الحب وهي الصداقة ! .

* * *

هو المرض ولكن :

نعم هو المرض الذي استحق مني كل هذه العناية ، ولكنه المرض
على أنه في جسمك ...

أنا إنسانية أعطف على كل أحزان العالم ، ولكني لو تأملت لكل
المتألمين لما أثاروا في نفسي إلا الجزء الأصغر مما تثيره في آلام صديق .
لو تأملت بنفسي أو لنفسي لاحتملت ، ولكن ألمي بك ، وشفاه
فيك ، فهو ألم وجزع واضطراب ، أتألم بثلاثة من حيث لا تتألم أنت
إلا بأحدها ...

نعم هو المرض الذي أثار في كل هذا ، ولكنه المرض على أنه في
جسمك !

* * *

جو طليق وحرية :

أنا كما تقول : في الجو الطليق وفي حريتي المعبودة ؛ يحويني الفضاء
وأحويه ولا قيد ولا حد ، ولكن مع كل هذا فهناك هناك في الجو
جاذبية ، وهناك للحرية أشواق ، وما يعين لنا حدود مسراتنا إلا
آلامنا ..

أضيفت كلمتك .. إلى سجل هفواتك في حق هذه المخلوقة التي لا
ذنب لها سوى طيبة نفسها ، ومن استحق أن تكون طيبة نفسه من
ذنبه فقد استحق أن تكون من عقابه عند نفسه أتريد مني التوبة عن
أن أكون لك طيبة النفس ؟

* * *

افتح للشمس :

أعجب لقلبك ، يابى إلا أن يحتبس في هذه الفكرة المظلمة التي
توهك أنى أسأت إليك وقصدتك بالمهانة ... هل القلب يعادي صاحبه
أحياناً فيعاديك قلبك ويابى عليك إلا أن تصر وتكابر وتغلق النافذات
كلها ثم تذهب تتهم الشمس ؟

ما حيلة الشمس في الحيطان والأبواب التي أنت تقيمها ؟ افتح
لها تدخل إليك !

* * *

طفل الحب :

كيف قلت عن الطفل الذي أشرت إليه ؟ أما تعلم أنه طفل خبيث
لا يستحق الرحمة الواجبة للأطفال من كل طبيعة ، وأنه ذو مكر ،
وأنه ذو دعاة ، وأنه يريد كل شيء قبل أن يفكر في إعطاء شيء ؟

إنه يظن أن كل ما يعطاه فإنما يعطاه ليجعله ألعوبة ومعرض
عبثه ، يلهو به ويسخر منه إذا كده اللعب أغمض عينيه ونام ليجد من
الأحلام لذة لعب آخر ... ثم لا يلبث أن يهب من نومه فزعاً خيفة أن
تكون ألعوبته قد أخذت منه ، ولكنه يجدها فينقلب إلى زهوه ،
ويكون فزعه كذلك فناً من اللعب : المثل هذا الطفل تفتح ذراعيك ؟

ولكن ، ما أكرم عاطفة الرجل الذي يكون في ساعة من الساعات
ألعوبة طفله العزيز ! إنه في الحقيقة عالم جميل من الرجولة القوية
يكشفه الطفل ساعة يلعب به ... وفي هذا اللعب يكتشف الرجل

كذلك في طفله عالماً آخر أبداع وأجل عالماً من عواطف قلبه .

* * *

الطفل وذنبه :

تريد أن أوافقك على ضرورة إيجاد الذئب لبعض الأطفال ... ؟
هذا ما لا أسلم به إلا إذا أصبح الذئب حملاً وتغير فهم اسمه ومعناه .

لست أرى من الواجب أن توجد الطبيعة إلى جانب الطفل شيئاً
مما يخيفه ومع هذا فالطفل جبان يخاف حتى من تغريد البلبل إذا سمي
له البلبل بغير اسمه ، وصلصلة السلاح تخيف الطفل كالسلاح ، ذلك بأنه
لا يقوى لا سلباً ولا إيجاباً ، لا على أن يثبت لما أمامه ولا على أن يفر
مما أمامه ...

أعجبك هذا أم أنت تريد أن تنكر عليّ هذا الحق الذي أسلبه
منك لتعرف قيمته حين أردته إليك ... ؟

* * *

من بعيد :

أكاد والله أنسى أنني بعيد عنك هذا البعد كله ، بعداً يتقاذف
بكلماتي مسافات ومسافات إلى أن تؤدي إليك شعوري ولا أعلم هل
يسلبها البعد هذه الصيغة الحقيقية التي أراها لها وأنا أكتبها ، وأراها لها
حين تتركني ذاهبة إلى البريد ؟

وأنا - على هذا البعد - يوم أقرؤك أراك وإنك لأقرب إليّ من

هو أقرب إليّ ، وأشعر بالكلمات حارة متنفسة بين يدي كساعة
كتابتها ، كان قلبي كان عندك وأنت تكتبها فلما جاءته جاءته
على عهده بها !

هناك - مهما ابتعدت - دائرة أنس لنفسي تسكن إليها وتتعلق
بها ، ولا تجعل محيط أفكارها إلا منها ، فأنا بنفسي في هذه الجهة
البعيدة التي تفصلك عني ، ولكنني بها أيضاً في المكان الذي أنت فيه .

* * *

وهم الجمال

« وبعد أن تكافأت مقادير نفسه واعتدلت من اضطرابها وأشرف على السلوان ، كتب هذه الرسالة »^(١) :

هذه رسالة أحسبها قد برئت في معناها من السلوة والحب جميعاً ، وخرجت بموضعها عن الرضا والغيظ معاً ، ولم تجيء من برد على الكبد ولا من حرة في الصدر ، فلا يخيل إليّ فيها أني أنسكب في تعبيري كما كان يعتصرني هذا القلم في غيرها حينئذٍ وغراماً أو سخطاً وموجدة .

أكتبها وقد تكافأ جانباً الحب في نفسي هوناً هوناً ، واعتدلت مقاديرها شيئاً شيئاً ، فلا أعتد بسبب تصغر به الحقيقة الكبيرة ، أو تكبر الصغيرة ، أو يجاوز بمعنى حده ، أو يقصر بمعنى آخر عن حقه ، ولا أحجر فيها على كلام صحيح أن يتصرف بقدر أدلته وبراهينه لما أخشى من سوء موقعه في الحب ، ولا أطلق فيها لكلام مزور أن يتزايد في مغالطته وكذبه لما أرجو من حسن أثره عند الحبيب .

وأكتبها وقد أصبحت أرى وجهها الذي تحمله كالصورة ، يحملها

(١) انظر كتاب « السحاب الأحمر » لتستجمع تنمة هذه الآراء .

الحائط ^(١) ... وعدت أراها هي وأمثالها من الحبيبات كفقاقيع
الرغوة في ألوانها وجمالها وانتفاخها ... وفراغها . وصرت أعتقد أن
الهول الهائل من النساء الجميلات إن هو إلا كذلك الرعب الخيف من
جبال الثلج ، في القطب : لا يمسك الجبل الشامخ بما حوله إلا خيوط
واهنة من غزل الماء لو قطعتها نسمة لانهار وانكفا ^(٢) .

وأكتبها وقد خرجت إلى دنيا الناس وكنت في الحب وإياها
كالنقط في صحراء ضل فيها ضلال القفر ، واختبل من خبال الوحشة ،
فهو يرى اجتماع اثنين في ذلك التيه وقيامهما معاً كأنه تكوين دولة من
الدول العظمى ...

* * *

إن البلاغة التي كتبت بها رسائل من قبل وما احتلت لها به وما
صورت من فنونها ، هي بعينها التي تنتهي في هذه الرسالة إلى أن جمال
المرأة الجميلة ، ليس في ذات نفسه إلا أسلوباً من الخداع ، كالذي يكون
في تزويق الكلام وتمويه الحقيقة ببلاغة التركيب ، غير أنه أسلوب
حي في لحم ودم ، ثم تزيده المرأة بفنونها تزويراً وتعمية لأن جمالها في
صورة أخرى من صورته الكثيرة هو نفسه الرقق والاستعباد محبباً في
خلقة جميلة ليطلب ويعشق . استعباد حي متى بدأ استمر يقوى ولا

(١) أي وجه حبيبته ؛ وكأنه لما أمسك عما كان يمدّها به من خياله وأوهام حياته
انقلبت عنده كالجماد ، وهذا هو الشأن في كل من عشق وسلا .
(٢) تتصل جبال الثلج بعضها ببعض اتصالاً ثلجياً ، فكثيراً ما تهورها النسمات الخفيفة
حين تفصل بينها ! .

يضعف ، وينمو ولا ينقص ، ومن هذا كان قيد الجمال لا يفك أبداً إذا غل به أسيره من العشاق ، بل يكسر كسراً ، ويصبح فيه أمر العاشق من حبيبه كالاستقلال في الأمم المستعبدة : لا يعطى بل يأخذ ، ولا بد فيه من الجرأة والمصابرة والاقتحام وسلاح من الأسلحة أيها كان ، إما حاطماً أو مفزعاً أو متهدداً أو محتالاً أو سلاح الرضا أو سلاح الثمن ... وما إليها لا بد من سطوة ينقلب بها الأسير المستعبد إلا أن يكون مالكاً بوجه من وجوه التملك في تلك المنطقة الإنسانية السحرية المسماة في لغات الناس بالحبيب ...

* * *

فكان الجمال في حقيقته وسيلة طبيعية لخداع صورة بشرية بصورة بشرية مثلها ، ومتى كان كذلك فلا حقيقة له في الوجود ولم يعد صورة في الطبيعة ، بل عملاً أداته الصورة ، ومن ثم فلن يكون الحب إلا إسرافاً لا قصد فيه ، وخيالاً لا عقل له ، ولن يكون في حقيقة بل في وهم ، ومن ذلك ظن فلن يكون أبداً إلا تغييراً في معاني الصورة الجميلة ! فإن الإسراف لا يثبت على حد محدود ، والخيال لا يقف عند شيء حقيقي ، والوهم لا ينحصر في معنى صحيح .

وفكر الحب كالسائل الذي يغلي . فما دامت ناره من تحته فهو كله لا مقر له بين أعلاه وأسفله ، وما دام يهدر على فورته ^(١) فكله في

(١) الهدير : صوت القدر وهي تغلي على النار وتغور .

الأعلى ، وكله في الأسفل ، وكله بين ذلك ، ولا قرار له على وضع إلا أن ينكسر وينفث^(١) .

وكل شيء جميل في الطبيعة تراه يتخذ من هذا الأصل شياً عند متأمله والناظر فيه ، حتى لكان الجمال يقول للإنسان : إذا أردت أن تسر أيها الإنسان وتبتهج بي ، فلا تفهمني في نفسي أنا بل في نفسك أنت ، ولا تأخذني على ما أنا للوجود والطبيعة بل على ما أكون لك ولأغراضك ؛ ولا تدعني لذاتي بل غيرني في وهمك وخواطرك ، فإنك إن غيرتني فقد خلقتني ، وإن خلقتني فقد جعلتني لك .

* * *

وعلى ذلك الأصل فجمال المرأة المشوقة إن هو إلا خرافة رجل من الناس ، وبكونها خرافة عادت لا حقيقة لجمالها ، وكان الحب إن هو إلا زيادة شعاع في العين تنظر النفس به نظراً نافذاً إلى موضع لذتها أو فكرها أو هواها ، فإذا خطف هذا الشعاع على من يضيء في وجهه بالحب ، نقل إليه النفس ببقيتها ووهمها جميعاً فاختلطاً على تلك الصورة فهما هناك شيء واحد : الهم هو اليقين واليقين هو الهم ، فكل شيء من ذلك الجمال هو عقيدة ثابتة لا موضع فيها للجدل ولا مساع لنقض ولا محل لرد ، وحينئذ لا يكون أكبر عمل المحبوب في سياسته وتديره إلا أن يلم أو يوفق بين عقله هو وبين جنون عاشقه ، وأن يحاول الملاءمة بين حياة الخيال الشارد في إرادة هذا المجنون وبين حياة الواقع

(١) أي تنكسر حرارته وتخف وتبرد .

الراهن فيه هو ، وبذلك فلن ترى حبيباً إلا هو من محبه بمنزلة الطبيب من مريضه ، يطب له أو يزيد في علته ، أو يهلكه ... هذا حين ينبعث ذلك الشعاع ، فأما حين يحمد فنذا الذي تراه مطيقاً أن يصعد السماء إلى النجم الذي انطفأ ليضيئه كما كان يضيء ... ؟

* * *

أقول إن الحب زيادة شعاع في العين ، كانه كهربائية تتفاعل في مركز البصر من الدماغ فينقذ منها ضوء على النفس متلون نافذ لا يثبت فيه حقيقي من المرأة على حقيقته ، ولا يظهر فيه شيء إلا مصبوغاً مغيراً . ولا يردده راد عن أن ينفذ إلى منتهاه ، حتى لينكشف له المستور وهو في أستاره قد توارى ، وما من حبيبة تجلس إلى محبتها المفتون بها إلا هي تحت بصره كالعارية وإن لبست ما لبست ، لأنها بالحب جسم حي من أفكاره وهواجسه ونزعاته ^(١) .

ولو بقيت عين المحب على عنصرها لكان الجمال في روح الجميل وشمائله وطباعه لا في وجهه وجسمه وزينته ، ولعل أجمل نساء الأرض حينئذ لا تكون إلا عجوزاً من العجائز ... ثم عسى أن تكون أشد النساء فتنة أشدهن قبحاً ودمامة وأبعثهن في معاني الشهوات على النفرة

(١) ما أحكم الآية الكريمة « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » والآية الأخرى « وقل للمؤمنات يغضن من أبصارهن » فكان المرئي لا يمكنه أن يستتر عن شهوات ناظره بشيء ما ، فمن هنا وجب أن تستتر عن الرائي ، وهذه هي حكمة التعبير بـ « يغض ويغضن » وتكرار اللفظة في الآيتين ، كأن العين تختبئ وتستتر ، فهل رأيت إعجازاً أبعد أو أدق من هذا ؟

والجفوة والاشمئزاز ، وهذا إن لم يكن هو الواقع في اعتبار العين والخيال والحب ، فهو الواقع في اعتبار الفضيلة والحقيقة والكمال .

* * *

إنما التركيب الجميل في الشكل الفاتن إلتقان للكذب بهذا الشخص على حواس عاشقه ، وهو لن يحب ويعشق حتى تكون معاني هذا الإلتقان موزعة على تكوينه وقسماته وتقاطيعه ومعارفه ومجاهله .. كان جسمه بكل ما فيه عبارة مركبة يؤخذ المعنى من جملتها كلها ، ولكن كل جزء فيها يسوق إلى هذا المعنى ، ولذا تظهر الصورة الجميلة الفاتنة كأنها انتباه نفسي محتفل مستوفز يشد ويتوثب ليزيد ، ويتكسر ويتقتل ليزيد أيضاً ، ويخلق حوله من الثياب والزينة والفتنة جو الأشعة والألوان والنفحات ليزيد كذلك .

وهل رأيت قط كذباً يصلح كذباً أو خداعاً يكون خداعاً إلا وهو قائم على مثل هذه الحال من التنبه في النفس ليتغطى ولا ينكشف ويبقى ولا يضمحل ؟ ثم هل رأيت قط شبيهاً لمن أضل رأيه وصوابه في وجه فاتن يعشقه إلا ذلك الذي أضل حذره وفطنته حين أحكت له الخديعة في حلاوة الظاهر وطلاقة الكذب وتبرج الحيلة في زينتها حتى غفل ووقع ؟ فهذا كما ترى .

وإذا لم تجد الجمال في فتنته ونضجه وقوته كأنه انتباه نفسي محتفل مستوفز على ما وصفنا لك ، فلن تجد معه العشق الذي يسمى عشقاً ، ومنذا يحك يستهام بامرأة مدبرة قد خلا من سنّها واقتحمت العقبة

الأخيرة^(١) ، أو امرأة مريضة نهكتها العلة ، أو التي بقيت روحها في جسمها ولكن مات وجهها^(٢) ... ؟

* * *

وعندي أنه لو شبه العاشق وجه حبيبه بالصحراء المجردة المقفرة قد ضل فيها رشده وضربته بكل جهاتها وضاع في معناها الأبدي معنى عمره الوقتي ، لما رضيت له الحقيقة غير هذا التشبيه المنطبق المحكم ولا رأت أقرب ولا أدق ولا أبداع منه ، ولكن الوجه الجميل كذب ظاهر ولا يلائمه إلا كذب مثله ، ومن هنا فاض الشعر وأصبحت أوصاف الجمال كلها تمويهاً على الغرير وتزويراً للبشرية في غير حقيقتها وتلبساً على روحانية الإنسان ، وعاد الوجه الجميل كالصالح المنافق : صالح ومنافق معاً ، أي منافقان في شخص واحد ... !

* * *

والطفل يرى في أمه البداية والنهاية جميعاً ، لأن طفولته ستار بينه وبين ما وراءها ، وكذلك العاشق : يرى في حبيبته بداية ونهاية معاً ، لأن حبه ستار بينه وبين ما عداه ، يحصره بين أول وآخر في امرأة واحدة ، أفلا يكفي هذا دليلاً على بلاهة العاشق وغرارته ، وأن الحب كالانتكاس إلى الطفولة في جهة واحدة من جهات النفس ؟

وترى الصغير إذا فارقت أمه نظر حوله ليستشف ما انفصل من

(١) خلا من سنها : أي كبرت وذهب أكثر عمرها ، واقتحمت العقبة الأخيرة : كناية عن دخولها في الشيخوخة .

(٢) كناية عن دمامة الوجه وذهاب جماله مع بقاء الجسم فتياً شاباً .

آثارها المحبوبة على كل الأشياء التي فيها حنين نفسه ، وكذلك يفعل
الحب في كل ما مسته حبيبته ، حتى كل شيء عليه لمحة منها ، حتى ليرى
بعض الأشياء يكاد يبتسم له ، وبعضها يرنو إليه ، وبعضها يكاد يتيه
ويتدلل ويصد ..

وحول الحبيبة ، تتفق لعاشقها كل عناصر الحياة المتناقضة إذا
شاءت هي ، ومنها هي أيضاً تختلف هذه العناصر إذا شاءت ، كأنها
- أي الحبيبة - حياة لحياته لا مقصر له عنها ، وكذلك أمر الطفل من
أمه ووجهه فيها .

* * *

خلقت المرأة لتلد الإنسان ، وهي تلد هذه الحقيقة في الإنسانية ،
ولكن وجهها يلد في الإنسانية الضلالة ..

ولا أدل على وهم جمالها وأنه في نفسه وفي نفسها لا أثر له - لا أدل
على ذلك من أن تتراءى الجميلة في مرآتها ؛ ثم تنظر نظرتها الساحرة
ترف بالقبلة من شفيتها على شفيتها في المرأة ..

أما إنها وهي القبلة التي تلقيها الشفاه الحمراء شعلة منها في القلب
أو الفكر وهي القبلة التي احتوت روح الخمر في سيالها المعنوي ، وهي
القبلة ... هي القبلة !

ولكن الجميلة حينئذ ستقول : إنه لا بد من رجل مغفل ليخلق
هذه المعاني للقبلة ويسمي من جنونه تلك الحركة الطبيعية للشفيتين
باسم مجنون .

والمرأة ترى بعينها في إناث الطير والبهائم من الجمال ومعانيه
ما يروقها ويكثر عندها ، غير أنها لا تحس ذلك من امرأة مثلها ، إذ
من الصدق ألا يصدق كاذب كاذباً^(١) ... فإن لم يقنعك أيها الرجل
دليل فهذا فليقنعك ... !

ومن ثم فما يعرفه الرجل جمالاً منها إنما هو فن جسمها ، أي تعبير
تكوينها عن حقائقها النسوية ومجاوبته بمعانيها على ما في نفس الرجل
من معان تقابلها . هذه المعاني الصامتة والصارخة معاً .. والتي نسميها
تسمية غير مكشوفة وغير مغطاة أيضاً - هي التي نضع لما يشعرتنا بها
ويستهوينا منها لفظ الجمال ؛ فيكون بذلك مفهوماً وغير مفهوم ..

فليس الحب إلا وقوعك في التيه الذي يكون بين الفكر وهو رأي
ورغبة ، وبين الفكر وهو حقيقة وحادثة ، ومن هذا تجد لذة الحب
الشعرية بطبيعة الحال لا تملأ إلا المسافة الكائنة بين غير الممكن^(٢) ...
ومن تهكم السعادة على الناس أنها دائماً في غير الوجود إلى أن يوجد .

* * *

قال الشيطان : أنا لون هذه المرأة الجميلة حين أكون منافقاً^(٣) ،

(١) تشذ في هذا بعض النساء المذكرات اللواتي خلقن ذكوراً وانحرفن في التركيب إلى
الأنثى ، فتراهن يمشقن النساء عشق الرجل ويفرن عليهن أكثر من غيرته ، ومن قليلات .
(٢) الأكثر أن الحب الشعري هو الحب الخائب ، ولكن في بعض الناس أرواحاً قوية
لا ترى أنها الظفر إلا في هذه الحية إذ هي لا تريد المرأة بل معانيها كما نبهنا إليه في
المقدمة .

(٣) يتفق لنا كثيراً أن نرى في النوم كأننا نقرأ شعراً أو نقرأ أو كلمات من اللغة
وتفسرها ، ويحيى بعض ذلك على أنه من الجمال والروعة والغرايب ومنه هذه الجملة بحروفها ،
أثبتناها كما هي ثم أكملناها بالباقي من لون المرأة القبيحة ، لتتم المقابلة . وفي هذا الكتاب ←

ولون هذه المرأة القبيحة إذ أكون صريحاً ..

قلنا : فلعله لذلك لا تتجمل إلا الجميلة ليم بها نفاق الشيطان .. !

* * *

→ بعض جمل مما ألقى إلينا مناماً ولكننا لم ننبه عليها ، ومنها عبارة (غرس الفجر) في
الكتاية الحديقة بالوانها ونسيمها وجهاها وقد مروت في صفحة ٧٦ وهي كما ترى قد لا تجد
مثلاً في الأدب العربي من أول عهده إلى اليوم ، وما كان لنا فيها من عمل ولا فكر البتة .
وإنما أثبتنا هذا التعليق ليقن من لم يوقن بأن من الممكن أن يأتي الوحي بأسمى البيان
وأعلى الحكمة وأعجب البلاغة ، متى كانت النفس مختارة مضطفاة . كالذي أوحى من الكتب
المنزلة ، فليس يشك في ذلك إلا غبي بليد الحس لا يدري ما هو البيان وما الإلهام . ولسنا
نزعم أن ما رأيناه هو من هذا القبيل وإنما هو الدليل على إمكانه لا غير .
قلت : في هذا التعليق شيء يكشف عن نفس الراقعي وإيمانه ويقينه ، وفي كتابنا
« حياة الراقعي » فصل ضاف يحمد القاريء فيه تمام الحديث عن هذا الموضوع بعنوان
« من شؤنه الاجتماعية » .

والسلام عليها

« وهذه كانت آخر رسائله في حب صاحبه تلك (*) » .

أحببتها جميلة لأوجد بها الجمال في معاني وذوقي ؛ ورقيقة لأسيل منها بالركة في عواطفي وتزعاتي ، وظريفة لأزيد بها في نفسي طبيعة مرح وابتهاج ، ومتوازنة لتدخل في طباعي الانسجام والوزن وصحة التقدير ، وناعمة لتخلص بروحي من خشونة الضرورات القاسية في الحياة ، ومتفطرة لألقي من تفتريها على بعض أيامي فتقلب حبيبة بما تمنع وتصد ، ورشيقة لتهب خيالي سر التوثب والحركة ، وجذابة لأجد بها المغناطيس الذي يجذبني في الإنسانية إلى مصدري الأعلى .

وأحببتها وهي يجملتها فن وجمال ووحى ، لأرجع وأنا يجملتي حسن وانفعال وإدراك .

وكننت كأنما أضرب من الحياة في قفر من المعاني الجافية لا أتوسم

(*) قلت إن كانت هذه الرسالة هي آخر ما أنشأ الراقعي من رسائل الحب فقد أنشأ من بعد فصولاً من وحي هذا الحب ومن ذكرياته ، يطالعها القراء في (وحي القلم) ، ورسائل أخرى بعث بها إليها بعد ما كان بينهما من القطيعة بعشر سنين ولم تجد صورة منها فيما خلف من أوراقه أتراما تأذن بنشرها أو هي تدخرها إلى ميعاد ؟
أقرأ ص ١٤١ من كتابنا (حياة الراقعي) .

نضرة لا أتهدى إلى حقيقة جميلة ، فأرسلتها الحقائق السامية التي تعشقها
نفسى تقول فى جمالها : تعالى إلينا من هنا : إن الطريق من هاتين
العينين ... !

* * *

لا أقول إنه قد وقف نمو الكلمة السحرية التي تزداد وتعظم بتجدد
الأيام إذ كل يوم فى الحب هو دائماً أول حب .

... ولا أقول إن ذلك الاسم الجميل قد أنزل عن عرش الفكرة التي
كانت تملكه الوجود لأنها أملكته القلب .

... ولا أقول إن الذكرى قد سلط عليها النسيان فصفها من
حوادثها وأيامها .

... ولا أقول إن ما كان فى النفس جنوناً وعقلاً من معاني الحب قد
رجع فى النسيان كالكلمة المكتوبة على ورقة حبس فى الورقة معناها إلى
أن يوجد من يقرأه فيخرجه .

... ولا أقول إنها قد بطلت القوة المتضاعفة من الجمال وكانت
تجعل كل ما يؤلم من الناس يؤلم منها هي أضعافاً ، وكل ما يسر من
الناس يسر منها هي أضعافاً ، كأن الذي هو إنسانى فى الخلق ليس
إنسانياً فيها .

... ولا أقول إنه قد اختفى من ذلك الوجه برهانه الذي كان
يقوم بسحره الساحر دليلاً مقحماً فى كل قضايا الحببة المتناقضة ، فلا

تتوافق وهي متناقضة إلا على نتيجة واحدة هي أنها الحبيبة ، مهما تأت
أو تدع فليس بشيء منها على هوان .

... ولا أقول إنه ليس بين ما تعجب به وما تزدريه إلا رجعة
خطوة منقلبة وأنها هي قد خطتها فليست هي بعد .

... ولا أقول إن روضة الحب قد انتهت إلى أيامها المتشعرة التي
تظهر فيها كل أشجارها حاملة من اليبس والتجرد اعلان آحر الفصل..

* * *

... ولكنني أقول والسلام عليها !

* * *

تم بحمد الله تعالى

فهرس

صفحة	صفحة
٨٥ رسالة الابتسامة	٥ فاتحة
٩٢ جواب الزهرة الذابلة	٧ تصدير
٩٥ يا للجلال - رسالة الجاذبية	١٣ صدر من التاريخ
١٠٠ الأشواق	٢٥ المقدمة
١٠٥ كتاب رضا (شعر)	٣١ وزدت أنك أوت
١٠٦ رواية القلم	٣٤ زجاجة العطر
١١٠ نار الكلمة	٣٧ ما نفع رقة روحي (شعر)
١١٥ المتوحشة	٣٨ رسم الحبيبة
١٢١ أما قبل ...	٤٢ البلاغة تتنهد
١٢٧ جواب غريب	٤٧ رسالة للتمزيق ...
١٣٤ كذب مصور (شعر)	٥٤ القمر
١٣٥ لماذا .. لماذا ؟	٥٩ قال القمر ... (شعر)
١٤١ كتاب لم تكتبه ...	٦٠ نظراتها
١٤٤ قالت وقلت	٦٥ استمداد فلسفة
١٤٩ الغضبى	٦٩ صرخة ألم
١٥٥ هدية شتم ...	٧٤ وألم الحب ؟
١٥٩ متى يا حبيب القلب ؟ (شعر)	٧٨ منى السلام (شعر)
	٧٩ الحبيبات والمصائب ..